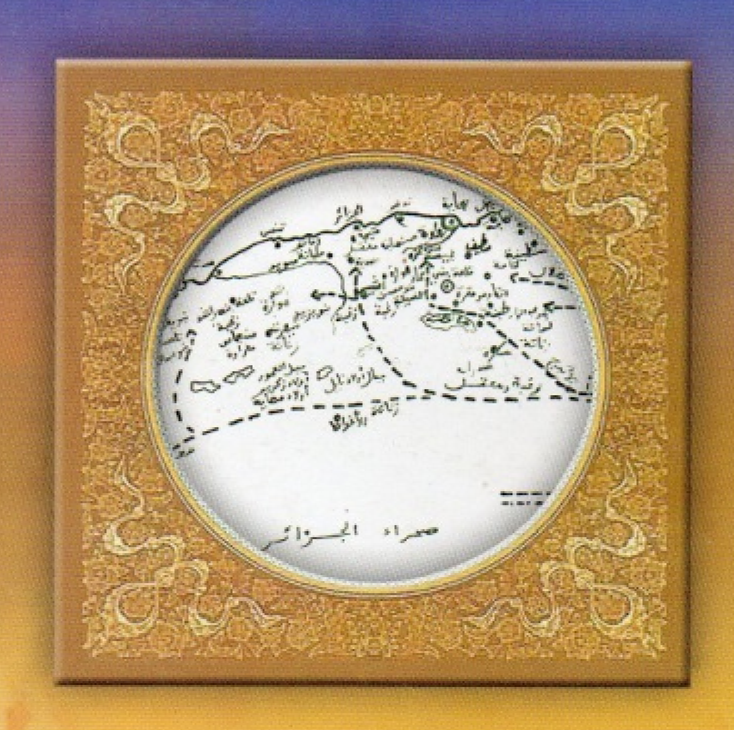
سلسلة الدراسات الكبرى

محمد الطمار

المغرب الأوسط في ظل صنهاجة





ديوان المطبوعات الجامعية

محمد الطمّـــار

المغـــرب الأوســـط

فـي

ظــل صنهــاجة



ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر: 4.07.4796
رقم ر.د.م.ك(ISBN): 978.9961.0.0872.0
رقم الإيداع القانوني: 2010/1887

تقديـــــــم

أ.د.عبد الجليل مرتاض

الجانب السياسي:

كل من يتاح له أن يقرأ مقدمة الكتاب الذي رصده الأستاذ محمد الطمار للصنهاجيين الذين برزوا على مسرح التاريخ الجزائري زهاء قرنين من الزمن (من منتصف ق4 إلى أواسط ق6هـــ)، لا يتردد في إدراك المغزى الوطني من تأليف هذا الكتاب، فالمؤلف لا يتهم من سبق لهم أن درسوا تاريخ صنهاجة بالتقصير، ولكن يأخذ عليهم أنهم اهتموا بالجانب العسكري والسياسي لهذه الدولة على حساب الجانب الحضاري الذي بقي مغموراً وسط الأحداث السياسية والعسكرية، ويأتي هذا العمل المتميز بعد كتابه "تلمسان عبر العصور".

إن كتابنا هذا يتناول أحداثا مغاربية مؤلمة شائكة تارة، ومفرحة لبعض الفرق والميولات السياسية والمذهبية تارة أخرى، وكان الصنهاجيون ممن أسهموا في ترجيحها لصالح طرف على حساب طرف آخر، وكان طرفهم المرجّح والمتعصّب له سلالة الفاطميين على حساب الأمويين في الأندلس وطوائف أخرى طموحة لاعتلاء سدة الحكم، والاستئثار بجهة من الجهات، لذا فإن المعز، وهو يهم بالرحيل إلى مصر عام 361هـــ لم يتوان لحظة ليترك الولاية لبلكين الذي كان لقبه يوسف تارة، وأبا الفتوح مرة.

ما كاد الخليفة الفاطمي يستقر في القاهرة حتى نشبت الفتن البرية في معظم الحواضر التاريخية، فتصدى لهم بما في ذلك تلمسان التي طرد منها الزناتيين، غير أن التلمسانيين رفضوا الخنوع له، وفي النهاية استسلموا له، فعفا عنهم آمراً إياهم بالانتقال إلى أشير قاعدة الزيريين.

قويت شوكة بلكين، ونشر سلطانه على تونس والمغرب الأوسط، وجزء كبير من المغرب الأقصى، حيث فتح فاس، وقطع دابر زناتة التي كانت استولت على سجلماسة، بل لم تنج منه إلا سبتة، حتى وإن دفع حياته ثمناً لتلك الفتوح، وهو عائد لقاعدة ولايته، ليخلفه ابنه المنصور عام 375هـ، الذي عظمت الفتن والخروج عن طاعته الأمر الذي جعل هذا الأخير يلاحق أعداءه في كل مكان من المغرب الأوسط، وبلغ الحقد بالصنهاجيين أنهم لم يتورعوا في سلخ عدوهم وأكل لحمه البشري، مثلما فعلوا ذلك مع أبي الفهم الخراساني المتمرد عليه في كتامة، على الرغم من نهي العزيز للمنصور من التعرض له.

قبل أن يتوفى المنصور عام 386هـ، كان ما يعرف بالمغرب العربي قد دخل طوعاً أو كرهاً تحت لوائه، فألقى ولي عهده باديس، وهو غلام حديث السن، الملك ممهّداً أمامه، وسبل الحكم مهيأة له، في ظل طاعة عمياء لأوامر الخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر، وواصل الحرب ضد كل مناوئ من مناوئيه، إلى أن وصل الأمر إلى تمزيق البيت الزيري الصنهاجي من الداخل، أخطر ذلك خلع حماد مع شقيقه إبراهيم الطاعة لابن أخيهما أبي مناد باديس، بل أظهر حماد العصيان للفاطميين، والدعوة للخليفة العباسي منذ عام 405هـ، مما غاظ باديساً وعمّق حفيظته، وأزمع أن يلاحق عميه أينما حلاّ،وطاردهما

حتى الشلف، وانتصر عليهما، وكاد يخمد نار الفتنة لولا قضاء باديس نحبه بلدغه عقرب ليلا، وهو يحاصر قلعة عمه حماد التي صمدت أمام جنده أشهراً، لكن وفاة باديس بعثت في نفوس قادته إشكالات، فاضطروا إلى الرحيل لمبايعة ابنه المعز الذي لم يكن سنه بتجاوز الثماني سنين وستة أشهر.

إن العفو الذي سيضفيه المعز بن باديس على عميه حماد وإبراهيم، سيعقبه تفاهم واتفاق عائلي بتجزئة دولة صنهاجة إلى دولتين: زيرية، وحمادية منذ سنة 407هـ، فآل المنصور بن بلكين بقوا في قيروانهم، وآل حماد بن بلكين، استأثروا بالقلعة ثم بجاية.

نفّذ حماد ما جال بخلده من نبذ الطاعة للفاطميين ومذهبهم الشيعي والدعوة إلى الخليفة العباسي، وملاحقة الرافضة والترحم على أبي بكر وعمر، وفرضه المذهب السني، وبعد وفاته عام 419هـ، واصل ابنه القائد بن حاد مسيرته في الرعية وتدبير شؤون بلاد المغرب الأوسط، واستطاع بدهائه أن يتجنب حروباً مع ابن عمه المعز، بل اقتنع هذا الأخير بإلغاء الدعوة إلى الفاطميين، وأمر رعيته في إفريقيا بتبني مذهب أهل السنة اقتداء بما كان رسمه عمه حماد، فلقي ذلك استحسانا وارتياحا لدى العامة والخاصة.

كان طبيعيا أن يغضب موقف المعز بن باديس المستنصر الفاطمي الذي أراد أن ينتقم من الدولتين في تونس والجزائر بطريقته الخاصة، أن يرسل أعراباً أجلافاً عرفوا في التاريخ المغاربي ببني هلال، وهم قبائل عربية، كان لها وقعها الهمجي، مثلما كان لها أثرها الإيجابي، غير أن هؤلاء ما لبثوا أن اندمجوا مع المغاربيين بالمعاشرة

والمصاهرة، وذابوا في بعضهم بعضاً، وإليهم يرجع الفضل في تنشيط الحواضر والبوادي اجتماعياً ولغوياً.

ولا تزال الدولة الحمادية في بجاية تنهض تارة، وتعثر مرة، وتناوش شرقا وغرباً وجنوباً من بني جسدهما والأعراب وقوات خارجية جديدة طوراً، حتى تضعضعت على يد الموحدين عام 547هـ، وملكها يومئذ يحيى بن العزيز الذي وهبه عبد المؤمن الأمان، وصحبه معه إلى مراكش، وأمر بعناية به لا تفوقها عناية، ليتوفى بعد ذلك في سلا عام 558هـ.

الجانب الحضاري:

وبعد أن يفرغ الكتاب من سرد أحداث أليمة شائكة ومعقدة في المغرب الأوسط، بل في تونس والمغرب الأقصى أيضا، في قرنين من الزمان، يأبى إلى أن يرسم معالم مشرقة للجانب الحضاري الذي ورثه الزيريون من الإمارات والدول السابقة، وزادوا عليه زيادات لا تبرح تشهد أطلالها ورسومها عليهم في القيروان،والمهدية وأشير، وبجاية،... بله الحدائق، والمزارع، والأشجار، والحمامات والطرقات، والآبار والعيون، والصناعات المعدنية والنسيجية والجلدية، والأسواق الأسبوعية والموسمية،...

فهذا ابن حوقل الذي زار جزائر بني مزغنة عام 337هـ، يصفها بأوصاف حضارية وثقافية وعمرانية تدل كلها على الرخاء والتمدن والتعايش المدني، وبعد تجديدها من بلكين بن زيري بن مناد زادها المقدسي اتساعاً في إضفاء معالم حضارية عليها، وبعدهما البكري الذي وصفها بأنها مدينة جليلة تدلّ على أنها كانت دار مملكة لسالف

الأمم، ولم يقصُر الإدريسي دون الثلاثة في ذكر ما كانت تتمتع به جزائر بني مزغنة من تعمير سكاني، وعيون وآبار عذبة، وتجارة مربحة، وصناعة مزدهرة، وتجارة رائجة، تسوّق مواد منها إلى بلاد وأقطار مجاورة.

ويستمر هذا المشهد الحضاري على عهد الحماديين ليشمل المغرب الأوسط كله (الجزائر)، وخاصة بعد بناء بجاية التي أشار إليها البكري بأنها مدينة أزلية تزينها جبال جرجرة وطبيعتها الخلابة المحيطة بها براً وبحراً، هي مدينة عامرة شامخة ظلت تقاوم الزمان والدخلاء، على الرغم من احتلالها من الإسبان عام 1510م انتقاماً منها لإيواء المسلمين الفارين من جحيمهم بشرفهم ودينهم، مدينة تتألف من واحد وثلاثين حيّا، فيها ما يربو على الخمسين مسجداً. أما المصانع والأسواق، والشوارع، والحمامات، والمدارس، والبساتين ومدّ قنوات المياه، والمشاهد المعمارية، والظواهر الإبداعية،... فأكثر من أن تحصى في مجلدات.

ومثل جزائر بني مزغنة وبجاية مدن وحواضر أخرى كتلمسان، وجيجل، وبسكرة، وقسنطينة، ولمدية، وأشير، وسطيف، ولبويرة، ومسيلة، وتيهرت، ووهران، ومازونة،... إلى جانب الموانئ والقلع، عرفت استقراراً نسبياً، وتحسناً اجتماعياً، رغم القلاقل والفتن المستمرة، في عهد الزيريين بعامة، والحماديين بخاصة.

وبالنسبة للجانب الإداري، فإن الحماديين ظلوا منذ عهد حماد يخطبون لبني العباس في بغداد بدل الفاطميين في مصر، وكانوا سلاطين مترفعين عن لقب الخليفة أو مؤمنين بالسلطة المركزية الروحية

لها، مما يدل على نزعتهم إلى الوحدة ومد الجسور أكثر من ميلهم إلى الفرقة وشق عصا الطاعة، ولم يتخذوا حجاباً ليكونوا وساطة بينهم وبين الرعية، ولا نجد لروح العصبية أثرا فاحشاً في تعيين كتابهم وولاتهم ووزرائهم، وما من شك في أن نبذهم الدعوة للفاطميين شفرة واضحة تدعو إل التمسك برأي أهل الجماعة، علما بأن المغرب الأوسط ظل محميا من المذهب الشيعي السائد في جهات أخرى من إفريقية، وخاصة بعد دعوة الحماديين لبني العباس، وهم سنيون، وبعد انقراض دولتهم، خلفهم سنيون مالكيون (المرابطون والموحدون)، مما عزّز رسوخ المذهب المالكي وانتشاره في المغرب العربي كله، إلا في جهات متروية ظلت متمسكة بما ورثته عن أسلافها من مذهب آخر.

الجانب الأدبي والعلمي:

وفي الناحية العلمية والأدبية والفكرية والفنية، فإن الجزائر لم يَعْقمْها الله في جميع عهودها الحضارية من أن تنجب رجالات أسهموا في الرقي الثقافي المحلي والإنساني، ومن ثم فإن القرنين اللذين عاشتهما بلادنا في الفترة الصنهاجية عرفت علماء وفقهاء ومحدثين وشعراء وأدباء،...تجاوز صيت بعضهم آفاق المغربي العربي، من هؤلاء المحدث الكبير أبو بكر بن يحيى الوهراني (431هـ) الذي كان رائد رجال الدين في الكتاب والسنة، وكان معاصراً البوني عبد الملك مروان (439هـ) الذي تعاطى الفنون الدينية ولاسيما الحديث، وجال في الأندلس والمشرق لطلب العلم والتعمق والتفنن فيه، ومنهم العالم اللساني أبو القاسم يوسف البسكري (465هـ) الذي تخصص، بوجه أخص، في علوم اللغة والقراءات القرآنية مما جعل نظام الملك يستدعيه

وينصّبه أستاذاً في مدرسة نيسابور، يعضده في النحو والصرف الحسن بن علي التيهرتي (501هـ) الذي تخرج على علماء في الأندلس حتى أصبح من أئمة عصره في هذين العلمين العربيين.

ومن ثم، فإن الحواضر والمراكز العلمية والثقافية عرفت علماء جزائريين خلال هذين القرنين، لم يستغن اللاحقون لهم عن بصمات أفكارهم النيرة في اللغة والأدب والحديث والشريعة والعلوم الفلكية والرياضية، من هؤلاء عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الكاتب، والشاعر البارع، والناقد الثاقب الذي تأثر به مواطنه ابن رشيق تأثراً لا تستخفي معالمه في العمدة، أما ابن رشيق المسيلي نفسه فأشهر من أن يشار إليه، غير أنه لابد من الإشادة بهذا الرجل الذي عمل على تغيير منهجية النقد التقليدي عند العرب، وخاصة نظرته إلى النص الشعري على أنه بنية كلية، كل جزء فيه من لغة وبلاغة وتركيب ووزن وقافية،...لا يستغني عن صنوه الآخر.

وكان لثورة الأعراب على المعز بن باديس الذي هاجر القيروان إلى المهدية فوائد للحماديين، إذ هاجر إلى عاصمتهم والحواضر المحمية تحت سلطتهم علماء وأدباء وفنانون ماهرون، فنهضت الثقافة بها نهضة كبيرة، خاصة وأنها صادفت قائداً يحب العلم، ويصطفي أهله إنه الناصر بن علناس، من هؤلاء الذين شاهدتهم قلعة بني حماد، أبو الفضل بن النحوي الذي تجول في المغرب الأقصى، ودخل سجلماسة ليعلّم بها أصول الدين والفقه، ويذكر الدارسون العارفون بآثاره أنه كان متأثراً بأبي حامد الغزالي، ولاسيما كتاب "إحياء علوم الدين" الذي انتسخه أبو الفضل في ثلاثين جزءا، حتى أنه

كان يقول عن نفسه "وددت لو أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب"، ومن أشهر إبداعاته الشعرية "المنفرجة" التي أثبتها الغبريني في "عنوان الدراية"، وحققها الدكتور أحمد بن محمد، لتنشر عام 1984م.

وما أن انتهى الحماديون من تأسيس مدينتهم الجديدة (بجاية) في عهد الناصر حتى تقاطر إليها الطلبة والعلماء من كل الأصقاع والجنسيات والأديان، يشهد بهذا شارل سينيوبوس صاحب "تاريخ الحضارة" الذي ذكر أن أهل بيزا الإيطاليين كانوا ينزلون مدينة بجاية، فتعلموا منها صنع الشمع الّذي نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبة، وببجاية نفسها تعلم فييناتشيو العلوم الرياضية وعلم الجبر العربي والمقابلة ليدخل كل ذلك إلى أوروبة التي كانت حتى ذلك الحين في غفلة من أمرها.

وممن دخل الجزائر حواضرها بما في ذلك عاصمة الحماديين، الشاعر المفلق ابن حمديس الصّقلي الذي تزامنت موهبته الشعرية مع استيلاء النورماند على جزيرته، فاستقبله الحماديون بكرامة وحفاوة، فتفجرت قريحته، وانبرى إلى وصف أهم مآثر بني حماد في بجاية، ومن أجمل ما قال في ذلك رائيته الشهيرة في وصف مسكن فخم بناه المنصور:

قَصْرٌ لَو أَنَّكَــ قد كَحَلْتَ بنوره ... أَعْمَى لعَاد إلى المقام بَصيراَ
واشْتَقَّ من معنى الجنان نَسيمَه ... فكاد يُحْدث بالعظام نُشُورا
نسي الصبيح مع الفَصيح بذكره ... وسما ففاق خَوَرْنَقًا وسَديرا
لو أنَّ بالإيواء قُوبِــل حُسْنُــهُ ... ما كان شيئاً عنده مَذْكُورا؟

ولبث عبد الجبار بن حمديس (447-527هـ) في بجاية يشيد بمبانيها ومعاملها، وجد في هذه ؤالمدينة المضيافة أجواء حضارية من تجارة، وصناعة، وصيد، ومواصلات، ربما أنسته نكباته وفواجعه التي لحقت بوطنه وبحياته الخاصة، مما حدا بصاحب "نفع الطيب" أن يشيد بشعره في وصف المعالم الحضارية الحمادية، بل أعجبه المقام في بجاية، وبقي فيها إلى آخر حياته.

إشارتنا إلى عبد الجبار ليست إلاّ مثالاً عارضاً، وإلا فهناك رجالات ألمعيون أريبون في اللغة والأدب والفقه والتاريخ والجغرافيا والعلوم والحساب، قصدوا بجاية هروباً من اضطهاد النورماند في صقلية التي سقطت في أيديهم بصفة نهائية بعد عز عربي، ومنعة إسلامية، فهؤلاء العلماء عاشوا كلهم في كنف المنصور ومن جاء بعده من الملوك والقادة الحماديين الذي كرّموهم، وقدّموهم في المجالس وأغدقوا عليهم عطايا وهبات نفيسة، مما شجع النازحين إليها بالشعور بالطمأنينة والاستقرار، والباقين غير المستقرين في المغرب الأقصى والأندلس، وإفريقية، بشد الرحال إلى بجاية والمكوث بها إلى آخر حياتهم، والحمد لله أولاً وأخيراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أ.د.عبد الجليل مرتاض

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه. أما بعد، فقد سبق أن تحدثنا عن تلمسان ومساهمتها في سياسة وحضارة الجزائر عبر العصور، وقد عاهدنا أنفسنا أن نتمادى في تسجيل تطورات تاريخ بلادنا، نريد أن نحيي الوعي الوطني الذي يرتكز على معرفة تاريخ أمتنا العريقة وتجلية معالمه في ميادين السياسة والعمران وإظهار ما ساهمت به على مر الأيام في بناء صرح الحضارة الإنسانية.

فحديثنا هذه المرة سيكون إن شاء الله، عن بلادنا في ظل الصنهاجيين، وهؤلاء قد ساسوا البلاد ولم يألوا جهدا في تطويرها عمرانيا وحضاريا.

قد حدثنا عنهم المؤرخون القدماء، ولكنهم عنوا بالوقائع الحربية والنزاعات السياسية أكثر من عنايتهم بالناحية الحضارية، فبقيت الأخبار المتعلقة بالتاريخ الحضاري مغمورة وسط الأحداث السياسية، فنأبى إلا أن نسد هذه الثلمة حتى يكون بحثنا جامعا مانعا. سنعتني بجميع جوانبه السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية والثقافية والحضارية، وذلك طبعا، حسب المستطاع.

وتاريخنا ليس مجرد أنوار ساطعة وحياة سعيدة على الدوام، فبينما كانت القصور، لا يرى مثلها شرقا وغربا، في العواصم مثل القلعة وبجاية وتلمسان كان بعضهم يسكنون الأخصاص في الجبال

واحيانا في البسائط، وبينما كان الشعراء والعلماء يتطارحون في تلك القصور كان الجهل في كثير من جهات بلادنا، فتسجيل كل هذا واجب، فالمؤرخ الذي لا يتحرى الحقيقة ليس بمؤرخ.

وعلى كل حال، فإننا نسأل الله أن يعيننا على مشروعنا هذا ونتمنى أن يجد فيه القارئ اللبيب ما يعينه على معرفة حقيقة ماضي بلاده في فترة الصنهاجيين الذين ظهروا على مسرح التاريخ الجزائري في نصف القرن الرابع للهجرة وذهبت ريحهم أواسط القرن السادس (547) ولله الأمر من قبل ومن بعد.

تمهيـــد

التعريف بصنهاجة:

إن علماء النسب متفقون على أن البربر ينقسمون إلى فرعين: البرانس وهم أبناء برنس والبتر وهم أبناء مادغيس الأبتر. وبين النسبين خلاف، هل برنس ومادغيس هما أخوان لأب واحد أم لا؟ فابن حزم[1] الأندلسي يرى أن للبربر جدين برنس ومادغيس وهما لجد واحد والجميع من نسل كنعان بن حام بن نوح. وعند المطماطي وغيره من نسابة البربر أن البرانس فقط من كنعان، وأما البتر فهم بنو برقيس عيلان. ويزعم السلاوي أن الشعبين معا عريقان في البربرية، وأن الجميع من ولد مازيغ ومازيغ من ولد كنعان بن حام بن نوح. أما ابن خلدون فيضطرب فيما يخص نسب صنهاجة وكتامة، فمرة يؤيد ابن حزم واخرى يرجعهم حمير مؤيدا النويري والطبري وابن الكلبي.

والحاصل أن أقوال نسابة العرب متضاربة في شأن أصل البربر ولا يؤيدون آراءهم بقرائن علمية ولا بحجج دامغة يقنعوننا بها. ولعل السبب في ذلك أن الموضوع لم يطرقه أحد قبل العرب، فبقي غامضا يحتاج إلى بحث علمي دقيق عميق. ألم يكن المغرب آهلا قبل هذه القبائل التي تخالف النسابة في إثبات أصلها؟ ألم نعثر على عظام يرجعها علماء الآثار عهد سحيق؟ ألم نكشف أحجارا منحوتة قد تفنن في صنعها الإنسان البـــدائي، وآلات مترلية تدل على أن هذا البدائي نما

(1) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (384 ـ 456)

عقله على مر الأيام، فتطورت حياته وكثرت حاجياته؟ أليست إذن هذه القبائل التي تضاربت أقوال النسابين في أصلها من خلف هذا البدائي كما قد تكون من نسل الطارئين على البلاد في مختلف العصور القديمة؟ فكل القبائل البربرية التي عمرت البلاد في نظر هؤلاء النسابين هم من نسل الوافدين الجدد، أما الأقحاح فلم يبق لهم أثر. فلا شك أنهم لم يفكروا تفكيرا علميا في الموضوع، فاكتفوا بتقسيم البربر إلى جذمين كما انقسموا هم إلى قحطانيين وعدنانيين.

فالموضوع في الحقيقة شائك، إلا أن حله ممكن على كل حال إذا عالجناه بطريقة جدية علمية بدون تحيز ولا تطرف.

وبناء على خلاصة آراء النسابين التي تقضي بأن البربر جمعهم جنسان هما البرانس والبتر يتحتم علينا أن نميز القبائل البرنسية من البترية.

فمن البرانس مصمودة التي استوطنت المغرب الأقصى ومنها غمارة بالريف وبرغواطة ودكالة وحاحة بساحل البحر الأطلنطيقي وبطون أخرى بالأطلس الكبير منها هرغة قبيلة المهدي بن تومرت. ومنهم هوارة التي عمرت جنوب افريقية واوروبة التي حلا لها المقام بالأوراس وجنوب الزّاب، وكتامة التي استقرت بشرق المغرب الأوسط وانتشرت بين قسنطينة وسطيف وميلة وسكيكدة، وصنهاجة التي منها بنو زيري وبنو حماد الذين نتصدى إلى التحدث عنهم. وعلى جانب هذه القبيلة الشرقي كانت عجيسة وعلى جانبها الغربي بنواحي وهران ازداجة التي تليها زناتة بجبال الأطلس الصغير جنوبي تازة، وقبائل بإقليم الريـــف.

وصنهاجة من ولد صنهاج وهو تحريف عربي للفظ صناك البربري. وقيل ان بطون صنهاجة تنتهي إلى سبعين بطنا، وتنقسم إلى أهل مدر كتلكاتة وأبحفة بالمغرب الأوسط وإلى أهل وبر وهم كدالة ومسوفة ولمتونة وغيرهم. فبينما كان هؤلاء يضربون في فيافي الصحراء كان الأولون مستوطنين المغرب الأوسط منتشرين في قطعة كبيرة من البلاد تمتد بين كتامة وعجيسة شرقا وزواوة وساحل البحر شمالا وزناتة غربا وجنوبا، أي من غربي سطيف إلى وادي الشلف. فلا يكاد يخلو منهم مكان، فنجدهم بجبال المسيلة وتيطري والونشريس وزكار، ونجدهم كذلك في السهول حيث يتوفر لديهم في فصل الشتاء، ما تحتاج إليه مواشيهم من كلاء وكانوا يشكلون الثلث من شعب المغرب الأوسط مسالمين لا يعتدون على الغير، ولكنهم يأبون الضيم ويعرفون كيف يصدون العدو ويذودون على كيانهم. وكانت قبائل زناتة ومغراوة ويفرن ودمره تجاورهم. وكثيرا ما كان يتفاقم هذا الجوار. وكيف لا وأسباب العيش عند الجنسين متناقضة والأمزجة متباينة. فقبائل تلكاتة وأبحفة وغيرهما مستقرة عاملة في مداشرها. وأما زناتة فهي في أغلبها قبائل بدوية متنقلة، لكنها من أكثرها جمعا وأشهرها قوة وأشدها منافسة في السيادة والنفوذ، وما أكثرها ما كانت تسّول لها نفسها الإعتداء على صنهاجة والإغارة على ثغورهم! ومن البديهي إذنً أن يحدث بين العنصرين تنافر وشحناء لم تزدهما الأيام الا حدة ولا سيما في عهد الرومان الذين استغلوا هذا الإنشقاق وتمكنوا بسياسة" فرق تسد" من السيادة وهي الطريقة التي سلكتها فرنسا في العصر الحديث عندما فرقت بين العرب والبربر. فالتاريخ يخبرنا بأن معارك طاحنة كانت تقع بين صنهاجة وزناتة فتذهب إثرها الآلاف من الأرواح

وتتعذر أسباب التقدم والرخاء فتضعف البلاد اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

فالحضارة لا تقوم ولا تزدهر إلا في جو يسوده الإستقرار والحب والتعاطف بين أفراد المجتمع. ولكن المجتمع في ذلك الوقت البعيد لم يكن له وعي قومي فقومية الناس مركزها القبيلة التي بها و لها يعيشون.

فقد ساد الصنهاجيون غيرهم من البربر ويرجع ذلك إلى كثرة عددهم وشجاعتهم وحسن تدبير زعمائهم.إلا أن تفوقهم على أعدائهم في المعارك كان يتحقق غالبا في الجبال والأوعار التي ألفوها. وأما في السهول فكثيرا ما كانت الدائرة تدور عليهم،وذلك لأنهم لا يترلون إليها إلا عند مسيس الحاجة.فهي مسرح للبدو الذين اكتسبوا بتنقلهم الدائم في أرجائها على متن جيادهم مهارة و خفة في حركاتهم كانتا لهم أحيانا أحسن عون على المعارك ضد أهل الجبال.

القسم السياسي

الصراع بين الأموية والعلوية
وموقف صنهاجة منـــــــه

وقف البربر في طريق الفاتحين العرب لشمال افريقية، وحاولوا كلهم صدهم إلا صنهاجة، فالهم لم يحركوا ساكنا. إلا ألهم في القرن الثالث هجري (التاسع ميلادي) أخذوا يظهرون على مسرح التأريخ حيث برزت على رأسهم شخصية تتمثل في مناد بن منقوش بن صنهاج، وكان مواليا للعباسيين وخاضعا للدولة الأغلبية الحاكمة بإفريقيا وشرق الجزائر الحالية باسم هؤلاء. ومناد هذا كان كبيرا في قومه، كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمر به.

وحدث حادث خطير غير مجرى التاريخ اضطربت له البلاد ألا وهو ذلك الصراع بين الأموية والعلوية، وكان لكليهما أولياء ومناصرون. يعزو بعضهم هذا الصراع للعداوة المنيمة بين العلويين والأمويين، ويرى البعض الآخر أن العقائد هي محور دعوة كل من الفريقين، وما العواطف والعقائد لم تكن في الحقيقة الا وسيلة لتقوية عدد المشايعين ولبسط النفوذ في أكثر ما يكون من المراكز في المغرب. وأبى الفاطميون إلا أن يكون نفوذهم ضاربا أطنابه على الأقل في المغرب الأوسط. فبادروا إلى الاستيلاء على تيهرت وسجلماسة لألهما مركزان مهمان للتجارة تقصدهما القوافل من السودان والشرق. وهذه الحركة التجارية تدرّ على أصحاها الأموال وتستفيد منها الخزينة السلطانية.

والأندلس هي الأخرى كانت تستورد من الأسواق المغربية السلع ولا سيما الذهب الذي ياتي من بلاد السود عن طريق سجلماسة، ويصاغ في هذا البلد وفي أغمات وفاس ويصل إلى الأندلس عن طريق سبتة وتلمسان. فمن البديهي ان لا يرى الأمويون بعين الرضى أن يزاحمهم الفاطميون في ذلك. فلم يروا بدّا من الوقوف في طريق التيار الشيعي وذلك باستجلاب قلوب المعارضين له من قبائل زناتة والأدارسة. فمدوا إذن لهم اليد فانضووا اليهم فيقوى بذلك جانبهم ويمكّنهم أن يقاوموا أعداءهم المضطهدين لهم. فأصبحت الحروب القائمة بين الفاطميين والقبائل الزناتية والأدارسة صراعا بين الدولتين الفاطمية والأموية.فهيهات أن يكون سبب هذا الصراع الخلاف العقائدي.فالعقائد الشيعية والعقائد السنية ليست في الواقع السبب المهم في هذا الصراع.فالسبب الحقيقي هو التكالب على الاستيلاء على المدن ذات استراتيجية تجارية. فالدولة لا تكون قوية مزدهرة مهابة إلا إذا كانت غنية، والغناء لا يضمنه إلا الحركات الإقتصادية القوية المثمرة فألامويون يريدون أن يكون لهم قوة عسكرية هائلة يذودون بها عن كيانهم ضد أعدائهم المتربصين لهم من الاسبان، وأن يواصلوا تشييد تلك الحضارة الأندلسية "الزاهية" فيفاخروا بها العباسيين.أما الفاطميون فيريدون أن يجمعوا ذخيرة مالية تمكنهم من القيا م بفتح مصر ومن بسط نفوذهم في المشرق العربي ضد الخلافة العباسية. فالعباسيون استبدوا بالخلافة على حساب العلويين. فلا بد إذن،من إرجاعها لهؤلاء، فهم أحق بها،لأنهم من بيت علي الخليفة الشرعي.فسياسة الفاطميين لم تكن ترمي إلى الاستيلاء على المغرب العربي والتربع فيه على الدوام. فقد اتكأوا على قبيلة كتامة لتأسيس

دولتهم ولما استفحل أمر هذه الدولة مالت إليها قبائل أخرى منها مكناسة تاهرت، وكان رئيسها مصالة بن حبوس. فجعله الفاطمي،عبيد الله ،واليا على تاهرت،وكانت الحالة السياسية مضطربة في المغرب وقتئذ فالحروب متواصلة بين الأدارسة ومناوءهم النفوذ الشيعي لفائدة بني أمية متتابعة.فأمر الخليفة الفاطمي مصالة أن يجعل حدا لتصرفاهم التخريبية بقطع دابرهم والقضاء عليهم. فقصد مصالة يحي الإيدريسي وأزاله ونصب في محله موسى بن أبي العافية واليا على شمال المغرب من الريف إلى وادى أبي الرقراق. أما سجلماسة فعمل عليها المدراري. ولكن لم ترجع الجيوش العبيدية على قاعدها بالمغرب الأوسط حتى قام الأدارسة يسترجعون ما سلبوا منه.فاضطر حينئذ الفاطميون، إرسال جيش آخر سنة 309هـ/921م نحو المغرب. فأخرج الأدارسة من تلمسان ومن قواعدهم الأخرى. ولكن لم تنطفيء نيران ثورة الأدارسة حتى عمد الأمويون إلى أوليائهم مغراوة وأغروهم بالثورة على مكناسة تيهرت فقتلوا مصالة بن حبوس فاغتاظ الفاطمي لذلك وأرسل جيشا على رأس أبي القاسم بن المهدي. فزحف إلى مغراوة وأخرجهم من ديارهم ودخل تلمسان سنة 315 هـ/927_928م.

وفي سنة 318هـ/931م، مال موسى بن أبي العافية إلى الأمويين. فأمر الفاطمي مكناسة تيهرت تحت رئاسة حامد بن يصليتن ابي أخي مصالة بمحاربة موسى بن أبي العافية الثائر على الدولة في المغرب وإخراجه من فاس. ولكن عبيد الله المهدي مات إثر ذلك سنة 322 هـ/934م. فشجع موته موسى بن أبي العافية، فجسر على الرجوع إلى فاس كما جسر مغراوة على الإياب إلى المغرب الأوسط.

فإذن لابد من مسيرة أخرى.فكانت سنة 325 هـ/935 م تحت قيادة ميسور. فمال إلى هذا الأدارسة انتقاما من موسى الذي طالما نكل بهم، إلا أن موسى عند موت القاسم الفاطمي استولى على شمال المغرب وشتت شمل الأدارسة.

ولم تلبث مكناسة أن رفضت بدورها الطاعة للفاطميين. فالتأث الأمر على هؤلاء، فالمغرب الأوسط أصبح تحت نفوذ الأمويين. ولكن الفاطمي لم يبق مكتوف الأيدي أمام هذه الثورات التي قد تكون خطرا على كيان دولته. فخرج بنفسه سنة 315 –316هـ على رأس جيشه وزحف إلى مغراوة، ورئيسها حينئذ محمد بن خزر. فهزمهم ودفع جموعهم إلى الصحراء، ثم احتل تاهرت.

وإلى متى تبقى صنهاجة ملتزمة موقف الحياد اتجاه الأحداث الخطيرة التي تهز المغرب منذ ظهور دعوة الشيعة؟ يقول بن الأثير:"ان مناد ابن منقوش كان يقدم ابنه زيري في أيامه"[1] أليس هذا دليلاً على أن الفتى كان شجاعا محنكا؟ ولو لم يكن كذلك لما قاد كثيرا من صنهاجة وأغار بهم وسبى[2]. ولا شك أن ابن الأثير يريد بقوله صنهاجة قبيلة تلكاتة قومه لا أولئك الذين حسدوه على مآثره وحاولوا ان يقاوموه، ولكن بدون جدوى. ففتكاته ببعضهم أرغمتهم على الإذعان له والالتفاف به. وقد وصلت أخباره إلى زناتة، فتخوفوا منه وجمعوا له ليسيروا إليه ويحاربوه.

فبادر إليهم أن يستكملوا استعدادهم وهجم عليهم ليلا بأرض مغيلة. فقتل منهم كثيرا ورجع مثقلا بالغنائم وأخذ من خيلهم ثلاثمائة

(1) الكامل ج 8 ص 623 .
(2) نفس المصدر ص 623

فرس وزعها على أصحابه [1]. وقد شاع خبر هذه المعركة، فذاع صيته بالمغرب الأوسط.

ولما استوثق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم انتقاما من خصومه زناتة ومدّ يد العون للفاطميين في قضية محمد بن خزر.فليس غريبا أن يكون ظهر له خصومه زناتة. فاستطال عليهم، فكثر تبعه حتى ضاقت بهم أرضهم.فسألوه أن يتخذ لهم بلدا يجمع شملهم ويكون لهم حصنا حصينا. فلبى دعاءهم وسار بهم إلى موضع مدينة أشير فأعجبهم الموقع لحصانته ولما فيه من عيون دافقة. فاختطها زيري على قمة جبل يبلغ ارتفاعها حوالي 1400 مترعن مستوى سطح البحر وهي أعلى قمم الجبل الأخضر بتيطري وذلك في سنة324 هـ[2] /936/935م، فالوقت حان لبناء قاعدة يدير منها شؤون قبيلته وتكون مقرا لحكمه.فأمر بإحضار البنائين من سوق حمزة والمسيلة وطبنة وبعث للخليفة القائم بأمر الله أن يرسل إليه مهندسا. فسر[3] القائم وبعث له بمهندس لم يكن في إفريقيا أعلم منه. وكيف لا والخليفة في حاجة إلى من يرتكز عليه لضمان استقرار حكمه في المغرب الأوسط. والرجل الوحيد الذي يمكنه أن يعول عليه هو زيري الذي استفحل أمره واجتمع عليه خلق كثير.

---

(1) الكامل ج8 ص 624 والنويري عن هادي روجي إدريس: المغرب الأدنى في ظل زيري الجزء الأول.ص13 / و.ل فلنان: المغرب الأوسط في عهد بني زيري ص53
(2) النويري: عن إدريس الجزء الأول ص15.
(3) الكامل ج8 ص:624

والمؤرخون والجغرافيون متفقون على أنه هو الذي أسس أشير. فقال البكري:"**إن الذي بنى أشير هو زيري والدليل على ذلك الأبيات التالية التي هجا بها عبد الملك بن عيشون تلك المدينة وبانيها**".

يا أيها السائل عن غربنا وعن محل الكفر أشـــير

عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للأفك والـــزور

أسسها الملعون زيرهـــا فلعنـــة الله على زيـــري

وقال ابن عذاري في بيانه[1]"أما مدينة أشير فبناها زيري بن مناد الصنهاجي" ثم ذكر نفس الأبيات التي زودنا بها البكري و لكنه أبدل لفظة غرب بحرب في الشطر الأول للبيت. أما صاحب الاستبصار[2] فقال:" **بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيري**". وقال **النويري** وسماها الإدريسي[3] بأشير زيري. وقال النووي[4] وصل زيري مكان أشير وقال لأصحابه: "**هذا هو المكان الذي يلائمكم** "، وأسس فيه مدينة. وقال ابن الأثير[5]: "**إن تبع زيري كثروا بعد انتصاره على زناتة**"، فضاقت بهم أرضهم فقالوا له: "**لو اتخذت لنا بلدا غير هذا فسار بهم إلى موضع مدينة أشير وسكنها وأصحابه**" أما ابن خلدون فيقول: اختط زيري مدينة أشير للتحصين بها، وحصنها بأمر المنصور الفاطمي.

---

(1) ج1 ص:61

(2) ص:58

(3) وصف إفريقية الشمالية والصحراوية ص:59

(4) انظر ماضي إفريقية الشمالية، القرون المظلمة ص366 ل: قوتيي

(5) الكامل: ج8 ص:47

فمدينة أشير أسست، إذن، في عهد زيري سنة 324 هـــ و لم يقنع باختطاطها. فقد عمرها ونقل إليها السكان من الأقاليم المجاورة. فاتسعت خطتها واستبحر عمرانها ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية[1]. ويذكر النويري أن أشير شهرت بفقهائها وعلمائها وتجارها[2] ويخبرنا أيضا بأن سكانها في ذلك العهد، كانوا لا يستعملون الذهب والفضة في تجارهم، بل كانت معاملتهم بالمقايضة. وهذا ما دفع زيري ضرب السكة. فأعطى جنوده مالا كثيرا ودفع لهم أجرهم في مواعيدهاـــ مايفسر وفاءهم وإخلاصهم في الحروب ـــ حتى أصبحت الدنانير والدراهم وافرة عند سكان المدينة. وسكنها بعده ابنه يوسف بلكين، وأضاف سنة367هـــ/377 ـــ 378هـــ ماشيده أبوه فيها مباني جديدة توائم منزلته الجديدة حيث صار حكمه سائرا على إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى، ثم نقل إليها أهل تلمسان سنة 361هـــ /972م فبنوا مدينة سموها باسم بلدهم المحبوب.فأصبحت من أعظم مدن المغرب تحتوي على أشير زيري وأشير بلكين التي يطلق عليها اسم البنية.يخبرنا صاحب الاستبصار بأن بالقرب من المدينة بنيانا عظيما عجيبا يعرف بمحراب سليمان لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف. فلا شك أن ما رآه هو بقايا قصر زيري الذي جاء لتشييده بأمهر البنائين والمهندسين والذي كان شبيها بقصر الخليفة بالمهدية.

---

(1) ابن خلدون

(2) أنظر ماضي إفريقية الشمالية،القرون المظلمةص366 لـــ: قوتيي، والمغرب الأدنى في ظل بني زيري، الجزء الأول ص 14 لهادي روجي إدريس، والمغرب الأوسط في عهد بني زيري ص 54 ل. قلقان.



شكل 1 قصر زيري بأشير (عن الأستاذ قلفان)

فكانت أشير تقع بين جبال شامخة محيطة بها[1] لا تحتاج سوراً فزاد بلكين في تحصينها ببناء سور بحيث لا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال وهو في شرقيها الذي ينفذ إلى عين مسعود، وسائر نواحيها تزل عنه العيون فكيف الأقدام[2]. وهذا الموضع قد ذكره النويري[3] أيضا حيث يقول. "إن أشير مدينة حصينة لا يوصل إليها من موضع من شرقيها يحميه عشرة رجال".

وتحصين المدينة أمر ضروري في ذلك الوقت نظرا للحروب الباغتة القائمة في المنطقة بين صنهاجة وزناتة، إلا أن الماء أكثر ضرورة، وأشير تحتوي على عيون ثرة[4] ففي داخل المدينة عينان (ثرتان) لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر[5]. فالمدينة في مأمن من شر العدو الذي كثيرا ما يغير مجرى العيون فتصبح حياة السكان في خطر. ويوجد أيضا خارج المدينة وشرقيها عين ثرة تسمى عين مسعود تساعد على ازدهار الزراعة في الناحية الخصبة. ذكر النويري[6] أن الشعوب الرحالة التي مساكنها بنواحي أشير رضيت بخدمة الأرض نظرا لخصوبتها من جهة ولما يسودها من الأمن والاطمئنان في ظل أميرها زيري من جهة أخرى. ويقول ابن حوقل[7] "لمدينة أشير بساتين وأراض تصلح للفلاحة."

---

(1) كتاب لاستبصار ص:58,
(2) البكري,
(3) أنظر المغرب الأوسط في عهد بني زيري ص: 54 ل.قلقان,
(4) ابن حوقل,
(5) كتاب الاستبصار ص 56,
(6) النويري: انظر المغرب الأوسط في عهد زيري ص: 54 ل قلقان,
(7) ابن حوقل

بني زيري عاصمته، والتفت بعد ذلك إلى إنشاء، بل إلى إحياء مدن أخرى يدعم بها مملكته. فأمر ولده يوسف بلكين بتجديد بناء جزائر بني مزغنة ولمدية ومليانة.فقد لعبت دورا في تاريخ البلاد. فلماذا لا تستأنف وظيفتها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا؟

ثورة أبي يزيد

ساد المغرب نوع من الهدوء بفضل جيوش الفاطميين المظفرة وضرب زيري على يد عناصر الفساد والإضطراب في المغرب الأوسط. وما هي الا حتى اعتكر الجو وتكهرب بفتنة الخوارج. اندلع لهيب الثورة على يد أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي وليد مدين: توزر وذلك في سنة 316هـ/928م.

"كان من قبيلة بني جعفر من أحد بطون جانا. أبوه كان يسكن طقيوس، من أعمال قسطيلية، وكان يذهب إلى السودان من قصد التجارة. اشترى بتاد مكة (أوتاد مكة) جارية تسمى سبكة. فولدت له ولدا أعرج له أمارة بلسانه فسماه أبا يزيد. فخطر بباله أن يذهب به إلى كوكو ويقدمه إلى عراف. ففحصه هذا وقال: "هذا الولد سيقع له أمور خطيرة، فسيصير يوما ملكا..."فسره الخبر ورجع به إلى طقيوس حيث مات[1]. أما أبو يزيد فقد تعلم القرآن وخالط جماعة من النكارية. فمالت نفسه إلى مذهبهم. وكان مذهبه تكفير أهل الملة واستباحة الأموال والدمـــاء والخروج عن السلطان[2].

(1) القاضي عبد الله محمد بن علي بن حماد . (قد عثر العالم الفرنسي شيربونو على قطعة من كتاب هذا الأديب المؤرخ في تاريخ العبيديين وبعض دويلات المغرب العربي حتى سنة 612هـ/1220م، وقد تناول ثورة أبي يزيد وقد ترجمها اللغة الفرنسية في المجلة الآسيوية، السلسلة الرابعة ج 20 ـــ باريس. وقد ترجمنا منها هذه الفقرة العربية لعدم وجود الأصل.

(2) الكامل ج 8 ص: 422 وكتاب العبر ج 7 ص 34

فقام على الفاطميين سنة 322 هـ/ 943 ـ 944م. فانتشرت دعوته في قبائل نفوسة وهوارة والزاب والمغرب الأقصى انتشار النار في الهشيم. وفي عهد القائم بأمر الله قويت شوكته وكادت جموعه تقضي على السلطان الفاطمي وأمكنه أن يعسكر بجنده على بعد خمسة عشر ميلا من المهدية حتى غادرها كافة أهلها قاصدين طرابلس وصقلية ومصر عن طريق البحر[1] فلم يخطر حينئذ ببال القائم أحد غير زيري بن مناد الصنهاجي يستحنه على معونته. فكتب إليه يخبره بالخطر المحدق بعرشه وبما نال الناس في المهدية من الجهد والغلاء من جراء الحصار . فلم يقرأ زيري الكتاب حتى أرسل عاصمة الفاطميين بألف جمل من الحنطة وأخرج اليها مائتي فارس وخمسمائة من عبيده،وذلك بدون أن يرجوا جزاء ولا شكورا. فإنه حليف وفيّ مخلص وعدو للشغب والاضطراب.

توفي الخليفة القائم في رمضان سنة 334هـ، وخلفه المنصور. فقويت جيوش هذا وازداد عددها بانضمام قوة صنهاجة إليها وأصبح في إمكانه أن يصد زحف العدو، وأن يوقع بالجيش الخارجي كله. فقبض على أبي يزيد وبعث به إلى المهدية، وهناك مات متأثرا من جراحه 30 محرم[2] سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة[3]. ولما قام المنصور بمطاردة أبي يزيد في جبال القلعة ووصل إلى موضع يسمى قرية دمرة استقبله زيري بعساكر صنهاجة. فأكرمه المنصور وأحسن إليه.

---

(1) الكامل ج8 ص429 والمؤنس 55.
(2) المؤنس ص: 60 والكامل جـ 8 ص : 441
(3) ابن خلدون جـ 7 ص : 34

وحيث نازل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاء زيري قومه ومن انضم إليه من حشود البربر وعظمت نكايته في العدو، وقد طعن الخارجي. ولو لم ينقذه أصحابه لقضى عليه نهائيا. وكان الفتح وصحب المنصور إلى أن انصرف من المغرب. فوصله بصلات سنية، وعقد له على قومه، وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير وعقد له على تاهرت وأعمالها[1] فالحق أن زيري كان أهلا لهذا كله. فلولاه لما استطاع الفاطميون أن يقهروا ذلك الخارجي وأن يأتوا على ثورته التي هددت كيانهم .

انتقض حميد بن يصليتن، عامل المغرب، وانحرف عن طاعة الشيعة ودعا للأمويين وزحف تاهرت، فحاصرها. فنهض اليه المنصور في صفر 336هـ/947م، وجاء سوق حمزة[2]. فأقام بها وكان مصحوبا بزيري بن مناد في جمع صنهاجة، فأخرج حميد بن يصليتن عن تاهرت وعقد عليها ليعلى بن محمد اليفرني، وعقد لزيري بن مناد على قومه وعلى سائر بلاد صنهاجة. ثم رحل المنصور إلى القيروان بعد أن خلع على زيري وحمله.

وفي سنة 343هـ، استقدم المعز لدين الله زيري بن مناد أمير صنهاجة. فقدم من أشير، فأجزل صلته ورده إلى عمله بأشير، وكان وقتئذ على تاهرت وايفكان يعلى بن محمد اليفرني وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن علي الأندلسي، وعلى باغاية وأعمالها قيصر الصقلي، وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وعلى سجلماسة

(1) ابن خلدون: كتاب العبر جـ 6 ص: 313

(2) البويرة الآن

محمد بن واسول المكناسي. فبلغ الخليفة سنة 347 هـ أن يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية وأن أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة، فأمر وزيره وقائده جوهر الصقلي أن يخرج اليهم. ففعل ومعه جعفر بن علي صاحب المسيلة وزيري بن مناد صاحب أشير. فأول مرحلة كانت تاهرت. فتلقاهم يعلى بن محمد مخفيا طوينه. ولما ارتحل الجيش إلى ايفكان تقبض جوهر على يعلى وقتله، ثم أمر بهدم ايفكان وحرقها بالنار. وكان ذلك في جمادى الأخيرة وأسر يدّو بن يعلى. فهكذا خلا الجو لزيري في المغرب الأوسط. ثم تمادى جوهر إلى فاس. إلا أنه لم يتم فتح هذه المدينة فتجاوزها إلى سجلماسة، وكان صاحبها محمد بن واسول. فقد تلقب بالشاكر لله ولا يخاطب بأمير المؤمنين، وضرب السكة باسمه. ولم يزل ملكا مستقلا مدة ست عشرة سنة، فسمع بمجيء جوهر اليه. فهرب، لكنه لم يفلت؛ فلقيه أعداء له، فأخذوه أسيرا وحملوه إلى جوهر.

ثم واصل هذا سيره حتى انتهى إلى البحر المحيط. فأمر أن يصطاد له من سمكه. ففعلوا فجعل السمك في قلال الماء وحمله المعز يرمز بذلك إلى أن نفوذ الشيعة يمتد من البحر المتوسط إلى البحر المحيط لا يعارض الخليفة أحد في إمبراطوريته. وفتح كل بلد مر به. ثم عاد إلى فاس. فقاتلها مدة طويلة ولم يقدر عليها. فقام حينئذ زيري بن مناد، فاختار من قومه رجالا أشداء وأمرهم أن يأخذوا السلاليم، وقصدوا البلد. فصعدوا على السور الأدنى وأهل فاس آمنون. فقتلوا الحراس ونزلوا السور الثاني وفتحوا الأبواب وأشعلوا المشاعل، وضربوا الطبول، وكانت الإمارة بين زيري وجوهر. فلما سمعها هذا ركب في

العساكر ودخل فاس. فاستخفى صاحبها أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي لكنه أخذ بعد يومين وجعل مع صاحب سجلماسة. وكان فتحها في رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة (348هـ) وولى على فاس من قبله، وطرد عمال بني أمية من سائر المغرب وأعطى تيهرت زيري بن مناد، وحمل الأسيرين في قفصين، وانقلب إلى القيروان ظافرا عزيزا.

فبسيرته عاد النفوذ الفاطمي على جميع المغرب باستثناء طنجة وسبتة التي تحصنت بهما الأموية.

إلا أن رغم الجهود التي قام بها جوهر وزيري، فلم يصف الجو تماما في المغرب. لم تلبث مغراوة أن تحركت تحت ضغط الحكم الأموي وأخذت تدعو له على حساب الفاطميين وتثخن في الشيعة كلما سنحت لها الفرصة ورئيسها حينئذ محمد بن الخير بن محمد بن خزر. فأهم المعز لدين الله أمرهم وبادر إلى حسم الداء قبل استفحاله، فأوعز الخليفة إلى زيري بن مناد أن يقوم لهم فيحبط أعمالهم ويشتت شملهم. فأمده بالأموال والعساكر وعقد له على المغرب وأقطع له ما قد يفتح من أقطاره. فلبى زيري في الحين أمر الخليفة وجيش جيشا سنة 360 هـ (971م) وجعله تحت قيادة ابنه بلكين. فأغدوا السير نحو العدو وهجموا عليه قبل استكماله التعبئة فدارت بين الفريقبن حرب ضروس بعد العهد بمثلها في ذلك الوقت[1]. فالقضية قضية حياة أو ممات بالنسبة لزناتة. وما هي الا حتى اخلّ مصاف مغراوة وأحلافهم من زناتة. فأيقن رئيسهم محمد بن الخير بأن لا مفر له من الهلك، فمال ناحية

(1) ابن خلدون : كتاب العبر جـ 6 ص: 315.

من العسكر وتحامل على سيفه، فذبح نفسه. فزاد موقفه هذا الطين بلة، ففشلت زناتة، وانفض جموعها، وهلك منهم بضعة عشر أميرا، وبعث زيري برؤوسهم إلى المعز لدين الله بالقيروان. فعظم سروره لها وغم لها الحكم المستنصر بالأندلس. فأصبح إذ ذاك المغرب الأوسط في قبضة زيري بن مناد، وطار صيته. فعلت بذلك يده على جعفربن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخليفة وتاخمه في العمالة[1]. فساء ذلك جعفرا، وكانت بينهما محاسدة وضغائن في النفوس بسبب الولايات[2] قد أمر المعز ببناء دار رابح بالقيروان. وكان قد عزم على أن يستخلف جعفرا على افريقية وزيري بن مناد على المغرب عند اللحاق بمصر. فقد شاع بين الناس أن هذه الدار سيسكنها جعفر. وأما زيري فله قصره بأشير فمنه يدير شؤون المغرب الأوسط. إلا أن جعفرا قد سعى به عند الخليفة المعز لدين الله أنه يميل المروانية والموالين إليها من مغراوة.جاء في المقتبس لأبي مروان بن حيان القرطبي أن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق الحافظ لأخبار المغرب قال: (لما قتل محمد بن الخير) أخذ له زيري فرسا من عتاق الخيل كان معد بن اسما عيل قد حمل عليه جعفر بن علي، فأهداه جعفر إلى محمد بن الخير،فأرسل به زيري إلى معد ،وبعث إليه يكتب أصابها في بيت ابن خزر بخط جعفر بن علي يكاتب بها زناتة ويطلعهم على عورات زيري ويحذرهم منه متى اطلع أنه يريدهم.فبلغ من معدّ أشد مبلغ، وتكلم في جعفر أسوأ الكلام، وتهدده بالقتل.فبعث بعض المقدمين عنده معلما له بذلك. وكتب معد جعفر بعزله عن المسيلة ويأمره بالقفول

(1) نفس المصدر جـ 315

(2) ابن ابي دينار: كتاب المؤنس ص: 72

إليه بجميع أهله وولده وماله حضرته، وكتب إليه في فصل من كتابه يعزيه عن محمد بن الخير خليله متقرعا إليه، ويخبره عن الفرس التي ذكرنا صرف زيري إليه.فقال له: "أعظم الله أجرك في خليلك، فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا".[1] فاستراب جعفر ولم يستجب. ثم أرسل إليه الخليفة ثانية فرجا الصقلي.بينما كان هذا في طريق نحوه وعلى مرحلة للوصول إليه خرج جعفر من المسيلة بعسكره وسلاحه وأمواله وذويه متظاهرا بالمسير القيروان تلبية لدعوة الخليفة، ثم غير اتجاهه وفر إلى مغراوة "وخلع الطاعة وأظهر ان الذي حمله على ذلك عداوته لزيري بن مناد مجاوره في عمل المغرب لتحامل زيري عليه واذاه له في عمله واجحافه على قبائل البربر الذين في عمل المسيلة"[2]. وكان الزناتيون يستعدون لأخذ الثأر من صنهاجة وحضور جعفر كان لهم فرصة سانحة لجمع شتاقم والهجوم على عدوهم، وكان جعفر قائدا خبيرا.فاشتملوا عليه، وألقوا بيده زمام أمرهم، وقاموا جميعا يناوؤون الفاطميين. فأبى المعز لدين الله أن تقوى شوكة زناتة فتستولي على المغرب وافريقية من بعده، ولم يشك فيما اتهم به جعفر.فأمد زيري بن مناد بالأموال والعساكر وسوغه ما تغلب عليه من أعمالهم. فنهض زيري، وهو على غاية الثقة بنفسه ومن معه بجمعهم،وابنه الأكبر يوسف،فارس كتيبته ومدبر حربه،غائب بقاصية عمله[3]. فزحف على أعدائه. فاشتبك الفريقان بالقرب من ملوية يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان سنة 360هـ.[4] وأقبل زيري وهو إلى حام مغضب ليحرك الرجال ويذمر

---

(1) المقتبس في بلد الأندلس ص:36.
(2) جعفر الجزار:التعريف في أخبار أفرقية
(3) بأشير /(4) محمد بن يوسف بن عبد الله الوراقق: المقتبس ص: 36

الأبطال على الإقدام وتوسط المأقط بفضل ما فيه من الشجاعة والجرأة، فكبا به فرسه.[1] فسقط، فوثبوا عليه وقتلوه وحزوا رأسه تشفيا منه ورؤوس كثير من أصحابه الأبطال.

ويخبرنا عيسى بن أحمد بن محمد الرازي أن لم يحز رأس زيري ورؤوس أعلام أصحابه حتى بادر بإرسال كاتبه إلي البغدادي الأندلس بكتابه الخليفة (الحكم) ملقيا بنفسه اليه معتصما بدعوته راغبا في تقبل فيئته وانزاله مترلة من اعترف لحقه واهتدى بهديه. فوافى كتابه ذلك على باب الخليفة الحكم المستنصر.[2] أجمع جعفر وحلفاؤه على ان يبعثوا بالرؤوس الحكم. فخرج بها وفد من أمرائهم "مزدلفين بصنعهم داعين تقريبهم"[3] وكان مقدم الوفد يحيى بن علي أخا جعفر.فلما كان يوم السبت لست بقين من شوال خروج ناجيت بن محمد وأحمد بن عبد الملك بجانة لتلقي يحي بن علي و من معه من اهله ومن بني خزر الوافدين معه ومعهما 68 فرسا لركوبهم. وفي يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي القعدة سنة 360 هـ خوطب القواد والعمال إلى بكور الأندلس المجندة في استقدام بياضها وأعلام رجالها لمشاهدة دخول يحي وبني خزر القادمين برأس زيري ورؤوس أعيان أصحابه.

قد لحقت جعفرا في مقامه لدى زناتة مخافة من مكرهم وشرهم فأعمل الحياة في باطنه حتى انحاص إلى الأندلس، فعبر البحر في مركب اتخذه عدة لنفسه فتم له[4] ذلك ووصل الاندلس ونزل بمرسى بزليانة من عمل كوره رية ومعه اهله وولده ووجوه رجاله المختصين به وثقاة

---

(1) أبو جعفر بن الجزار: التعريف في أخبار افريقية (المقتبس:ص:37)

(2) عيسى بن أحمد الرازي:المقتبس ص:39

(3)و(4) أبو جعفر بن الجزار:التعريف في أخبار افريقية . المقتبس ص:38

مواليه وعبيده مملصا عن برابر زناتة مستعجلا إلى جوار الخلافة يوم الجمعة لسبع خلون من ذي القعدة سنة 360هـ .فظهر العمل في التاهب إلى لوروده و إلى الاستعداد لتلقيه.[1] فلما ان كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من نفس السنة خرج صاحب السكة والمواريث وقاضي اشبيلية محمد بن ابي عامر فتى الدولة، لتلقي جعفر بن علي ومعه 14 من عتاق الخيل وبغل اشهب و50 فرسا من جياد خيل الجند حملانا لفرسانه ومائه زاملة لاحتمال أثقاله، وخرجت عدة من البغال الظهيرة محملة عدتها من العماريات والهوادج المثقنات الصناعات لصيانة عيال جعفر فيهن في طريقه إلى الحضرة.

وأمر الخليفة المستنصر بالله غداة يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي القعدة مولاه أحمد بن سعد الجعفري صاحب الشرطة العليا بالنهوض فيمن استركب معه من طبقات الجند والوفود والحرس في التعبئة بالعدة الكاملة إلى مكان اضطراب جعفر ويحي ومن معهما من بني خزر بمحلة فحص السرادق وإدخالهم قرطبة والتقدم بهم عنها المنية المنسوبة إلى ابن العزيز. فأحكم ابن سعد العمل. فاندفع الأجناد من قصر الزهراء، فانتهوا مظل الرئيسين جعفر ويحي وقد رفع إزاءه رأس زيري بن مناد في قناة عالية وحفه برؤوس أصحابه الغلاة المحلين لأهل السنة في حراب سامية توفي عدتها مئة رأس. فتناولها فرسان الحرس المأمورون لحملها عندما عهد أحمد بن سعد إلى جعفر ومن معه بالركوب. فركب جميعهم وحفهم أصحاب السلطان المرسلون. ولما انتهوا باب السدة من قصر قرطبة استقبلهم هناك من تعبئة المحارس

(1) عيسى بن محمد الرازي (المقتبس ص:41).

والعرفاء المدرعين ورجالات الأرباض بقرطبة. وتقدم الحفل إلى قصر الخليفة بالزهراء.فخرج الفتيان الكتاب اليهم بالإذن في دخولهم.فتقدموا وتقدم بهم محمد بن أبي عامر، فنهضوا داخلين أن صاروا في السطح العلي ثم استنهضوا إلى المجلس الذي قعد فيه الخليفة. فلما انهضوا بابه قبلوا البساط مرة بعد أخرى. ثم تقدم بهم إلى السرير وناولهم الخليفة يده.فتقدمهم جعفر بالتقديم والتسليم، ثم تلاه يحي أخوه، ثم قدم بنو خزر الأسن فالأسن. فأمرهم الخليفة بالقعود إكراما لهم. وشافه الخليفة جعفرا قبلهم، فأوسع يسأله عما لديه، وبسطه، وفعل ذلك بأخيه يحي وبني خزر أصحابهما، ونطق بتقبيل نزوعهم وتحقيق رجائهم. ووعدهم بالإحسان إليهم والتشريف لهم. فأعلنوا الشكر، واستهلوا بالدعاء واكثروا من الثناء، وحمدوا الله على ما منحهم إياه وألهمهم له من تجديد إسلامهم، وتأكيد إيمانهم، في قصدهم حرم أمير المؤمنين وإسنادهم عز سلطانهم ونبذهم لدعوة الضلال وشيعة الكفار واعتياضهم من ذلك بالسنة والجماعة والعز والطاعة.

وانطلقت الجماعة من المجلس عند انتهائه. فصاروا إلى مقعدهم الأول في مجالس الجند ومحمد بن أبي عامر وصحبه الموكلون بهم لا يفارقونهم إلى أن ركب بهم صاحب الشرطة العليا القائد هشام بن محمد بحضرتهم إلى منصرفهم. فخرجوا من قصر الزهراء مع هشام بن محمد والترتيب الذي جاؤوا فيه على هيئته. فبلغوا زعيمهم جعفر بن علي دار يوسف بن علي بن سليمان التي أنزل فيها أهله وثقله، ونهضوا بأخيه يحي إلى دار قاسم بن يعيش، وانتهوا ببني خزر إلى دار إبراهيم الفتى الخليفة الموسومة. ولما استقر جعفر ويحي بداريهما

واطمأنا فيهما عهد أمير المؤمنين بإجراء ألفي دينار دراهم على كل واحد منهما للشهر ومن القمح لنفقاهما لكل شهر لكل واحد منهما سبعين مديا توسعة عليهما، وأخرى أيضا على بني خزر من الدنانير والقمح والعلوفة ما يفيض ولا يغيض. والشعر في وصف هذا اليوم كثير[1].

فذلك الاستقبال الرسمي الرائع الذي خص به جعفر وأخوه وأشراف خزر إن دل على شيء، فإنه يدل على شدة فرح الحكم لزوال زيري. ولا غرو فإن هذا الأمير كان حجر عثرة لبسط نفوذ الأموية في المغرب حيث كان الساعد الأيمن للدولة الفاطمية. إلا أن قتله لم يجعل حدا لمعارضة ومقاومة النفوذ المروانية بالمغرب، فقد خلف إبنه يوسف الذي قام بأمره من بعده، وقام التيار الأموي، ومحا أثره من سبتة وأجلى زناتة ما وراء ملوية كما سنرى بعد. وشد ما كان فرح جعفر بن علي بذلك الاستقبال أيضا،ولكن،كما تدين تدان. فقد حز رأس زيري في المغرب. فكفر عن ذلك بالمثل،فحز رأسه مع بن عبد العزيز التجيبي، فارس العرب في الأندلس، مع طائفة من أصحابه الأندلسيين بأمر المنصور بن أبي عامر في ليلة الأحد ثالث شعبان سنة 372هـ (31 يناير 983م)[2].

فهكذا هلك زيري الشجاع المقدام الذي طالما سعى في نشر الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والاضطراب والذي أخذ في تعمير

(1) المقتبس في أخبار بلد الأندلس لأبي مروان بن حيان القرطبي ص:52
(2) تاريخ العرب في اسبانيا: عنصر المنصور الأندلسي لخالد الصوفي ص 93.

رقعته وفي مسيرها نحو تأسيس قواعد دولة ستبسط نفوذها في المغرب كله وحتى في الأندلس بغرناطة وألبيرة. توفي ذلك البطل سنة 360 هـ لست وعشرين سنة من ولايته، ولكن، لم يمت ذكره، وبقيت مآثره يتحدث عنها الأجيال.

وسبق أن قلنا ان يوسف بلكين كان بأشير حين قضي على أبيه. فلم يطرق أذنه خبره حتى نهض يطالب بدمه. فخاف الزناتيون وأظهروا الغدر بجعفر، فأصبح هذا بين نارين و لم يسعه الا أن يعبر البحر ويلحق بسدة الخلافة الأموية مرفوقا بعظماء بني خزر الذين أعطوه الصفقة على القيام بدعوته. فهكذا نجوا جميعهم ولكن قومهم لم يفلتوا من فتكاته. فعقد له المعز على حربهم واستئصالهم وأمده بالأموال والعساكر وسوغ له ما تغلب عليه من أعمالهم. فنهض في خريف سنة 360 هجرية(971م) في جيش قوي لم يبح لمن حضرو االموقعة التي قتل أثناءها زيري، الانخراط فيه لأنهم في نظره غير أوفياء إذلم يضحوا في سبيل إنقاذه من يد العدو. تقرى أقاليم طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة، فأرغم مزاتة ونفزاوة وهوارة على الطاعة والولاء للفاطميين، وتقدم تاهرت، فمحا أثر زناتة، ثم واصل زحفه نحو المغرب الأقصى تابعا آثار الخضير بن محمد وقومه. فلحقهم بسجلماسة، فأوقع بهم وتقبض على رئيسهم فقتله، وبقي ثلاثة أيام في ساحة الوغى حتى اشتكى الناس من رائحة الجثث،وأمر أن تكون أثافي قدورهم من رؤوس القتلى، وأن تجعل الجثث أكواما يصعد عليها المؤذنون ليؤذنوا للصلاة[1]. فخاف المدراري صاحب المدينة وبايع للفاطميين.

(1) النويري: أنظر المغرب الأدنى في ظل بني زيري الجزء الأول ص37 لهادي روجي إدريس.

وبعد أن ثأر بلكين لأبيه وقومه تمادى في فتحه مواطن زناتة حتى يستأصلهم. فبادرت مكناسة إلى الاعتراف بالزيرين والدخول تحت حمايتهم.ثم انكفأ بلكين راجعا، ومر بالمغرب الأوسط.فاستلحم بوادي زناتة ومن إليهم من الخصاصين. واتصلت أخباره بالخليفة .ففرح وتأكد له أنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يلقي على عاتقه عبء ولاية افريقية والمغرب عند مغادرته لهما. فعزم على استخلاف سيد صنهاجة التي وقفت إلى جانب الدولة الفاطمية في أحلك الأوقات.وريثما يعلن له بذلك عقد له على عمل أبيه بأشير وتاهرت وسائر المغرب، وضم إليه المسيلة الزاب وسائر أعمال جعفر. فاتسعت ولايته وعظم شأن آل زيري.

انتقال السلطة من الفاطميين الصنهاجيين

وفي شهر محرم من سنة361 هـ كتب المعز لدين الله إلى يوسف بلكين يستدعيه إلى القيروان، وأمره بألا يقوم بحملات عسكرية أخرى وألا ينشغل بقتال أحد ولا يتعرض لزناتة ولا لغيرها في ذلك الوقت ونصحه أن يستعمل الرفق واللين بزناتة وأن يرد لهم ما سبى من نسائهم وأولادهم حتى يخفف من حقدهم وغضبهم على بلكين وبالتالي على الدولة الفاطمية التي يتفانى في توطيد أركانها بالمداهنة واللين حينا وبالقوة والعنف أحيانا ، فمرحلة انتقال السلطة من الخليفة بلكين تقتضي التظاهر بالكياسة والرفق بالرعية والسعي في خير جميع عناصرها وطبقاتها. فامتثل بلكين لأوامر الخليفة ورد على زناتة سباياهم.

ثم عين عمالا من عبيده على مختلف الأقاليم والمدن الواقعة تحت نفوذه. فقصد عند ذاك قاعدة المعز. فدخل عليه فأكرمه وأثنى عليه وحمد أفعاله وذكر له اختياره لتدبير شؤون افريقية والمغرب بعده.

فقال بلكين:"يا مولانا"، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟"[1].

فألح عليه المعز فقبل بلكين. الا أنه لم يجعل له حكما على جزيرة صقلية ولا على مدينة طرابلس الغرب ولا على أجدبية وسرت. فعين على صقلية حسن بن علي أبي الحسين وعلى طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، وكان أثيرا عنده. وجعل على جباية أموال افريقية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف المرصدي وأمرهم بالإنقياد ليوسف بن زيري[2] فإن إسناد هذه الوظائف غيره يشكل قيدا. ولكن لم يضق به لأن الفاطميين كانوا أصحاب فضل فيما وصل إليه بنو زيري من عزة وسلطان[3]. فتم تسليم الحكم رسميا إلى بلكين لسبع بقين من ذي الحجة من سنة 361هـ/5 غشت 972م[4] . وقد سماه الخليفة يوسف بدلا من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه بسيف الدولة وجعل خاتمه في يده[5]. ثم خلع عليه كسوته التي كانت عليه وأمر أن يحمل بين يديه عند خروجه من عنده

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفاء ص: 64 والخطط جـ 1 ص: 352.
(2) الكامل جـ 8 ص : 46
(3) تأريخ الفاطميين لحسن ابراهيم حسن
(4) النويري وابن أبي دينار وعبد الرحمان الجيلالي وغيرهم متفقون على أن تسليم الحكم قد تم رسميا لبلكين في ذلك اليوم .
(5) ابن الأثير: الكامل .

أربعون تختا من فاخر الكساء ومعها رزم مما يخلع على أصحابه، وقادوا بين يديه أربعين فرسا بسروج الذهب المثقلة. فكانت هذه الهدية في محلها ووقتها. فأبى بلكين الا أن تكون هديته في محلها ووقتها كذلك، فقاد إلى المعز حينما عزم على الرحيل إلى مصر ألفي جمل لحمل أمواله وكان بعض هذه الجمال من ابل زناتة.

وفي يوم الإثنين 13 من شهر شوّال لا يوجد فيه31 يوماً سنة 361هـ / يوليو 971م، غادر الخليفة المعز مدينة المنصورية وقال لبلكين عند وداعه: "أترك لك زيادة الله بن القديم عونا لك على جمع الأموال وأوصيك بأن لا ترفع الجباية على البلاد ولا ترفع السيف عن البربر ولا تول أحدا من أهل بيتك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك"[1]. فودعه بلكين ورجع المنصورية يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة 362هـ". فنزل بقصر السلطان. وخرج إليه أهل القيروان". وهنأوه وأظهروا الفرح بقدومه. فالعبء ثقيل يتطلب اليقظة والحزم والعزم والنظام الدقيق. فأخذ في تنظيم الأمور السياسية والجبائية في جميع الأقاليم، وعقد الولايات للعمال، ثم راح يجول في عرض البلاد يطيب قلوب الناس. إلا أن البربر كانوا خاضعين رهبة لا رغبة، وبلكين على بينة من ذلك. فإنه يعرف نفسية البربر لكثرة احتكاكه بهم، فإن روح العصبية تسيطر على عقليتهم وحركاتهم. فهم في نظرهم أهل للسيادة كغيرهم، فلماذا يفرضون عليهم إرادتهم ويستأثرون وحدهم بالجاه والنفوذ؟ فلهذا نرى انتقال السلطة إلى يد الزيريين يثير حقدهم فيقومون بانتفاضات في مختلف الجهات. وثب أهل

(1) النويري وابن أبي دينار وإعلام الأعلام وعبد الرحمان الجيلالي وهادي روجي ادريس، لـــ، قلقان.

باغاية على عامل أبي الفتوح فقاتلوه وهزموه. فسير لهم جيشا فقاتلهم فلم يقدر عليهم، فأرسل إلى يوسف يعرفه الحال. فتأهب يوسف وجمع العساكر ليسير اليهم. فبينما هم في التجهز اذ أتاه الخبر عن تاهرت أن أهلها قد عصوا وخالفوا وأخرجوا عامله، فرحل إلى تاهرت فقاتلها، فظفر بأهلها وخربها. ولا زالت أخبار الفتن ترد عليه .فلم يبارح تلك المدينة حتى اتصل به أن زناتة نزلوا على تلمسان فقصدها، ولم يدن منها حتى هربوا. ولكن المدينة لم تفتح أبوابها له. فحاصرها حتى استسلم أهلها ونزلوا على حكمه. فعفا عنهم، إلا أنه أمرهم بانتقالهم إلى اشير قاعدة الزيريين، فامتثلوا وبنوا مدينة بجانب آشير سموها تلمسان. ولم يقنع بلكين بذلك. فأصدر أمرا صارما يحرم على كل زناتي ركوب الخيل وشراءها ويحكم بالموت على من سولت له نفسه مخالفة ذلك الأمر. فأقفر المغرب الأوسط حينئذ من رناتة وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى، وذلك في سنة 362هـ. ولكن بلكين لم يجر في إثرهم. فالخليفة أمره ان لا يتوغل في المغرب. فانكفأ راجعا ومر بباغاية، فاستولى عليها وولى قاعدته قبل صفر سنة 363هـ / نوفمبر 973م.

فنلاحظ أن أبا الفتوح هجم على المغرب الأوسط مرتين دون أن يفكر في أبعاد غزواته . فقد أضعفه أثناءها بشريا ومن ثم اقتصاديا. فخلت الأرياف من السكان، فتوقف بذلك النشاط الفلاحي زرعا وضرعا وكسدت الأسواق، فلم يعد يقصدها التجار لعدم من يساومهم. فصارت للقوافل طرق أخرى تذهب من افريقية إلى السودان ومصر على حساب المغرب الأوسط فازدهرت التجارة

والفلاحة في افريقية وعمها الرخاء وامتلأت الخزينة السلطانية بما يرد عليها من الضرائب والإتاوات حتى صارت ثروة الدولة الإفريقية يضرب بها المثل. والأندلس هي الأخرى انكمشت حركاتها التجارية.فالمغرب صار في قبضة الشيعة باستثناء سبتة. ولكن، متى تبقى منعزلة و متى أيضا تبقى زناتة طريدة متبددة محرومة من السيادة؟ فلا بد من ان تسترجع هذه مكانتها وأن تستأنف الأخرى نشاطها السياسي لبسط نفوذها من جديد في المغرب. فقاتلوا الأدارسة. وفي سنة 365هـ /975م، كلفوا جعفر بن علي وأخاه يحي أن ينتقلا إلى المغرب ويؤلفا جيشا من المغاربة . فرحب بهما الزناتيون وأعانوهما على مهمتهما. وعند موت الحكم الثاني 366هـ/976م، بايع زيري بن عطية المغراوي وأخوه مقاتل ويدّو بن يعلى رئيس يفرن ومكناسة للمنصور بن ابي عامر، وكان هذا يعمل ما في وسعه لتقوية السياسة الزناتية ويحصن سبتة. إلا أنه وقع انشقاق بين جعفر وأخيه يحي. فاستولى هذا على البصرة، وأما الآخر فأراد الإستيلاء على إمارة البرغواطين. فهجم عليهم. فكانت الدبرة عليه. و لم يلبث أن عاد إلى الأندلس تاركا زمام الأمر لأخيه يحي سنة 367 هـ /978م. وفي شعبان تلك السنة هجم خزرون بن فلفون بن خزر الزناتي على سجلماسة وقتل صاحبها المدراري وبعث برأسه إلى قرطبة. الا أن حملة بن بلكين بن زيري على المغرب الأقصى التي قام بها سنة 368 هـ/979م أحبطت سياسة الأندلس. أما بلكين فبعد عودته من المغرب الأوسط جعل على ولاية القيروان وصبرة جعفر بن تمرت، لكنه مات في جمادى الثانية من سنة 363 هـ/974م. فأخبر زياد الله بن القديم يوسف بالحادث وسأله أن يرسل إليه من يخلفه، فعين عبد الله بن الخطيب

التميمي واليا على افريقية، وكان أديبا كاتبا بارعا يحسن اللهجة البربرية، وقد كتب لزيري بن مناد. ولما ولي بلكين احتفظ به وقربه. وبتوالي الأيام جرى بينه وبين زيادة الله بن القديم منافسة صارت محاربة أسفرت عن إلقاء هذا في غياهب السجن أن توفي يوم الأربعاء 11 جمادى الأولى 366 هـ/977 م. وكان بلكين مائلا مع عبد الله. وكان من أصحاب زيادة الله المساعدين له خلف بن حسين، صعد إلى قلعة منيعة ، فاجتمع له خلق كبير من البربر الناقمين على السلطة. فسمع بذلك يوسف. فسار اليهم. فقضى عليهم، وأخذ خلفا وأمر به فطيف به على جمل، ثم صلبه وبعث برأسه إلى مصر مشفوعا بستة آلاف رأس، يريد بذلك أن يعبر للخليفة الفاطمي عن تفانيه في فرض الطاعة والولاء على أهل المغرب بكل ما استطاع إليه سبيلا فيكون على حسن الظن به فيرضى عنه. فلما سمع أهل باغاية بذلك خافوا، فصالحوا يوسف ونزلوا على حكمه. فأخرجهم من حاضرهم وخرب سورها[1].

بعث أبو الفتوح هدايا للمعز، فإذا به أخبر بموته، وذلك في ربيع الثاني من سنة 365هـ/976م. فأمر القافلة بالعودة، وكانت قد وصلت إلى طرابلس. وأرسل هدايا أخرى إلى العزيز. فرجع رقادة بعد تشييعها. فتلقاه أهلها فرحين. وما هي حتى وردت عليه من الخليفة دنانير مضروبة باسمه تعامل بها الناس وعقد له على الولاية.

أمر بلكين في ذي الحجة من سنة 365 هـ، عامله على افريقية، عبد الله بن محمد الكاتب، أن يقيم أسطولا بالمهدية معـدا من الرجال

(1) البيان جـ 1 ص: 237 والكامل جـ 8 ص: 623 .

والسلاح، فامتثل، ولم تحل سنة 366 هـــ حتى خرج الأسطول من المهدية في أول محرم، فتعذرت الريح عليه. فأقام بحارته ونوتيته فيه. ولما نفدت أزوادهم وعدموا الماء نهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح ونزلوا إلى اليابسة وهربوا. فجعل عبد الله العيون عليهم. فمن ظفر به قتله.

وفي نفس السنة التي نحن بصددها زحف خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي على سجلماسة في جيش قوي من زناتة واستولى عليها وأخذ ما فيها من الأموال وقتل واليها المعتز المتشيع للفاطميين، وبعث برأسه إلى الأندلس واستحكم بها ملك زناتة وأتباعهم، ولكن لأمد قليل. فإن بلكين قد استتب له الأمر في افريقية والمغرب الأوسط، وأبى الا أن تكون سيادته مطلقة من البحر المتوسط إلى المحيط. فخرج من افريقية على المغرب يوم الأربعاء من شعبان، سنة 368هـــ/27 مارس 979م، في ستة آلاف فارس. فدخل فاس وكان بها عاملان واحد بعدوة الأندلس والآخر بعدوة القرويين. فقتل هذا وصحبه الثاني في سبتة.

وأراد بلكين ان يترك بفاس أثر سلطانه عليها. فأمر بصنع منبر على الطراز الشرقي مكتوب على رأسه التاريخ التالي: شوال سنة 369 هـــ/980 م، وأتحف به مسجد الأندلس. ثم جعل على رأسها من يدير شؤونها تحت لواء الشيعة، وقصد سجلماسة لقطع دابر زناتة ومحو الأمويين. فاحتل المدينة وتقبض على خزرون فقتله وجعل عاملا من قبله. أما زناتة فافترق جمعهم وهربوا إلى أقاصي الغرب في الرمال والصحاري. ثم احتل بلكين الهبط، فلم ينفع عمال بني أمية وبني يعلى بن محمد اليفرني وبني عطية بن عبد الله بن خزر وبني فلفول ويحي بن

علي إلا الفرار إلى سبتة معقل الأمويين. فذهب في إثرهم، وكان في طريقه شعابٌ مشتبكة لا تسلك. فأمر بقطعها وإحراقها[1]. فأمكنه أن يتمادى في سيره إلى أن دنا من المدينة، فأشرف عليها من فوق جبل النور، ووقف نصف نهار لينظر من أي جهة يحاصرها ويقاتلها. فوجدها صعبة المنال لا تؤخذ إلا بأسطول. فخاف أهلها وبعثوا صريخا إلى المنصور بن ابي عامر[2]. فجاء في الحين في جيش إلى الجزيرة الخضراء، وأرسله إلى سبتة على رأس جعفربن علي عدو بلكين ودفع له مائة حمل من الذهب، فإنه حارس كل الحرص على مقاومة الشيعة والتفوق عليها في المغرب بأي ثمن كان. فعبأ جعفر زناتة ووقف بالمرصاد لبلكين فاستشار هذا رجاله ووالي فاس عبد الكريم، فنصحوه أن لا يقتحم المدينة. ففكر مليا ثم أمر بقتل عبد الكريم حتى لا يخبر زناتة بسر أمره. ثم ابتعد عن سبتة، وقصد البصرة، وكانت قديمة أزلية عامرة بزناتة والبربر وأهل الأندلس. فلم ينج الا من هرب. فاستولى بلكين على خيراتهم وخرب المدينة، ثم واصل فتوحاته، فملك أصيلا، ومنها رحل بعساكره المظفرة إلى بلد برغواطة، وكان ملكهم صالح بن عيسى بن ابي الأنصار وكان فصيحا شاعرا ، فأطاعوه حتى جعلوه نبيا، وشرع لهم فاتبعوه، فضل وضلوا[3]. فغزاهم أبو الفتوح. فكانت بينهم حروب لم يجر قبلها مثلها، وكان الظفر حليف بلكين. قتل ابن عيسى وقتل أصحابه قتلا ذريعا وسبى من نسائهم وذراريهم

---

(1) الكامل جـ 8 ص: 638

(2) ابن خلدون : العبر جـ7 ص: 81

(3) ابن عذاري البيان جـ1 ص: 338 والكامل جـ8 ص:

عددا لا يحصى، وأرسل سبيهم إلى افريقية. فلقيهم عبد الله الكاتب مع أهل القيروان والمنصورية، ولعله فعل ذلك إنذارا لمن قد تسول له نفسه أن يخالف.

وبينما كان بلكين ينشر الأمن في ربوع المغرب الأقصى ويمحو أثر دعوة الأمويين ظهرت حرة في السماء ليلة الأربعاء لخمس خلون من ربيع الأول سنة 369هـ. فخرج الناس من المساجد للضجيج والتضرع إلى الله تعالى وفي غد تلك الليلة هرب كباب ومغنين، ابنا زيري بن مناد، من قصر أخيهما السلطان أبي الفتوح الذي كانا فيه محبوسين وقد لبسا ثياب النساء وخرجا في نسوة دخلن إليهما لزيارتهما. فوجدا عبيدهما قد أعدوا لهما خيلا وسلاحا. فركبا ومضيا نحو المشرق حتى وصلا إلى مصر. فأنزلهما الخليفة العزيز وخلع عليهما ووصلهما. فبقيا في القاهرة بقية هذه السنة. وفي عام 370هـ صرفهما إلى أخيهما أبي الفتوح، وأمره أن يعفو عنهما وألا يتعرض لهما بسوء. ففعل ذلك، وهكذا كان دأبه مع الفاطميين. فكان دائما مطيعا لهم يلبي أوامرهم. وفي نفس السنة بعث ابنه المنصور إلى القيروان يعد هدايا للخليفة بالقاهرة.فخرج المنصور من أشير، قاعدة أبيه، وقصد افريقية، ولم يطأ أرضها من قبل، وقام بمهمته ورجع المغرب.[1]

وكانت السجلات ترد على بلكين من مصر، فتصله على البريد في فاس وغيرها، ثم يرجعها إلى عامله بافريقية، فتقرأ بعد مدة من تاريخها.[2]

---

(1) المؤنس

(2) ابن عذاري: البيان جـ1 ك: 338

في سنة 371هـ وصل باديس بن زيري من مصر برسالة إلى أبي الفتوح يأمره بتخير ألف فارس من إخوته الأبطال منهم حبوس وماكسن وزاوي وحمامة بنو زيري وبنو حمامة وبنوا زاوي ومن نظائرهم.

فأجابه بلكين من المغرب أن بني أمية يريدون أن يتغلبوا على بلاد المغرب وأن الدعاء لهم فيه على المنابر وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال الذين سماهم أمير المؤمنين، فإن عزم على بعثهم له ترك المغرب وسار بنفسه في جملتهم. فالجواب كان مسكتا.ويحلو لنا أن نطرح سؤالا هنا . فما عسى أن يكون قصد الخليفة من طلبه؟ أكان في مسيس الحاجة إلى هؤلاء الرجال أم كان يريد أن يضعف شوكة بلكين حتى لا يقوى على زناتة وألا تسول له نفسه يوما ما أن يخلع طاعة الشيعة فيستقل فلن تعود أموال جبايات المغرب ترد على خزينته؟ ولعل الاحتمال الأخير هو الصواب لأن الخليفة لم يلّح في طلبه.

فقد انتهز عبد الله بن محمد الكاتب غياب مولاه. واشترى الآلاف من العبيد السود سنة 373هـ وجعلهم بالمنصورية، وأرغم كل عامل أن يدفع له ما يشتري به ثلاثين عبدا،ولم يستثن عمال الخراج ولا وجوه رجاله. ولم يقف عند هذا الحد، فقد بنى دار الحديد ودار الخشب وملأهما بالخيرات. وكان يترك جعفر بن حبيب بالمنصورية ويستقر هو، بالمهدية، وذلك كل سنة[1]

---

(1) ابن عذارى جـ1 ص: 341

ملك بلكين المغرب كله و لم يعوزه منه إلا سبتة. فراح يستعد للقفول ببرغواطة إذ أتاه الخبر بأن وانودين بن خزرون ضرب على سجلماسة، فدخلها، وأخذ ما كان فيها من الأموال، وكان بها عامل أبي الفتوح. فرحل إليها هذا، فاعتل في طريقه بقولنج، فمات بالموضع المسمى واركنفو، وذلك يوم الأحد لتسع بقين من ذي الحجة سنة 373هـ. فأوصى لبني زعبل بن هشام وكان من خاصته. فأرسل ولده المنصور يعرفه بوفاة أبيه أبي الفتوح.

المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد

توفي بلكين وقد أوصى بولاية ابنه المنصور. وكان هذا بمدينة أشير، فولي الإمارة بالإجماع في أوائل سنة 374 هـ، قبل أن يأتيه التعيين بصفة رسمية من القاهرة. وكان صارما عازما. فأول ما قام به هو إرسال أخيه يطوفت من أشير إلى القيروان للقبض على عبد الله بن محمد الكاتب، وذلك احتياطا على ما نفهم. فلا شك أنه كان يتخوف منه لاستبداده بشؤون الولاية الإدارية والعسكرية بحيث أنه يستطيع القيام بما قد يهدد سلامة الإمارة. وكان له نائبان جعفر بن حبيب على المنصورية وبرهون العامل على القيروان.

فذهب يطوفت على جناح السرعة، لا يلوي على شيء، فوصل بغتة سحر يوم الثلاثاء منتصف محرم. فعمد توًّا إلى الخزائن، فوجدها مغلقة. فتسلم المفاتيح وفتح بيت المال وبيت السلاح، فأخذ كمية من ذا وذاك، وفرق على أصحابه، وركب من كان مرتجلا من الصنهاجيين بالمنصورية. فلا شك أن عبد الله بن محمد الكاتب لما سمع بقدوم

يطوفت أسرع إليه من المهدية بينما بادر يطوفت اللحاق بها. فتلاقيا. فوثب الأمير على الوالي وأرجله عن فرسه واعتقله. ولكن المنصور أمر بإطلاقه بعد أيام وإيقافه عن وظيفته، إلا أنه لم يلبث أن أرجعه إليها .
فأول ما فعله عبد الله إثر هذه المحنة أن أمر بالقضاة والعلماء والأشراف وتوجه معهم إلى أشير يهنئون ويعزون المنصور. فتقدموا بين يديه وعبروا له عن أسفهم لفقدان بلكين وعن سرورهم بجلوس فخامته على عرش أسلافه الكرام، وأعربوا له عن ولائهم وتعلقهم المتين بسلطانه، فأجابهم قائلا: "لقد شق علي تعبكم في حركتكم غير أن سروري في رؤيتكم"[1] ثم شكر عبد الله الكاتب وذم فعل أخيه يطوفت، وأمره بأن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافتهم. فدعوا له وانصرفوا. وبعد خمسة أيام استدعاهم، وفي أثناء حديثه قال لهم: "إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا وأنا، لا آخذكم إلا بالإحسان وما أنا في هذا ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي حمير"[2] ثم أمرهم بالانصراف مع عبد الله الكاتب. فكانت مدة مسيرهم خمسة وثلاثين يوما.

فهذه الوفادة أتاحت لنا أن نقف على طوية المنصور. فيظهر هنا متملقا ذا وجهين ولو لم يكن كذلك لما ذم أخاه يطوفت، مع أنه هو الذي أرسله إلى عبد الله الكاتب برسم القبض عليه. ويتجلى من حديثه للوافدين عليه قبل أن ينصرفوا أنه يريد أن يحيد في سياسته عن الجادة نحو الفاطميين. فإنه ليس تحت رحمتهم، فلا يقدرون على عزله

(1) ابن عذاري جـ 1 ص: 343.
(2) نفس المصدر ص: 343

بمجرد كتاب. إلا أن أفعاله تكذب أقواله إذ لم يلبث أن أخذ في جهاز هدية، حين قدم إلى رقادة ،بعثها إلى مصر مع زروال بن نصر كانت قيمة ما فيها من الأمتعة والدواب والطرف ألف ألف دينار على قول ابن الأثير وابن عذاري[1] فالمنصور لا يعاب من حيث موقفه هذا، فالسياسة تقتضي أن يكون متناقضا.

في ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيـــع الأول من سنة 374هـــ (984م) حدث حادث انشرح له صدر المنصور، فقد ولد له ولد سماه باديس سيكون ولي عهده. قدم المنصور بعد ذلك إلى رقادة يوم الإثنين 19 رجب من نفس السنة (6 ديسمبر) فتلقاه عبد الله الكاتب في خلق عظيم من أهل القيروان. وأشدّ ما كان سروره بذلك الاستقبال الحار وتلك الهدايا التي تقاطرت عليه من طرف العمال وعبد الله الكاتب. فأظهر للناس الخير ووعدهم بكل جميل[2] مايدل على أن الحالة الاقتصادية كانت حينئذ لا تبعث على الإرتياح.

فطاب للمنصور المقام برقادة. ولما قرب العيد أمر بصنع سرج مكلل بالدر والياقوت خرج به في أحسن زي إلى المصلى في حفل من أهل القيروان وضواحيها. فصلى وخطب القاضي ابن الكوفي.

فولى الأعمال واستعمل الأمراء واستخلف على جباية الأموال بالقيروان والمهدية وجميع افريقية عبد الله الكاتب، ثم عاد إلى أشير.لما مات بلكين خرجت البلاد الغربية على طاعة صنهاجة ما يدل على أنها كانت منحـــازة إليهم رهبـــة لا رغبة. فتمكـــن خزرُون بسجلماسة

---

(1) الكامل جــ9 ص: 34 والبيان جــ1 ص:344

(2) البيان جــ 1 ص: 343

وزيري بن عطية بفاس.إلا أن المنصور لم يبق مكتوف الأيدي. لما استقر وأتته الخلع والعهد بالولاية من الخليفة بالقاهرة سير إليهما جيشا كثيفا تحت قيادة أخيه يطوفت ليريهما طاعته. فعسكر يطوفت بضواحي فاس. فعاجله صاحبهما زيري بن عطية بالخروج إليه والهجوم عليه .فقاتله قتالا شديدا. فانهزم يطوفت، وظفرت زناتة بصنهاجة .فاتبعوهم وقتلوا منهم خلقا لا يحصى عدده وأسروا آخرين، وهرب الباقون إلى تاهرت. وقبض في هذه الواقعة على قائدين له اسمهما ابن شعبان وابن عامل، فقتل هذا شر قتلة وسمر الآخر على باب فاس، وثبتت قدم زيري بن عطية في ولايته. فشاع خبر هذه الهزيمة التي من شأنها أن تشجع المخالفين لصنهاجة والتي لم يتعرض المنصور بعدها بلاد زناتة. فقد تظاهر بالخروج إلى الغرب إنقاذا لعزة جيشه ومجد صنهاجة وقد رافقه عبد الله الكاتب، وقد استخلف هذا على القيروان ابنه يوسف. وفي ذلك الوقت بالذات ظهر أبو الفهم حسن بن نصر الخراساني الداعي. قد أرسله العزيز بالله العلوي بمصر إلى كتامة يدعوهم طاعته، وغرضه ان تميل كتامة إليه وترسل إليه جندا يقاتلون المنصور ويأخذون منه افريقية لما رأى من قومه وما سمع من حديثه حيث زاره وفد القيروان أوائل جلوسه على عرش الولاية. فاستقبله يوسف بن عبد الله الكاتب، وفرح به، وأجرى عليه الجراية. فعزم على الخروج إلى كتامة. فكاتب يوسف أباه في ذلك. فأجابه عبد الله أن يعطي له كل ما طلب وأن يتركه يتوجه حيث شاء.فامتثل يوسف أمر أبيه، فزود أبا الفهم بالمال والخيل. وهل المنصـــور كان على بينة من هذا كله؟ فهـــذا ما سكت عنه المؤرخون ولكن ستتجلى لنا الحقيقة فيما بعد.

فالمنصور عقد لعبد الله الكاتب على افريقية كلها وبعث ليطوفت بجيش آخر،فتلقاه بتاهرت. فساد افريقية حينئذ استقراراً مكنه من القيام بإنجازات. فأمر بأن تكون أبواب جامع القيروان من حديد وبأن يشيد له قصر وذلك في سنة 375هـ/986م.

وفي السنة التالية 376 هـ جد يوسف بن عبد الله الكاتب في تشييد قصر المنصورية للمنصور أبي الفتح.فبلغ إنفاقه فيه قبل تمامه مائة ألف دينار[1]. فلم تحل السنة السابعة والسبعون والثلاثمائة حتى كان مشيدا مؤثثا مفروشا.فترل فيه السلطان حين وصوله إلى المنصورية وكان مرفوقا بعبد الله الكاتب وجموع عساكره ووجوه بني عمه ورجاله. فقضى أياما كلها أفراح ومسرات. ولكن دوام الحال من المحال. فاتصل به خبر أبي الفهم الخرساني الداعي الذي دخل بلاد كتامة وصار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السكة، فعظم أمره وشاع خبره[2]. فعزم المنصور على قصده. وقبل أن يفعل أرسل العزيز بمصر يعرفه بالحال. فبعث إليه رسولين ينهاه عن التعرض لأبي الفهم وكتامة، وأمرهما أن يسيرا إلى كتامة بعد الفراغ من رسالة المنصور. فلما وصلا تقدما بين يدي الأمير الصنهاجي وأبلغاه رسالة العزيز. فلم ينه قراءتها حتى أغلظ لهما القول وللعزيز أيضا. فأجاباه بالمثل.فلم يبطش بهما، ولكنه أمرهما بالقيام عنده بقية شعبان ورمضان ومنعهما من المضي إلى كتامة. وفي غضون ذلك تجهز لحرب كتامة وأبي الفهم. وسار بعد عيد الأضحى سنة 378هـ. فأمّ مدينة ميلة،

---

(1) ابن عذارى: البيان جـ 1 ص: 345.

(2) ابن عذارى: البيان جـ 1 ص: 315.

ورام قتل أهلها وسبي نسائهم وذراريهم. فخرجوا إليه يتضرعون ويبكون. فعفا عنهم وأمرهم بالمسير إلى باغاية. فاجتمعوا وساروا إليها. فلقيهم ماكسن بن زيري بعسكره فأخذ ما كان من مال وغيره فخرب المنصور بلدهم.وسار منه إلى كتامة والرسولان معه.فكان لا يمر بقصر ولامترل إلا هدمه حتى بلغ مدينة سطيف وهي كرسي عزهم[1] .فاقتتلوا عندها، فاهزمت كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر فيه ناس من كتامة يقال لهم بنو إبراهيم.فأرسل إليهم المنصور يتهددهم إن لم يسلموه. فأجابوه: "هو ضيفنا فلا نسلمه، ولكن أرسل انت إليه، فخذه ونحن لا نمنعه" فأرسل المنصور من أخذوه، وأمر بضربه ضربا شديدا،ثم قتله وسلخه بعد ذلك. فأكلت صنهاجة وعبيد المنصور لحمه.وقتل معه جماعة من الدعاة ووجوه كتامة. ورواية أخرى تقول: "لما صار أبو الفهم بين يديه أمر به فلطم لطما شديدا ونتفت لحيته حتى أشرف على الموت. ثم أخذه بعض رجاله فنحره وشق بطنه وأُخرجت كبده فشويت وأكلت. وأخذه عبيد المنصور، فشرحوا لحمه وأكلوه حتى لم يبق إلا عظامه متجردة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر[2]. وقتل بسببه والي ميلة وجماعة من كتامة. ونزل بهذه القبيلة الذل والهوان بعدما صالت في أيام عبيد الله المهدي. وبقيت ميلة خرابا ثم عمرت بعد ذلك. بث المنصور عماله فيها، ولم يدخلها عامل قبل ذلك، فجبوا أموالها، وضيقوا على أهلها وإثر ذلك رجع المنصور إلى المنصورية ورد الرسولين إلى العزيز. فأخبراه بما فعل بأبي الفهم وقالا: "جئنا من عند شياطيـــن يأكلون الناس". فتيقن عند

---

(1) الكامل جـــ 9 ص: 54.
(2) البيان جـــ 1 ص: 349 .

ذاك أن المنصور قد فهم قصد العزيز بإرساله أبا الفهم، فبعث له يطيب قلبه وبعث له هدية و لم يذكر له أبا الفهم.

يخبرنا النويري بأن نزار العزيز بالله كتب للمنصور يخبره بأن الدعوة الشيعية يقوم بها عبد الله الكاتب. فلا مناص من تنفيذ هذا الأمر. فامتثل المنصور. فأمر ببسط القطائف في قصر السلطان المعروف بقصر البحر. وفي يوم الاثنين سابع جمادى الثانية من سنة 377هـ/ أكتوبر 987م، جلس المنصور محفوفا بأهله وعمومته.فدخل عبد الله الكاتب. فقلده الأمير أمور الدعوة بصفة رسمية. فما أشد ما كان فرحه عند ذاك! فمسح رأسه وقال: فلست الآن مأمورا منفذا ولا خوف على شعري ولا على جسدي، يريد بذلك أنه استقل، لن يمتثل لأوامر المنصور ما لم يبلغه أحد من قرابته ودولته وانحجرت أموره كلها تحت قبضته، فجمع الأموال.

وبما أن عبد الله رتب الأعمال وأعطى السياسة والرئاسة حقهما حسده كبراء أهل الدولة وألقى عنه حسن بن خالة المنصور أمورا من القدح في دولته، وأنه هو السبب في خروج الداعي الثائر أبي الفهم بكتامة وكان يغض من استفحال أمره حتى كاد يؤدي إلى مالا يحمد عقباه.. وأضف إلى ذلك أن عبد الله الكاتب كان، لثقته بنفسه، لا يداري أحدا من أولاد زيري ولا أكابر الدولة. فلما أحسوا من المنصور بعض التغير عليه، أكثروا من الذم فيه والوشي به إليه حتى عظم الأمر على الأمير وتخوف منه. فعزم على خلعه، فقال له "اعتزل من عمل إفريقية واقتصر على الكتابة، وكل من تولى متصرف بين يديك وتحت أمـــرك،

فكان جوابه أن قال:"القتلة ولا العزلة"[1]. فلما كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب غدا إلى ديوان كان قد بناه. فجلس فيه لانتظار ركوب المنصور وبيده جزء من القرآن يقرأ فيه حتى قيل له: "قد ركب السلطان. فأطبقه وركب فرسه برسم لقائه وهو يقول:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

فلما وصل إليه المنصور نزل عبدا لله الكاتب إليه وسلم عليه ثم وقف. فدار بينهما كلام كثير لم يقف أحد على صحته. ثم باغته المنصور بطعنة برمحه. فجعل عبد الله أكمامه على وجهه وقال: "على ملة الله وملة رسوله". لم يُسمع له غير ذلك. وضربه عبد الله أخو المنصور برمح بين كتفيه، فسقط على الأرض ميتا. ثم أتي بابنه يوسف، فضربه المنصور وماكسن بن زيري، فسقط ميتا بجانب أبيه. ولم يكتف المنصور بذلك، فأمر بهما أن يدفنا في الإسطبل دون غسل ولا كفن[2].ولا تسل عن سرور أهل القيروان بهذا الحادث.فكانوا يمقتون عبد الله الكاتب لإثقاله ظهرهم بالضرائب ولإكراهه الفقهاء وحتى الأدباء مثل ابن بقال على التشيع.

فلم يسمع العسكر بقتل عبد الله الكاتب حتى داروا على الناس، فانتهبوهم وغلبوهم وقطعوا الطرق، فأخذوا كل من وجدوا من المسافرين وغيرهم، ومالوا إلى وادي القصـــارين وباب تونـــس، أحد

(1) ابن عذاري: البيان ج1ص:346
(2) نفس المصدر : 348

أبواب القيروان، فنهبوا ما كان عند القصارين. فذهب في ذلك اليوم أموال المسلمين، وقتل خلق ممن دافع عن نفسه وماله.

لم تبق أعمال إفريقية شاغرة طويلا، فولاّها من قبل أبي الفتح المنصور يوسف بن أبي محمد، وكان عاملا على قفصة. فأعطاه البنود والطبول ،وخلع عليه، وذلك يوم الخميس لخمس بقين من شعبان 377هـ، وجعله في دار القائد جوهر[1]. إلا أن يوسف بن أبي محمد ظل مشتغلا بالأكل والشرب وكلف بالورد. فإذا دخل إبانه اصطبح عليه، فلا يظهر حتى يفنى الورد وينقطع، وكان يجلس فيه وينام عليه، فسمي شيخ الورد. أما الأمور المنوطة به فأسلمها أبي البوني. فكان أهل الحاضرة معه في أمن وعافية. أما أهل البادية فكانوا في عذاب وغرامة. وكان جبارا عنيدا وسمحا جوادا. وكان يخرج في كل سنة ، فيدور على كور افريقية ويجبي الأموال ويأخذ الهدايا من كل بلد ويرجع. يقول ابن الرقيق: "كنا ندور مع يوسف بن أبي محمد على البلدان، اذا استطاب موضعا وأعجبه حسنه أقام فيه مصطبحا الشهر والشهرين، وأبو الحسن البوني يجبي الأموال، ويقبض الهدايا ويقوم بأمور يوسف وعسكره، ويعطي لخاصة يوسف في كل يوم خمسة آلاف درهم وينفق على يوسف لمطبخته وفاكهته نحو هذا القدر من المال.فأخبار[2] تصرفاتهما العقيمة وصلت إلى المنصور، فانتقم منهما سنة 382 هـ. فقبض على أبي الحسن البوني وابنه وطلب منهما مالا كثيرا فأنكراه، فأمر بذبح البوني، ثم عزل يوسف من عمالة افريقية، وولى مكانه محمد بن أبي العرب الكاتب.

(1) البيان ج1ص:348

(2) مصلحة الأخبار كانت موجودة حينئذ

وقد توفي الحسين بن خلف المرصدي صاحب خراج القيروان وأمر أبو الفتح بولاية محمد بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى. فجلسا معا في ديوان خراج المنصورية[1]. هيهات أن ينسى الكتاميون فتكات جيش المنصور بهم أيام أبي الفهم. فلم تحل سنة 379 هـ حتى خرج رجل منهم يقال له أبو الفرح، وزعم أن أباه ابن القائم العلوي. فكانت ثورته أشد خطرا من ثورة أبي الفهم على حد قول ابن الأثير. اجتمعت اليه كتامة واتخذ البنود والطبول وضرب السكة وجرت بينه وبين نائب المنصور وعساكره بمدينتي ميلة وسطيف حروب كثيرة. فلم ينهزم. فسار المنصور اليه في جيشه، فهزمه، وقتل من كتامة مقتلة عظيمة. فاختفى أبو الفرح في غار جبل. فوثب عليه غلامان كانا له، فأخذاه وأتيا به المنصور، فسره ذلك وقتله شر قتلة. فشحن المنصور بلاد كتامة بالعسكر وبث عماله فيها من جديد، فجبوا أموالها. فلم ترفع تلك القبيلة رأسها بعد ذلك ورضخت نهائيا لسلطان صنهاجة.

وكيف كانت الحالة السياسية وقتئذ في المغرب الأقصى؟ ان لم تخنّي ذاكرتي فإن بني أمية بعدما قضوا على الحسن بن كتون سنة 375 هـ/986م مدوا يدهم إلى مغراوة وأعلنوا شأنهم على حساب أمراء زناتة ويدّو بن يعلى اليفرني.

فاستقبلوا زيري بن عطية المغراوي استقبالا حارا بقرطبة ورفعوا جانبه إلى رتبة وزير. فعاد إلى فاس. فلم يلبث أن فسد ما بينه وبين ابن أبي عامر، فحاول هذا أن يجذب اليه يدّو بن يعلى. فأمره أن يشخص قرطبة، لكن يدّو رفض وخالف، فرجع زيري بن عطية

(1) البيان جـ 1 ص:351

إثر ذلك إلى المروانية. فاتفق أن هجم يدّو على الجيش العامري وهزمه. فأمر أمير الأندلس زيري بن عطية بإرجاع الأمور نصابها بفاس وتدبير شؤون هذه المدينة مكان واليها عبد الودود الذي قضي عليه في المعركة التي وقعت بين الجيش الأندلسي ويدّو .فشأن بني عطية أصبح خطرا ما أثار حسد بعض الأمراء من زناتة ورجعوا مكانهم.

وكان من بين هؤلاء سعيد بن خزرون الزناتي، وكان أبوه قد تغلب على سجلماسة سنة 365هـ. فصار في طاعة المنصور أبي الفتح الزيري. فوافاه بأشير، واختص به وعلت مترلته عنده. فقال له المنصور يوما: "يا سعيد هل تعرف أحدا أكرم مني؟" وكان قد وصله بمال كثير - فقال: "نعم أنا أكرم منك" فقال المنصور: "وكيف ذلك؟" قال: "لأنك جدت علي بالمال، أما أنا فجدت عليك بنفسي". فاستعمله المنصور على طبنة وزوّج ابنه ببعض بنات سعيد إحكاما للمخالصة[1]. فلامه على ذلك بعض أهله. فقال: "كان أبي وجدي يستتبعاهم بالسيف وأما أنا، فمن رماني برمح رميته بكيس حتى تكون مودهم طبعا واختيارا ".

كان أبو البهار بن زيري عاملا على تاهرت. واتفق أن فسدت ذات بينهما. فخالف أبو البهار على المنصور. فزحف اليه هذا، فوجده قد فارق تاهرت إلى الغرب بمن معه من أهله وأصحابه. فدخل العسكر المدينة، فانتهبوها ولم يبخلوا بالقتل على الناس. فطلب أهلها الأمان، فأمنهم المنصور. ثم سار في طلب عمه أبي البهار حتى تجاوز تاهرت سبع عشرة مرحلة، فلم يعثر عليه. فرجع عن تبعه، وولى على تاهرت

(1) ابن خلدون: العبر جـ 7 ص : 82 .

أخاه يطوفت، ومضى إلى أشير حيث كان مقامه في أغلب أيامه قبل أن يبنى له قصر خارج المنصورية. أما أبو البهار فقد كتب إلى ابن أبي عامر يسأله الدخول في طاعته وأن يكتب إلى زيري بن عطية، صاحب فاس، أن يكون عنده. وكان هذا مواليا ومصافيا لابن أبي عامر. فكتب هذا أبي البهار قائلا: "ان كنت على نية فيما وصفته عن نفسك فأرسل إلي ابنك يكون رهينة عندي فلك ما تريد" فوجه أبو البهار إليه ابنه في مركب مع ميمون المعروف بابن دابة كاتبه. فعطب المركب، فغرقا جميعا. فوجه إليه ولده الآخر، فوصل إليه. فعند ذاك أرسل ابن أبي عامر لأبي البهار أموالا وكسى وطرفا مع خلوف بن أبي بكر بن حبوس بن زيري، وكان وفد عليه في جماعة من ذويه من قبل أبي البهار، وكتب إلى زيري بن عطية في حقه أن يعاضده ويبصر ويكون معه. فلما بلغ ذلك أبا البهار، قدم إلى فاس واتفق مع زيري بن عطية صاحبها. فاتفق رأيهما مدة[1]. حاربهما يدّو بن يعلى اليفرني فهزماه وملكا فاس. وما هي الا عشية أو ضحاها حتى خالف خلوف بن أبي بكر وانضوى اليه جماعة من الصنهاجيين. فقصدهم عسكر زيري بن عطية وأوقعوا بهم سنة 381 هـ. فاختلف إثر ذلك ذات ما بين زيري وابن أبي البهار. فتزاحفا، فانهزم أبو البهار في سبتة. فأجمع العودة إلى قومه، فقصد، عن طريق جراوة، ابن أخيه يطوفت. فكتب هذا إلى أخيه المنصور يخبره بوصول عمه أبي البهار إليه. فأجابه أن يبعثه اليه. فكان وصول أبي البهار المنصورية ليلة الإثنين منتصف شعبان. ففرح به المنصور وحمل إليه كل ما يحتاج إليه من مال وغيره[2].

---

(1) ابن خلدون : العبر جـ 7 ص: 81.
(2) ابن خلدون العبر : جـ 7 ص : 69

فقد نجا بنفسه. وذلك أن ابن أبي عامر لما سمع بمخالفته أرسل جيشا عرمرما تحت قيادة كاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع لمراقبة حركاته.

قصد المنصور ثانية المنصورية في عام 381هـ/992م، ودخل قصره الجديد. فخرج إليه أهل القيروان يتلقونه. فأدناهم وأثنى عليهم ووعدهم خيرا.

وفي يوم الأضحى خرج إلى المصلى في حفل يسوده التهليل والتكبير. ولعله بمناسبة هذا العيد ترك البقايا في الخراج لأهل البادية. وإثر ذلك رفع له في عبد من عبيده، انه قذف بعض الصحابة رضي الله عنهم. فصلبت جثته ونؤى عليه بمدينة القيروان.

ظهر باديس بن المنصور في ربيع الأول من سنة 382 هـ/991 ـ 992م بقصر والده فقدم له جماعة من الأشراف هدايا تتفاوت تفاوت ثروتهم ومترلتهم. وبهذه المناسبة قدم له ابن الخطاب عامل زويلة هدية فيها، زيادة على أشياء أخرى. زرافة وطرفا سودانية. أما عامل طرابلس فقد أعطاه مائة حمل من المال زيادة على خيل وطرف مشرقية. والخليفة العزيز بالله، من جهته، وصل منه بولاية العهد لأبي مناد باديس. فسر المنصور بذلك أكثر من سروره بالهدايا التي تقاطرت عليه من كل فج وصوب. وأبى المنصور إلا أن يشاطره الشعب في فرحه فترك البقايا للرعايا[1]. وإثر ذلك وصل سعيد بن خزرون من مدينة طبنة إلى المنصورية. فلقيه المنصور وعانقه. ثم دخل معه القصر وأنزله وأجرى عليه الأرزاق الواسعة. فاعتل سعيد بن حزرون أياما ومات في أول رجب سنة 382هـ. فكفنه المنصور بسبعين ثوبا.

(1) البيان جـ 1 ص: 352

ووفد عليه فلفول بن سعيد. فعقد له على عمل أبيه، وخلع عليه، وزف إليه ابنته وسوغه، ثلاثين حملا من المال وثلاثين تختا من الثياب، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة، وأعطاه عشرة من البنود مذهبة[1]. فشكر فلفول وانصرف إلى عمله. وفي سنة 383 هـ، خرج باديس بن المنصور إلى مدينة أشير مرفوقا بجدته يعلان. فكان أول سفر قام به. ولم يرجع المنصورية إلا سنة 384 هـ. فلقيه أبوه في عسكره وحاشيته وسكان القيروان، فكان يوما مشهودا.

هذا ما كان في افريقية. أما في المغرب الأقصى، فجمع المنصور بن أبي عامر لزيري ابن عطية أعمال المغرب وعهد إليه بمناجزة أبي البهار. فزحف اليه زيري في حشود كثيرة من قبائل زناتة والبربر ففر أمامه أبو البهار ولحق بالقيروان. واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار واختط مدينة وجدة سنة 383هـ، 993ـ994م وأنزلها عساكره وحشمه[2]. فوجدة، إذن، مدينة جزائرية أحدثها جزائري لحما ودما وروحا، إذ هو من بني عطية المغراويين. وفي سنة 385 هـ فجعت الأسرة الحاكمة بوفاة الأمير عبد الله بن يوسف بن زيري بن مناد. ولم يزل عنها حزنها حتى نزلت بها رزية أعظم في شخصية قائدها الأكبر أبي الفتح المنصور عدة العزيز بالله، وذلك في يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول سنة 386هـ. ودفن في قصره خارج المنصورية. وكانت أيامه أحسن أيام. كان ملكا شجاعا حازما محبا للعدل والرعية، وخير دليل على ذلك إسقاطه البقايا عن أهل افريقية وكانت مالا جليلا، وخلع يوسف بن محمد وقتل أبي الحسن البوني

(1) ابن خلدون : العبر جـ 7 ص: 82

(2) ابن خلدون : العبر جـ 7 ص :65

اللذين أثقلا ظهر الشعب بالضرائب الفادحة. والشيء بالشيء يذكر فإنه لم يحقد على يوسف هذا، فقد عينه عاملا على متيجة، كما أنه لم يحقد على عمه أبي البهار.

رأى المنصور أن سياسة العنف والقمع لم تجد طائلا. فقد استتبع جده وأبوه الناس بالسيف و لم يفارقا الحياة حتى خرجت البلاد المغربية عن طاعة صنهاجة.

فاختار سياسة اللين والإحسان والمسالمة. فلماذا يقلق راحته ويضيع ماله ورجاله لإخضاع بلاد تزول عن طاعة دولته بزواله؟ فإن سياسته هذه صالحة ولكن إلى حد ما. فإن لها آفاتها. فإن العدو إذا عاملته باللين أرجع ذلك إلى ضعف قد ألمّ بك، فلا يقنع حينئذ بشق عصا طاعتك، فيعمل ما في وسعه لقطع دابرك. فإن المنصور لم يزحف إلى زيري بن عطية بعد انهزام يطوفت وآثر مسالمته. فلم يفكر في إبعاد موقفه هذا، فشجعه به لا على إقصاء صنهاجة من المغرب الأقصى فحسب بل على الدخول إلى أرضهم، فعاث فيها وكسح وخرب ودمر.

وما يجدر بالإشارة إليه أن المنصور كان لا يطيق صبرا على العُتُوّ الأعمى لإرادة الفاطميين. فيظهر من موقفه من العبد الذي قذف بعض الصحابة ومن حديثه يوم زاره الوفد القيرواني زفقة عبد الله الكاتب أنه في نيته أن يشق مسلكا يفضي بالزيريين إلى الاستقلال وعدم التبعية للغير. فمن نكد الدنيا أن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ومن العار أن يتغاضى عن قذف الصحابة في دولته.

باديس بن المنصور بن بلكين

توفي أبو الفتح المنصور، فولي بعده ابنه أبو مناد باديس سنة 386 هـ. وكان حديث السن، إذ كان مولده عام 374 هـ. فخرج اثر البيعة إلى قصره بسردانية حيث قصده الناس من كل صوب للتعزية والتهنئة وللإعراب له عن ولائهم المطلق.

أما بنو زيري وبنو حمامة ،أعمام أبيه،فأرادوا أن يخالفوا عليه. الا أن أصحابه وأصحاب أبيه حالوا دونهم. فلا غرو من موقعهم المعادي فإن انتقال السلطة من يد إلى يد أخرى يوقد أحيانا نار الحسد في قلوب الطامعين.

رجع باديس إلى قصره بالمنصورية.ثم خرج يتفقد سوسة حيث قضى أياما بالمهدية حيث لعبت المراكب بين يديه ورمى النفاثون بالنفط. و لم يلبث أن عاد إلى المنصورية. فوفد عليه عمه يطوفت يعزيه ويهنئه.ثم رجع إلى طبنة ومن ثم إلى تاهرت. فإن هذه الزيارة لدليل على أن انتفاضات عمومة باديس قد انتهت في ذلك الوقت. ولعل موقف بني زيري من ولاية أبي مناد كان مشجعا لرجل صنهاجي اسمه خليفة بن مبارك على القيام بثورة كان مصيرها الفشل. فأمر بالقبض عليه وتأديبه. فأُخذ وأُركب حمارا وجعل خلفه رجل أسود يطوف به ويصفعه، ثم ألقيَ في غياهب السجن ولم يقتل احتقارا له. وجعلهم رجلا أسود خلفه كان عندهم احتقارا له أيضا، فإنهم كانوا يؤمنون بالعنصرية ويعتقدون أن الأسود دون الأبيض، ولو لم يكن كذلك لجعلوا وراءه رجلا أبيض.

احتفظ باديس بمحمد بن أبي العرب على رأس ولاية افريقية نائبا عنه.فهو أديب تحرير وقائد شجاع أقر بدوره رجاله على مراتبهم واستعان بهم.وبقي عاملا ثلاث عشرة سنة أخرى إلى أن مات سنة 396هـ/1006-1007م. فخلفه حينئذ ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 396هـ. وكان باديس يتمثل أوامر الخليفة بدون تردد.فبعث له هذا سجلا يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر[1].

وكان هذا وقتئذ مريضا وكان باديس هيأ هدية ليبعثها للعزيز. فخرج بها جعفر بن حبيب من المنصورية إلى رقادة لست خلون من رمضان سنة 386هـ. فرأى باديس أن يبعث القاضي مع الهدية. لكن هذا اعتذر بعلته. فأرسل إلى دار محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة. ووقف العسكر بباب القاضي أبي الربيع حتى يقفوا دون أهل القيروان إذا ما أراد أن يحولوا بينه وبينهم. ثم ولجوا بيت العليل وحملوه ببساطه الذي كان مضطجعا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجأوه وخرجوا به محمولا ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه وأولاده وقرابته يمشون خلفه فرثى الناس لحاله، وكانوا يحبونه لحسن سيرته وعدله. فما هي إلا حتى جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله.فأمر أبو مناد بإرجاعه إلى بيته مكرما معظما. وذلك في أواخر سنة 386هـ، وفي محرم سنة 387هـ/997م، دخل بيته فاطمأنت القلوب وانشرحت الصدور.

---

(1) ابن عذارى:البيان جـ 1 ص 355

احتفظ باديس بمحمد بن أبي العرب على رأس ولاية افريقية نائبا عنه.فهو أديب تحرير وقائد شجاع أقر بدوره رجاله على مراتبهم واستعان بهم.وبقي عاملا ثلاث عشرة سنة أخرى إلى أن مات سنة 396هـ/1006-1007م. فخلفه حينئذ ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 396هـ. وكان باديس يتمثل أوامر الخليفة بدون تردد.فبعث له هذا سجلا يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر[1].

وكان هذا وقتئذ مريضا وكان باديس هيأ هدية ليبعثها للعزيز. فخرج بها جعفر بن حبيب من المنصورية إلى رقادة لست خلون من رمضان سنة 386هـ. فرأى باديس أن يبعث القاضي مع الهدية. لكن هذا اعتذر بعلته. فأرسل إلى دار محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة. ووقف العسكر بباب القاضي أبي الربيع حتى يقفوا دون أهل القيروان إذا ما أراد أن يحولوا بينه وبينهم. ثم ولجوا بيت العليل وحملوه ببساطه الذي كان مضطجعا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجأوه وخرجوا به محمولا ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه وأولاده وقرابته يمشون خلفه فرثى الناس لحاله، وكانوا يحبونه لحسن سيرته وعدله. فما هي إلا حتى جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله.فأمر أبو مناد بإرجاعه إلى بيته مكرما معظما. وذلك في أواخر سنة 386هـ، وفي محرم سنة 387هـ/997م، دخل بيته فاطمأنت القلوب وانشرحت الصدور.

(1) ابن عذارى:البيان جـ 1 ص 355

احتفظ باديس بمحمد بن أبي العرب على رأس ولاية افريقية نائبا عنه.فهو أديب تحرير وقائد شجاع أقر بدوره رجاله على مراتبهم واستعان بهم.وبقي عاملا ثلاث عشرة سنة أخرى إلى أن مات سنة 396هـ/1006-1007م. فخلفه حينئذ ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 396هـ. وكان باديس يتمثل أوامر الخليفة بدون تردد.فبعث له هذا سجلا يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر[1].

وكان هذا وقتئذ مريضا وكان باديس هيأ هدية ليبعثها للعزيز. فخرج بها جعفر بن حبيب من المنصورية إلى رقادة لست خلون من رمضان سنة 386هـ. فرأى باديس أن يبعث القاضي مع الهدية. لكن هذا اعتذر بعلته. فأرسل إلى دار محمد بن أبي العرب وجماعة من رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة. ووقف العسكر بباب القاضي أبي الربيع حتى يقفوا دون أهل القيروان إذا ما أراد أن يحولوا بينه وبينهم. ثم ولجوا بيت العليل وحملوه ببساطه الذي كان مضطجعا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنهم فاجأوه وخرجوا به محمولا ومشوا به إلى رقادة وخلفه غلام نصراني يمسكه وأولاده وقرابته يمشون خلفه فرثى الناس لحاله، وكانوا يحبونه لحسن سيرته وعدله. فما هي إلا حتى جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله.فأمر أبو مناد بإرجاعه إلى بيته مكرما معظما. وذلك في أواخر سنة 386هـ، وفي محرم سنة 387هـ/997م، دخل بيته فاطمأنت القلوب وانشرحت الصدور.

(1) ابن عذارى:البيان جـ 1 ص 355

ظهور حماد على مسرح التأريخ

كان أبو الفتح المنصور قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة، وكان يتداول ولايتهما مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار. فرأى باديس أن شوكة زناتة، يفرن ومغراوة، قويت في المغرب الأوسط. فالظروف تقتضي الحذر واليقظة والدراية، وهذه الصفات تتوفر في عمه حماد، فاستعمله على أشير سنة 387هـ، وأقطعه إياها، وأعطاه كسى جليلة وكثيرا من الخيل والسلاح والعدد، وعهد إليه بمحاربة زناتة وكل بلد يفتحه، وشيعه إلى تيجس حيث أقاما أياما. فودعه حماد وقصد المغرب الأوسط. وكان الصنهاجيون في حاجة ماسة إلى أمير منهم يأخذ بيدهم لصد الأعداء. فهشوا لوصوله، والتفوا حوله، وحاربوا بجانبه، وشتتوا جموع زناتة، وألجأوهم الذهاب إلى المغرب الأقصى.

ومن النساء اللواتي اشتهرن في تلك الآونة الأميرة أم ملال، فقد لعبت دورا كبيرا في السياسة حيث أن أخاها باديس كان يتغيب كثيرا، ثم فاطمة الهادنة التي اشتراها المنصور. فقد أسلمت وأصبحت تعتبر أميرة صنهاجية تقديرا لها، فقد أرضعت باديس وكان لها عليه نفوذ غير قليل.

وفي ربيع الأول من السنة خرج باديس بعسكره ورجاله يستقبل القاضي الباهري القادم من مصر إلى المنصورية. فقد وصل القاضي هذا بسجلات قرئ اثنان منها بجامع القيروان،أحدهما بولاية أبي مناد وتلقيبه نصير الدولة، والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم

بأمر الله والجواب عن وفاة المنصور عدة العزيز بالله.أما الثالث فالمراد به أخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم. فأحضر باديس وجوه الصنهاجيين وأخذ عليهم البيعة، ثم وصل القاضي الشريف الباهري بمال وافر. فعاد القاضي راضيا مرضيا إلى القاهرة.

وفي هذه السنة خرج باديس نصير الدولة إلى المصلى يوم العيد ـــ ولعله عيد الفطر ـــ وبين يديه فيل وزرافتان وجمل أبيض ناصع البياض لم ير الناس مثله قط.

وفي السنة التالية 388هـــ وصلت إلى نصير الدولة هدية فاخرة من مصر تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة. فتلقاها ، ودخلت بين يديه المنصورية. كان زيري بن عطية مواليا للمنصور بن أبي عامر، وكانت العلاقات بينهما على أحسن ما يرام، وما هي إلا عشية وضحاها حتى انتفض عليه وطعن فيه. فسرح إليه ابنه المظفر في عساكر ضخمة، فغلبه على أعمال المغرب. فلم ير زيري بدا من أن يلحق بالقفر مثخنا بالجراح في شوال سنة 388هـــ/998م لينجو بنفسه. فلم يؤدّ به إلى هذه الكارثة إلا تجبره وطموحه المفرط.يقول الشاعر:

فإذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم.

ولكن زيري بن عطية دأبه الفتنة والشغب. فجند العساكر وعاج بهم على المغرب الأوسط، ونازل ثغور صنهاجة، وحاصر يطوفت بن بلكين بتاهرت سنة 389هـــ/999م. فكتب هذا إلى باديس يخبره بنـــزول: زيري بن عطية عليه محاربا ويستمده ما يعينه على القضاء على ذلك الطاغي. فلم ينه باديس الخبر حتى أمر نائبه محمد بن أبي العرب

بالتجهيز والاستكثار من العساكر والعدد والمسير إلى زناتة. ففعل، وخرج في 15 صفر سنة 389هـ/999م، ولا يلوي على شيء حتى وصل إلى أشير وبها حماد بن يوسف عم باديس. فرحل حماد معه في عساكره. فوصلا تاهرت واجتمعا بيطوفت في الفاتح جمادي الأول، وبينهم وبين زيري بن عطية مرحلتان وكان معسكرا بأمسّار. فزحف الصنهاجيون إليه. فكانت بين الفريقين حرب ضروس بوادي مناس غرب تاهرت. وكان أكثر عسكر حماد يكرهونه لتقتيره عليهم في العطاء بحيث لما اشتد القتال انهزموا عمدا، فتبعهم جميع العسكر. فأراد محمد بن أبي العرب أن يرد الناس، فلم يقدر على ذلك، وتمت الهزيمة، ورجعت العساكر إلى أشير تاركين وراءهم محلاتهم ومضاربهم وكل ما فيها من الأموال والسلاح. فاحتوى زيري عليها وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر آخرين أطلقهم عند وصوله تاهرت. وكانت هذه الهزيمة يوم السبت لأربع خلون من جمادي الأولى سنة 339هـ. فانتشر خبرها. فخاف باديس أن يستفحل أمر زيري بن عطية. فرحل من المنصورية للقائه يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأخيرة. فلما وصل طبنة بعث في طلب فلفول بن سعيد ليستظهر به على حربه. فخاف وأرسل يعتذر إليه عن الوصول وسأله أن يجدد له العهد على ولاية طبنة. فكتبه وأرسله إليه389هـ/999م وواصل سيره. ثم اشتد خوف فلفول، فارتحل عن طبنة في جماعة من أصحابه.

ولما أبعد باديس رجعوا إلى طبنة وأخذوا ينهبون ويخربون فيها وفي نواحيها وفي تيجس أيضا. ثم قصدوا باغاية فحاصرتها وعاثوا في ضواحيها. كل ذلك وباديس سائر إلى أشير. فسمع زيري بن عطية

أنه يعد السير إليه، فرحل إلى تاهرت. لكن حركاته لم تخف على باديس فقصده. فأجمع زيري على أن يغادر المنطقة ويؤم المغرب الأقصى. فلما اتصل بباديس خبره استعمل عمه يطوفت على أشير وتاهرت وأعطاه أموالا وعددا، فاستخلف يطوفت على تاهرت ابنه أيوب في أربعة آلاف فارس حتى يمكنه أن يحمي الناحية من عناصر الفساد والإتلاف. فعاد باديس إلى أشير. فبلغه ما قام به فلفول بن سعيد من نهب وتخريب. فأرسل إليه العساكر ثم لحقهم. فبقي يطوفت ومعه أعمامه وأبناء أعمامه.

فعصى هؤلاء وخالفوا على باديس وقبضوا على يطوفت وأخذوا جميع ما معه من مال فهرب من أيديهم ولحق بباديس، وكان هذا قد وصل إلى المسيلة مرفوقا بأبي البهار.فعيد فيها عيد الفطر. فسمع أبو البهار أن إخوته ماكسن وزاوي وعزم ومغنين قبضوا على يطوفت. فرحل أبو البهار هاربا في بيته ورجاله وعياله ولحق بهم. ورحل نصير الدولة هو الآخر ثالث شوال إلى إفريقية، وفي طريقه مر ببلزمة، فبلغه فيها أن فلفول بن سعيد تمادى إلى القيروان، فرحل إلى باغاية. فشكا إليه أهلها ما عانوه من طرف فلفول حين حاصرهم مدة خمسة عشر يوما. فصمم حينئذ باديس على أن يقطع دابر هذا الطاغي العنيد،فقصده، فوصل مرجنة. وسار فلفول إليه في جمع كثير من البربر وزناتة ومعه كل من في نفسه حقد على باديس وأهل بيته. فالتقوا بوادي أغلان، وكان بين الفريقين حرب لم يسمع بمثلها[1]. فدارت الدائرة على فلفول. فانهزم في جبل الحناش. وأتبعـــه صنهاجة والعبيد. وبما أنهم رأوه

(1) الكامل جـــ9 ص:154

تمادى منهزما رجعوا عنه واكتفوا بنهب محلته. وقتل في ذلك اليوم نحو سبعة آلاف من زناتة، وأرسل نصير الدولة كتاب الفتح إلى مدينة القيروان[1] فلا تسأل عن سرور القوم بالخبر، وكانوا سدوا الأزقة بالمتاريس حتى يصدوا فلفولا إن رام التعدي عليهم في بلدهم، لأنهم كانوا على بينة من قساوتة وشراسته ويتوقعون منه حيث عاث في شتى الأقاليم و هزم جيش باديس وجسر على قتل ابي زعبل.

فعاد حينئذ باديس إلى حاضرته ظافرا. إلا أنه بلغه أن أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول وعاقدوه، ونزلوا جميعا بحصن تبسة. فخرج إليهم في سنة 390هـــ. ولكن فلفولا كان متيقنا أنه لاطاقة له للقائه، فهرب إلى الرمال، ومن ثم شخص إلى طرابلس. وأما باديس فتمادى إلى أن إلى وصل قصر الافريقي وبسكرة. فلم يعثر على أثر عمومته. وسمع أنهم فارقوا فلفولا و لم يبق معه إلا ماكسن وابنه محسن. فرجع المنصورية وفي صحبته أبو البهار الذي عاد إليه واعتذر له مما فعل إخوته. فقبل العذر.

وفي سنة 391هـــ فارق ماكسن فلفولا وسار إلى أشير وبها ابن أخيه حماد بن يوسف بلكين. فحدث بينهما حرب شديدة انتهت بمقتل ماكسن وولديه محسن وباديس.

أما زيري بن عطية ففتح تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة و أقام فيها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور بن أبي عامر بعده. ثم اتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم، فأناخ عليها، واستأمن إليه زاوي بن زيري بن مناد ومن معه من أهل بيته المنازعين لباديس. فكتب حينئذ المنصـــور بن أبي عامر يخبره بانتصاراته ويسترضيه ويشترط على

(1) البيان جـــ 1 ص:360.

نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى ولايته بالمغرب الأقصى ويستأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلال، فأذن لهما سنة 390هـ. وقد اعتل زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير. فأخرج عنها، وهلك في منصرفه سنة 391هـ بعد مقتل ماكسن بتسعة أيام في الثاني والعشرين من رمضان. وبموته من جهة وبابعاد فلفول إلى طرابلس من جهة ثانية استرجع المغرب الأوسط استقراره ودعته. اجتمع آل خزرون ومغراوة بعد موت زيري بن عطية على ابنه، فبايعوه فضبط أمرهم وقصر عن محاربة صنهاجة، ثم استنجد للمنصور بن أبي عامر، واعتلق بالدعوة العامرية.فصلحت حالهم عندهم.

أما زاوي فلجأ على جبل شنوة بناحية شرشال. فبقي ينتظر جواب ابن أبي عامر. لكن هذا توفي، فأجابه ابنه المظفر إلى طلبه سنة 392هـ/1002م. فابحر من طنجة حينئذ مرفوقا بابني أخيه حباسة وحبوس وبجماعة من صنهاجة، وكونوا إمارة بألبيرة وغرناطة.

ظل نصير الدولة على وفاق مع عمه حماد بل كان هذا ساعده الأيمن إلى أن تحركت قبائل زناتة في سنة 395هـ في نواحي المسيلة وأشير، فسير لهم باديس عمه حماد فنازل زناتة وهزمها، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة،[1] ثم نزل بأبي طويل وهي قاعة بأحواز قلعة حماد ومنفذها على الساحل، وهناك اختط مدينة القلعة بجبل كيانة بكتامة

(1) ابن الخطيب اللمحة البدرية ص 30.

سنة 398هـ/1007م،[1] واخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس. فأحس هذا بما يتأهب، فأراد اختبار طاعته، فكتب اليه طالبا ان ينـــزل عن عمل تيجس وقسنطينة وقصر الافريقي لفائدة ولده وولي عهده المنصور. فأبى حماد واظهر الخلاف.[2] فسير له باديس، لتسليم تلك المدن،هاشم بن جعفر وهو من اكبر قواده مرفوقا بإبراهيم بن يوسف أخي حماد في شوال 395هـــ. فلما قاربا حمادا فارق إبراهيم هاشما، ولم يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيه حماد. فاجتمعت كلمتهما. فخلعا الطاعة وأظهرا العصيان وجمعا الجموع الكثيرة. فكانوا ثلاثين ألف مقاتل.[3] فلم يكتف حماد بذلك. فأعلن نبذه لطاعة الفاطميين، ودعا للخليفة العباسي في سنة 405هـــ.[4] عندئذ عزم باديس محاربة عميه. وقبل أن يفعل أخرج هدية إلى جليلة الحاكم وشيعها بالطبول والبنود عن المنصورية. فوصلت إلى المهدية. وركب البحر بها يعلي بن فرج ، وكان فيها مائة فرس لها سروج محلاة شدت في 18 حملا أقفاصا، وفيها 18 حملا من الخز والسمور والمتاع السوسي المذهب النفيس وعشرون وصيفة وعشرة من الصقالبة وغير ذلك. ووجهت السيدة أم ملال، أخت نصير الدولة، السيدة أخت الحاطم هدية أيضا. ولما وصلت تلك الهدايا إلى جهة برقة أخذها العرب: وهرب يعلى بن فرج وأسلمها بجميع ما فيها.

---

(1) ابن الخطيب اعمال الأعلام القسم الثالث ص:70

(2) ابن خادون جـــ ص:323، وابن عذارى: البيان جـــ 1 ص: 371

(3) ابن الأثير: الكامل جـــ 9 ص254

(4) ابن عذارى: البيان جـــ 1 ص:379

لم يرجع باديس من تشيع تلك الهدايا حتى خرج في أواخر ذي الحجة ونزل برقادة ووضع العطاء لعساكره فيخلصون بذلك ويثبتون أمام العدو، وأخرج عياله وأثقاله وأخته السيدة أم ملال وأولاده وعبيده إلى المهدية. فعند ذاك رحل بعسكره متجها إلى قلعة حماد في المحرم 406 هـــ. وفي غضون ذلك رحل حماد وأخوه إبراهيم هاشم بن جعفر، قائد باديس وهو بقلعة شقنبارية في عسكره. فكانت بين الفريقين حرب انهزم فيها ابن جعفر ولجأ إلى باجة. وغنم حماد ماله وعدده.

فرحل باديس إلى مكان يسمى قصر الشهيد. فأتاه جمع غفير من عسكر عمه حماد. فكتب حماد وإبراهيم إلى باديس أنهما ما فرقا الجماعة ولا خرجا عن الطاعة. ولكن كيف يثق بهما لما يقومان به من سفك الدماء وقتل الأطفال وإحراق الزروع والمساكن وسبي النساء. فقد وصل حماد إلى باجة. فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم، فاطمأنوا إلى عهده. فدخل المدينة فإذا به يقتل وينهب ويحرق ويأخذ الأموال.

ومازال نصير الدولة اذ ذاك يتابع سيره إلى أن وصل إلى تادميت، فبلغه هناك خبر وفاة ابنه المنصور عزيز الدولة. فأقام بتلك القرية حتى سادس صفر. ثم استأنف سيره إلى المحمدية. فتلقاه أهلها داعين شاكرين على ما منحهم من العدل والأمان وكشف عنهم من الجور والعداوة. فأقام بها ستة أيام ثم رحل.

فقصد حماد مدينة أشير وهي له وفيها نائبه خلف الحميري. فمال هذا إلى باديس ومنع حمادا من الدخول إليها وهو في حاجة ماسة إلى الاستقرار بها في ذلك الوقت الحرج لحصانتها وقوتها.

سيّر باديس جيشا تحت قيادة أخيه كرامت إلى القلعة. فخربوها الا أنهم لم يأخذوا مال أحد. فهرب جماعة غير قليلة من جند القلعة مثل بني واليل أصحاب مقرة من زناتة وبني حسن كبار صنهاجة وبني يطوفت وبني غمرة من زناتة. فوصل باديس أحد أمراء هؤلاء وعقد له على طبنة وأعطى أصحابه الدواب .

ففرّ حماد ولحق بشلف بني وليل ولاذ في أتباعه حتى نزل مواطن السرسو من بلاد زناتة. أما أخوه إبراهيم فبقي بالقلعة متحصنا في بعض قصورها.

فأخذ أبناء النازعين عن حماد وذبحهم على صدور أمهاتهم. فقيل أنه ذبح بيده ستين طفلا. فلما فرغ منهم قتل الأمهات[1].

وصل باديس إلى وادي الشلف، فعبره. ثم عسكر قرب حماد وحشوده. هناك دخل في طاعته بنو توجين اذ كانوا ساخطين على حماد لقتله أميرهم داقلتين[2].

فاستظهر بهم على حماد. قضى تلك الليلة على تحفظ واحتراس[3]، وفي الغد برز في عساكره ورتبها وأقام كل قائد من قواده في مركزه. وما هي حتى التقى الجمعان واقتتلا. فقال الشاعر أبو إسحاق الرقيق في هذه الواقعة:

---

(1) الكامل جـ 9 ص: 254
(2) العبر جـ 6 ص: 351
(3) البيان جـ 1 ص: 379

لم أنس يوما بشلف راع منـــــظره | وقد تضـــايق فيه ملتقى الحدق
والخيل تعبر بالهامات خائضـــــة | من سافح الدم مجرى قانئ الفلـــق
والبيض في ظلمات النقع بارقـــة | مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق
وقد بدا معلما باديس مشتهـــرا | كالشمس في الجو لا يخفى عن الحدق
وإن راحته لو فاض نائلهـــا | وبأسها في الورى أشفوا على الغرق
تجلو عمامته الحمـــراء غـــرّته | كأنه قمر في حـــمرة الشفـــق
لوصور الموت شخصا ثم قـــيل لـــه | أبو مناد تبدى ، مات من فـــرق

فانهزم حماد وانتهب عسكره وغنمت أثقاله وأمواله، وفي جملة ما غنم عشرة آلاف درقة[1] مختارة لمط[2]. ولولا انشغال العساكر بالنهب لأخذ حماد أسيرا فسار هذا لا يلوي على شيء حتى وصل إلى قلعة مغيلة، ومن ثم إلى قلعته، وذلك تاسع جمادى الأولى سنة 406 هـــ / 23 أكتوبر 1015م. فتحصن بها مع أخيه. فأقاما بها ثلاثة أيام استراحا أثناءها، هما ومن معهما. ومن يدري أن يتبعهم باديس ويحاصرهم حصارا طويلا فينفذ أثناءه زادهم من طعام وملح؟ فهذا ما توقعه إبراهيم، فأشار أخيه حماد أن يخرجوا للتزود بأكثر ما يمكن منهما.

فساروا إلى مدينة دكّمة. فتجنوا على أهلها. فوضعوا السيف فيهم، فقتلوا ثلاثمائة رجل. فخرج إلى حماد فقيه منها وقال له: "يا حماد! إذا لقيت الجيوش انهزمت، وإذا قاومتك الجموع فررت، وإنما قدرتك وسلطانك على أسير لا قدرة له عليك"

(1) البيان جـــ 1 ص: 379
(2) الكامل جـــ 9 ص: 255

فلم يسمع حماد كلامه فقتله، وحمل جميع ما في المدينة من طعام وملح وذخيرة إلى القلعة. وأما نصير الدولة فأخرج، يوم هزيمة حماد، بكار بن جلالة الوتلكاني، وكان قد أخذ أسيرا. وكان بكار كثيرا ما ينطلق به لسانه. وكان يوسف بن أبي حبوس الزيري معتقلا أيضا عنده، فقد عزله سنة 403 هـ عن أمر الجيوش، ثم أمر بالقبض عليه بعدما قربه ورفع من قدره. فأخرج نصير الدولة بكارا ويوسف وأمر بحلق لحيتهما. وبعد ثلاثة أيام جيء اليه بيوسف، فأمر به فجدع أنفه وقطعت أذناه[1] ثم رفع من بين يديه. ولكن نصير الدولة لم يقنع بذلك، فأمر بإحضاره.

فقطعت يداه. فردّ بعد ذلك إلى موضع اعتقاله. فبات مشحطا في دمائه[2].

فسمعه بعض الحرس يرغب أخاه أن يذبحه فيريحه خيفة أن يخرج من الغد ويزاد في عذابه أمام أعدائه. فصبره أخوه، ولكنه وقف، فضرب ضربة عظيمة بجبهته في عمود، فذرت منها عيناه وجرى دماغه وخر إلى الأرض ميتا[3]. فكان في نية يوسف بن حبوس أن يفتك بنصير الدولة فإذا بنصير الدولة يفتك به.

فبعد الفتك بيوسف، رحل باديس ثاني عيد الأضحى، من وادي شلف يريد حمادا. فحاصر القلعة فعلا كما توقعه ابراهيم أخو حماد مدة ستة أشهر حتى أصبح على قاب قوسين أو أدنى من افتتاحها

(1) البيان ج 1 ص:383
(2) البيان جـ 1 ص: 382
(3) البيان جـ 1 ص: 383

وضم جميع المغرب الأوسط إلى إمارته. لما كان يوم الثلاثاء منسلخ ذي القعدة سنة 406 هـــ أمر باديس بعرض العساكر. فرأى ما سره وأرضاه، وركب آخر النهار ، فلعبوا بين يديه ولعب هو الآخر. فكلما هز رمحا كسره، ثم نزل ودخل قبته[1] فرحا مرحا، فتناول طعام العشاء مع خاصته وقرابته. ففارق هؤلاء بعد ذلك وذهب مضجعه. فلما كان نصف الليل قضى نحبه بعقرب قتالة تعلقت بثيابه[2].

وصل خبر وفاة باديس إلى حماد، فتنفس الصعداء وفارقه همه وتسرب قلبه الأمل.

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد[3]

فوفاة باديس كانت خلاصا لحماد وفرصة له للاحتفاظ بولايته التي قاسى الجهود الجبارة في سبيلها. هنالك ثلاث مشاكل كانت تتجاذب بال باديس: الوجود الزناتي الخطير في جنوب افريقية وسعي حماد في استقلاله عنه بالمغرب الأوسط والصراع العقائدي الحاد بين السنة والشيعة.

فقد قويت شوكة زناتة في إقليم طرابلس. فالخليفة العلوي يساعدهم بالمال والعدد والرجال ويحرضهم على مناوءه الدولة الزيرية لإضعافها حتى لا تطمع في الاستقلال عنه، فيحاربهم باديس، ولكن لا يأتي على ثورتهم جذريا إذ لا يسير إليهم جيشه بأكمله، فالجبهة الغربية هي الأخرى تحتاج إلى جيش يحميهـــا ويذب عنها. ألا يرى

---

(1) قبة السلام: النويري

(2) ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص: 72.

(3) المتنبي: لديوان ص :320

حمادا يعمل لانفصاله عنه وعن الدولة العلوية وعقائدها؟ ويأبى باديس إلاّ أن يكون المغرب الأوسط جزءا لا يتجزأ من رقعته حتى ترد جميع الجبايات والأتاوات على خزينته.فأعلن عليه الحرب وهزمه، وذلك لأن حمادا خانه أصحابه من صنهاجة وزناتة، فقد اشترى باديس ضمائرهم بالمال فانضووا إليه ونزعوا عن حماد لتقتيره عليهم في العطاء مع أن حمادا معذور في ذلك التقتير،فإن إمكانياته المالية قليلة لا تسمح له بأن يستتبع الناس بالصلات والهدايا مثل خصمه الذي تزخر خزينته بالأموال الواردة عليها من كل جهة.فقد ساعد حمادا ابن أخيه مساعدة فعالة على زناتة ولولاه لزال المغرب الأوسط من يده. وما دام حماد بالمغرب متاخما ملوكهم وأحياءهم البادية يكون باديس في مأمن من هجوماتهم. فكان الأولى بباديس ان يقتدي بالعبيديين الذين جعلوا الدولة الزيرية فاصلة بينهم وبين بربر المغرب فيترك عمه حمادا بالمغرب الأوسط فيكون سدّا بينه وبين زناتة الذين لا يدينون له بالطاعة ماداموا يدينون بالولاء الأموية. ولكن باديس من ناحية سمح بطانته ومن إليه من الأعجام والقرابة الذين نفسوا على حماد رتبته وسعوا في مكانه منه[1]، ومن ناحية أخرى كان يريد أن تبقى علاقاته مع الخليفة العلوي طيبة فلا يسوغ لعمه حماد ان ينبذ طاعة العبيديين ويراجع دعوة آل العباس ويظهر السنيّة.

ومما يؤكد لنا وجود صراع بين السنة والشيعة هو الأمر بنقل تجار القيروان إلى المنصورية[2]. فليس من شك في أن باديس كان يتوقع حدوث اضطرابات مذهبية في القيروان لا تحمد عقباها بالنسبـــة لأهل

(1) ابن خلدون: العبرج6 ص:350

(2) البيان ج1ص376

الشيعة، فيغضب لها الخليفة بالقاهرة. ورغم الاحتياطات التي كان يأخذها باديس حتى لا ينفجر المرجل فإن حمادا قد أجج نار هذا الصراع بدسه إلى أهل تونس وباجة الثورة على المشارقة والرافضة[1]. وهذه الثورة ستزيد انتشارا في عهد المعز بن باديس حتى يذهب أثر الشيعة كليا وتستقل البلاد عن الدولة الفاطمية.فبقيت إذن مشاكل باديس الثلاثة بدون حل، فلم يستأصل حمادا في المغرب الأوسط ولا فلفولا وورو بجنوب إفريقية والصراع العقائدي قد زاد حدة وذلك لأن الموت قد عاجله فخانه عن تسويتها.لكن سيأتي عهد ولده المعز ويجد حلها.

كان باديس شجاعا حازما مداهنا، وكان عفوا جوادا وحقودا قاسيا معا. فقد عصى أبناء زيري وخالفوا عليه، وحين عاد إليه أبو البهار واعتذر له مما فعل إخوته قبل العذر، وعامل ابن حبوس تلك المعاملة الشنعاء التي حدثناك عنها.

المعز بن باديس

توفي باديس في النصف من ليلة الأربعاء انقضاء ذي الحجة سنة406هـ. فخرج الخادم حالا إلى حبيب بن أبي سعيد وباديس بن أبي حمامة وأيوب بن يطوفت وهم أكبر قواده، فأعلمهم بوفاته.

صدمة لم تكن في الحسبان! فمن يسوسهم بعده يا ترى؟ فإن الأمر من الخطورة بمكان. فالعدو قريب منهم متربص لهم يترقب حركاتهم ويستنشق أخبار معنوياتهم، فلا بد من حزم وعزم وسرعة

(1) ابن خلدون: العبر ج6 ص:351

في تقديم من يدبر أمورهم ويجمع كلمتهم ويوجه خطاهم. وكانوا يعلمون ميل صنهاجة إلى المعز بن باديس وغيرهم إلى كرامت بن المنصور أخي باديس؟ فلئلا يحدث انشقاق يؤدي بالقوم إلى فتنة ينتهزها العدو للنيل من شوكتهم أجمعوا على أن يعينوا كرامت ظاهرا، فإذا وصلوا افريقية ولّوا المعز بن باديس. فأحضروا كرامت وبايعوه وولوه في الحال، وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر خبر ذلك، ولكن لم يلبث أن شاع الخبر. فاضطربت الناس لموت الأمير وأظهروا ولاية كرامت. أما عبيد باديس ومن معهم فأنكروه.[1] فخلا حبيب بأكابرهم وعرفهم الحال.

مضى كرامت إلى مدينة أشير ليجمع صنهاجة وتلكاته وغيرهم، فأعطاهم من الخزائن مائة ألف دينار. فانضووا إليه.

وفي يوم السبت بموافقة عيد الأضحى سنة 406هـ/ 30 ماي 1016م، رحلت العساكر من المحمدية إلى افريقية على تعبئة الزحف مقدمة وساقه وقلبا يتقدمها التابوت وأمامه البنود والطبول والجنائب والقباب.[2] فأشرف حماد بن بلكين على العساكر وهي تمر كالسيل بين يدي التابوت، فقال لأخيه وخاصته: "مثل هؤلاء يخدم الملوك. وصلت، أنا، افريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا من أحسنت إليه وأنعمت عليه، فعدت إلى القلعة وما بقي منهم الا أقل من ستمائة، وأنا بين أظهرهم أرجى وهذا ميت أطاعوه كما كان حيا".

---

(1) الكامل جـ 9 ص: 257 والبيان جـ 1 ص 385.
(2) النويري عن هادي روجي ادريس: المغرب الأدنى في ظل بني زيري، الجزء الأول ص: 130...

وصل الموكب إلى المنصورية رابع عشر سنة 407هـ/13 جوان 1016م، والي المهدية، والمعز بها، ثامن المحرم.

فركب المعز ووقف حبيب يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرفه بقوادهم وأكابرهم، رحل الأمير إثر ذلك من المهدية فوصل المنصورية منتصف المحرم.

فكان حديث السن لا يتجاوز عمره ثماني سنين وستة أشهر وأياما.لما وصله خبر موت أبيه جلس للعزاء، ثم ركب في الموكب وبايعه الناس. وأخذ يركب كل يوم ويطعم الناس بين يديه ترحما على أبيه.

اتفق آل باديس وأكابر الدولة على استنابة كرامت بن المنصور على أن تكون البيعة العامة في المهدية. إلا أن المعز قد إتكأ دائما على عمته أمّ ملال في تدبير شؤون الدولة قبل أن تتم تلك البيعة. فهي التي اعتنت بتربيته منذ نعومة أظفاره، تقضي معه أيام الشتاء بالمنصورية وأيام الصيف بالمهدية. وهي التي اختارت له ابن ابي الرجال مؤدبا ومهذبا. ومنذ موت أبيه كانت له وصية خبيرة وفية أمينة.فهي جديرة بالتقدير والتبجيل والإكرام. وقد اعترف لها بالجميل. اعتلت سنة 414هـ وكان ابن أخيها يعودها ويتفقدها في كل يوم.فلما كانت ليلة الخميس منسلخ رجب توفيت وصلّي على جنازتها بالبنود والطبول والعماريات، والسيدتان الوالدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة التي لم ير لملك ولا لسوقه مثلها.[1]

تمت البيعة العامة في 12 ذي الحجة سنة 407هـ. فأخذ المعز زمام أمر دولته. أما كرامت فلم يغادر مدينة أشير حتى قصده حماد في

(1) البيان جـ 1 ص: 392 ـ 393.

ألف وخمسمائة فارس. فلقيه كرامت في سبعة آلاف مقاتل. فالتحموا واقتتلوا قتالا شديدا. فرجع بعض أصحاب كرامت بيت المال فانتهبوه وهربوا. فتمت الهزيمة عليه وعلى رجاله وولى مدينة أشير. فاشار عليه قاضيها وأعيان أهلها بالمقام بها ومنع حماد عنها. ففعل. فنازلهم حماد وطلب كرامت ليجتمع به. فخرج إليه. فأعطاه مالا وأذن له في المسير إلى المعز. ثم دخل المدينة وانتقم من أهلها حيث أشاروا إلى كرامت بحفظها ومنعه منها. فقتل منهم كثيرا. غادر كرامت المنطقة وقصد المعز فأكرمه وأحسن إليه وأجلسه يستعين به على تدبير شؤون دولته.

انتقل الفاطميون إلى القاهرة وتركوا على رأس ولاية إفريقية والمغرب الزيريين، ولكنهم كانوا حذيرين منهم. فقد تركوا بإفريقية طائفة يقال لهم المشارقة نسبة إلي عبد الله الشيعي، وكان من المشرق، وهي طائفة تدين بالولاء للخليفة الفاطمي، وكان هذا حريصا على أن يكون له في إفريقية والمغرب أتباع يميلون إليه ويعملون لانتشار المذهب الشيعي ويقومون بأدوار شأنها أن تثير القلق والاضطراب حتى أصبحت الثورات في إفريقية والمغرب كثيرة ناشئة في صفوف القبائل مثل كتامة وزناتة جنوب إفريقية وبين الإخوان وبين بني العمومة. خالف بنو زيري وبنو حمامة على باديس واقتتل بنو زيري وحماد واقتتل حماد وباديس. ولكل من هؤلاء أعوان وأنصار. فالمشارقة، الذين طالما سعوا فسادا عقائديا وسياسيا والّذين كان الخليفة العبيدي لهذا الغرض يمدهم بالرجال والمال ويوصي الزيريين بهم خيرا فلا يتعرضون لهم بأذى، قد دقت ساعة تطهير البلاد منهم. ركب المعز في المحرم سنة 407هـــ ومشى في القيروان، والناس يسلمون عليه ويدعـــون له،

فاجتاز جماعة، فسأل عنهم،فقيل له: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال "رضي الله عن أبي بكر وعمر". فشجعهم قوله هذا وانصرفوا من فورهم درب المعلى حيث يجتمع الشيعة، وثاروا بهم وشرعوا في قتلهم. وأغراهم على تبديد شملهم عامل القيروان الذي كان المعز يريد عزله. فأراد بدوره أن ينتقم منه بالإكثار من القتلى حتى يفسد ذات ما بينه وبين الخليفة بالقاهرة. فقتل فعلا من الشيعة خلق كثير وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم. واجتمع منهم قصر محمد بن عبد الله و قصر المنصور، فتحصنوا بهما. فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأخذوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى أتوا عليهم.

ولجأ من كان بالمهدية إلى الجامع، فلم يسلموا من السيف. فأشفى الشعب غليله الكامن في صدره منذ الأمد البعيد لما رأوا أن المعز راض وهو في الواقع راض وفي الظاهر متأسف مجاملة للخليفة العبيدي الذي لم يكن يخفى عليه ما يجري في إفريقية والذي آنس من نفسه العجز عن التدخل بالقوة المسلحة فيما حدث لأصحابه بالأرض الزيرية. فراح يصانع المعز ويجامله، فسير له الخلع ولقبه بشرف الدولة دون أن يذكر له قتل المشارقة ولا إحراقهم، وذلك في آخر ذي الحجة سنة 407هـ.

استغل حماد فرصة موت باديس.فدخل المسيلة وأضافها إلى أشير والقلعة وليزيد ولايته اتساعا راح يحاصر باغاية، وكانت المنطقة تابعة للمعز. فبلغه خبر ذلك التعدي، فزحف إليه لثمان بقين من صفر سنة 408هـ. فاضطر حماد إلى رفع الحصار عن باغاية، واشتبك مع جيش المعز آخر ربيع الأول في معركة عنيفة، وما هي إلا ساعة حتى أسفرت عن هزيمة حماد وفراره إلى القلعة. فكان أصحاب المعز أكثر عددا من رجال

حماد، فوضعوا فيهم السيف وغنموا كل ماهم من عدد ومال. فكان المعز يقول والحرب تدور رحاها والرؤوس تطير من كل جهة "من أتى برأس فله أربعة دنانير" فأتى بشيء كثير.وأسر إبراهيم ولو لم يلذ حماد بالفرار لقبض عليه هو الآخر.

أخفق حماد وتفرق عنه رجاله، فآثر الصلح من خصمه، فبه تستقيم حالته ويسترجع كيانه. فبعث له رسولا يعتذر ويقر بالخطإ ويسأل العفو. وهل هناك شيء أكثر ذلا من طلب العفو من العدو؟ ولعل موقفه هذا سيكون له درسا في أيامه المقبلة فلا يعارك من هو أقوى منه. فالمعز لم يحقد عليه، فأجابه قائلا: "إن كنت على ما قلته فأرسل ولدك القائد إلينا". وما هي إلا أيام قلائل حتى ورد كتاب إلى المعز يقول فيه "إذا وصلني كتاب أخي إبراهيم بالعلامات التي بيننا أنه قد أخذ لي عهدك بعثت ولدي القائد أو أحضر بنفسي". فحضر إبراهيم وأخذ العهود على المعز وكتب لأخيه يخبره بذلك ويشكر المعز على إحسانه إليه. وفعلا، ان المعز عندما وصل إلى قصره آخر جمادى الأولى أطلق عمه إبراهيم وخلع عليه وأعطاه الأموال والدواب. فبمثل هذا يستميل الملوك قلوب الرعية ولا سيما المعارضين والساخطين منهم، لا بالشدة والعنف والمثلة كما كان يفعل أحيانا حماد. فلم يتردد حينئذ هذا فأرسل ولده القائد إلى المعز مصحوبا بهدية، وكان وصوله للنصف من شعبان.فأكرمه ومنحه أشياء كثيرة وأقطعه المسيلة وطبنة ومقرة ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة، وأقطع أباه الزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب.

انقسام دولة صنهاجة
دولتين زيرية وحمادية

عاد القائد إلى القلعة في شهر رمضان. فرضي حماد الصلح وحلف عليه، وبمقتضاه يستقل حماد فعليا هذه المرة وذلك سنة 408هـ/1017م. فوضعت الحرب أوزارها وانقسمت دولة صنهاجة إلى دولتين دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة[1] ثم بجاية[2]بعد ذلك.و لم تستقر الأمور بين العاهلين فحسب بل تصاهرا أيضا،فزوج المعز أخته أم العلو بعبد الله بن حماد.فازدادا اتفاقا وأمنا[3].

والقبائل البربرية هي الأخرى انتهزت فرصة وفاة باديس وحداثة المعز للقيام بالفتن وسفك الدماء قد تعطلت من جرائها السابلة ومن ثم الحركة التجارية، وانكمش أيضا سكان الأرياف فضعفت الفلاحة فقلت مواد الغذاء وارتفعت أسعارها وسلط على البلاد الجراد فزاد الطين بلة.

فالموقف جد حرج، ووصل صداه إلى المدن وإلى الخزينة السلطانية نفسها فضعفت مواردها. فالملك لم يبق مكتوف الأيدي، فشمر على ساعديه لحسم هذا الداء الذي إن استفحل، قضى على كيان الدولة.

---

(1) ابن خلدون العبر جـ 6 ص:324

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم 3 ص: 76 تحقيق د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني

(3) ابن الأثير: الكامل جـ 9 ص: 259 .

فأرسل الجيوش إلى القبائل. فبمجرد ما رأت العساكر رجعت إلى الهدوء وإلى ترك الحرب والتعدي على الناس.

فساد الوئام بين القبائل وعاد الأمن والاستقرار، فاستأنف الناس أعمالهم ونشاطهم، فولى الرخاء والاطمئنان وذلك سنة 409هـــ.

قد سبق أن قلنا إن زاوي بن زيري هاجر إلى الأندلس. فعزم على العودة إلى بلاده، فولى ابن أخيه حبوس بن ماكسن على مملكته بغرناطة وعبر البحر. فوصل إلى القيروان سنة 410هـــ 26 أبريل 1020 م، في أهله وولده وحشمه، وقد أقام في تلك الربوع منذ عقد له حماد على الجواز إليها، أي مدة اثنتين وعشرين سنة، ووصل معه من الأموال والعدد والجواهر الشيء الكثير ورأس المرواني سليمان بن الحكم بن عبد الرحمان الثالث الذي أعطاه إياه علي بن حمود سنة 406هـــ/1016م، يثأر به رأس أبيه زيري بن مناد الذي ذهب به يحيى بن حمدون في وفد من زناتة إلى عبد الرحمان الناصر بقرطبة. فأكرمهم المعز وحمل لهم شيئا عظيما وإقامات زائدة، وأقاموا عنده.[1]

تولى حماد أمر المغرب الأوسط، فلم تعد مشاكله تتجاذب بال المعز، فأمكنه أن يتفرغ لضبط أمور رقعته، فعظم شأنه وقويت شوكته، فهابته القبائل التي كانت بالأمس القريب تتطاول. إن الشقاق الذي عرفه عهد باديس قد زال في هذه الفترة، فاجتمع حول ابنه المعز أفراد الأسرة المالكة، واطمأنت له العمومة، وهفت إليه القبائل البربرية، وذلك يرجع إلى سياسته الحكيمة، سياسة اللين والتسامح في غير ضعف.فكان لا يسعى إلا فيما يضمن الوئام بين أفراد رعيته وفيما يرجع

(1) ابن الأثير الكامل جـــ 9 ص: 355.

عليها بالخير والرفاه. فلماذا تلك الخلافات التي لا تجر إلا الويل؟ فالشعب ركن إلى السلم و انصرف إلى الأمن وحرص كل الحرص على أن تدوم هذه الأيام التي لم يعرف مثلها من قبل. فقد خبت نار الثورات الدامية المتوالية التي كان الشعب يعيشها والتي كان يقيمها المروانيون من جهة والفاطميون من جهة أخرى في المهدية أولا ومن القاهرة من بعد بواسطة أتباعهم الذين تركوهم عيونا على الزيريين ومغربيين بإثارة الاضطرابات التي تضعف من جرائها الدولة الزيرية وتتأثر الحياة السياسية والاجتماعية و الاقتصادية.

لم يعد الشعب غافلا. فقد فهم أن سياسة الفاطميين ترمي التفرقة بين الملك والشعب وبين القبائل نفسها. ألم يوص الخليفة، المعز لدين الله، أبا الفتوح عندما عزم على مغادرة افريقية بأن لا يرفع الجبايا عن البلاد ولا السيف عن البربر وأن لا يولي أحدا من أهل بيته؟

فالمعز مال عن هذه السياسة المغرضة. فمال إليه الشعب وأطرح الخلاف جانبا ، فصلح الأمر واستقامت الأحوال بين الناس. فليس من الغريب أن نرى البربر في غالبيتهم يميلون عن المذهب الشيعي ويقفون منه موقف العداء حين انكشف لهم سبب إثارة الشقاق. فبعثت زناتة طرابلس وكتامة إلى المعز رسلا يطلبون منه الصلح وأن يقبل منهم الطاعة والدخول تحت حكمه، وشرطوا على أنفسهم أنهم يحفظون الطريق، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم. فأجابهم إلى ما سألوا، وجاءت مشيخة زناتة وكتامة اليه. فقبلهم وأنزلهم ووصلهم وبذل لهم أموالا جليلة[1]، وذلك سنة 417 هـ.

(1) الكامل ج9 ص 355

إن العبيديين أنفسهم أخذوا يغالون في مجاملة المعز بن باديس. ففي سنة 411 هـ ورد عليه أبو القاسم بن اليزيد رسولا من الخليفة الحاكم بسيف مكلل بنفيس الجوهر وخلعة من لباسه لم ير مثلها وبسجل قرئ عليه فيه من التشريف ما لم يصل لأحد من قبله[1].

وفي نفس السنة ورد أيضا محمد بن عبد العزيز بن كدية بسجل آخر من الحاكم جوابا للمعز عما كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الأموية منها وقيام القاسم بن محمود فيها. فشكره على ذلك وبعث إليه خمسة عشر علما وصلت إليه يوم الأحد لليلتين بقيتا من ربيع الآخر[2].

وفي سنة 414 هـ وصل محمد بن عبد العزيز ثانية من قبل الظاهر أمير مصر، بتشريف عظيم لشرف الدولة. فقرئت سجلات لم يصل قبلها مثلها أجلّ ولا أعلى مقالا، وزاد لقبا لقبه، فسماه شرف الدولة وعضدها وبعث له مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جليلة وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة ما دخل افريقية مثلها قط، وعشرين بندا مذهبة ومفضضة، وقرئت السجلات لا بين يديه فحسب بل بجامع القيروان أيضا، وأمر ببعث نسخ الأعمال، فكان لها من السرور ما لا يوصف[3].

وفي آخر هذه السنة وصل سجل آخر بزيادة لقب آخر تشريفا لشرف الدولة وعضدها.فأمر بأن يكاتب: من الأمير شرف الدولة وعضدها ويخاطب بمثل ذلك[4].

---

(1) ابن عذارى : البيان جـ 1 ص: 389
(2) نفس المرجع ص:38 .
(3) نفس المرجع ص :392.
(4) نفس المرجع ص:392

طار صيت المعز في الآفاق.فرغب الملوك في ربط خيوط الصداقة معه.ففي سنة 423هـ وصلت إليه من ملك السودان هدية فيها رقيق وزرافات وأنواع من الحيوان غريبة[1]. وفي سنة 425 وصله من ملك الروم هدية لم ير مثلها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر[2].

تأسيس القلعة واستقلال حماد

بينما كان المعز بن باديس يسعى فيما يضمن لملكه ذلك الأمن والخصب كان حماد يعمل هو الآخر لتوطيد أركان دولته الفتية وإعلاء شأنها.استقل سنة 387هـ في عهد باديس بن المنصور واتخذ أشير عاصمة. ولكن، تبادر إلى فكره أن يؤسس عاصمة جديدة تباهي القيروان والمهدية. فاختار لها موقعا استراتيجيا هاما بجبل كيانه بكتامة وعلى مقربة من ميناء بجاية ومن المسيلة التي كانت على ملتقى طرق القوافل الآتية من بلاد السود والذاهبة إلى القيروان من جهة وإلى الجزائر ووهران وتيهرت من جهة أخرى.فاختطها سنة 387هـ، ونقل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل حمزة وكذلك أهل جراوة من المغرب، وأمرهم جميعا بالبناء والتشييد. فلم يأت رأس السنة الرابعة حتى كانت الشوارع مكتظة والمساجد زاخرة والفنادق عامرة: رحل إليها من الثغور والقاصية والبلاد البعيدة أرباب الصناعة والتجارة وأهل العلم والطلبة. وظل حماد يفتح الحصون والقرى ويضمها إلى ولايته.

(1) نفس الصدر ص:396

(2) ابن عذارى:البيان ج — ص:396

فافتتح تيجس وقسنطينة،كما سبق أن قلنا، ومن أجلهما خالف باديس وحاربه في سنة 406هـــ، وحارب من بعده ابنه المعز. الا أنه تم الصلح بينه وبين هذا الأخير على أن يستقل استقلالا فعليا بالمغرب الأوسط.

فكان له ذلك، ولم ينازعه فيه الا المتمردون من زناتة الذين لم يلبثوا أن دخلوا تحت حكمه لما رأوا من سعيه في نشر الأمن والعدل والرخاء. فقد نبذ الطاعة للفاطميين. ويذكر ابن خلدون وابن الأثير وغيرهما أن حمادا دعا إلى الخليفة العباسي وقتل الرافضة وترحم على أبي بكر وعمر، وأعلن بإلغاء مذهب الشيعة، وفرض على الرعية مذهب السنة. فرضي عنه جميع الفقهاء ورجال الدين الذين كانوا يمقتون الفاطميين وعقائدهم والذين نشطوا نشاطا عم صداه طبقات الشعب في المدن والبداوي.

وقد اشتهر حماد بتقريب العلماء والأدباء، فمن البديهي أن يتقاطر عليه أهل العلم، وهو بنفسه عالم وأحد قدماء طلبة القيروان.

وكان مقر حماد تارة بآشير وأخرى بالقلعة ويغلب عليه المكث بالقلعة لأنها صنيعة يده ونتيجة جهوده، وتحتل مكانا استراتيجيا إداريا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا. فإنها تتوسط الولاية وبذلك يسهل عليه أن يكون على بصيرة مما يقوم به عماله في قسنطينة وبونة (عنابة) وجيجل والجزائر وسوق حمزة والمسيلة وأشير ومرسى الدجاج ونقاوس وبسكرة.

فقد حلاه ابن الخطيب في القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام بقوله: "كان حماد نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه ملكا

كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا. قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل. وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إلى حماد بالحضرة الباقية الأثر على توالي الغير، وتسمى غياتا، فاتخذ بها القصور المالية والقصاب المنيعة والمساجد الجامعة والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد ..." [1].

وجاء في كتاب الاستبصار[2] أن حماد بن مناد صاحب القلعة التي تنسب إليه كان صاحب دهاء وفطنة وممارسة في الحروب، وكانت له فراسة حسنة وذكاء وله أخبار مشهورة محفوظة.

خرج حماد إلى تازملت متنــزها فمرض بها وتوفي سنة 419 هـ / 26 يوليو 1029م، وحمل إلى القلعة حيث دفن. وولي بعده ابنه القائد. وعظم على المعز موته لأن الأمر بينهما كان قد صلح واستقامت أمور المعز بوجود حماد بينه وبين زناتة التي كانت تشغل باله قبل استقلال عم أبيه.

القائد بن حماد

بعد موت حماد أجمع القوم على أن يخلفه ابنه القائد، فجلس على عرش أبيه سنة 419 هـ/1028م. وكان يشبهه في الحصافة وحسن الرأي والتدبير. لازم أباه فتدرب على تسيير شؤون الدولة. فلم يخالف عليه أهل بيته، بل كانوا يحترمونه ويقدرونه ويشدون أزره، فاتكأ عليهم لتكون سياسته متلاحمة نافذة. فاستعمل أخاه يوسف على مليانة

(1) ص:85
(2) ص: 55

وأخاه وغلان على سوق حمزة[1]. واحتفظ هو بالقلعة. فدانت إليه الرعية واستطاع هكذا أن يواجه في غير عناء ما قد طرأ عليه من الحوادث من وراء حدود ولايته.

في عهده اشتدت وطأة المسلمين على النصارى بسواحل البحر المتوسط وجزره. ضيقوا على جنوة وبيزة ومرسيلية، فتأثرت بذلك حركاتها التجارية. فلم يبق الإيطاليون والفرنسيون مكتوفي الأيدي أمام هذه التحديات، فاتحدوا ووحدو أساطيلهم ورموها على الأسطول الصنهاجي سنة 425 هـ/1034م، ومركزه حينئذ ببونة. فدمر النصارى المرفأ وتركوا المدينة خرابا. ولكن دولة القائد، رغم هذه الغارة، كانت تتمتع باستقرار لا بأس به ولا سيما من جانب زناتة. فيبدو أنهم كانوا راضين عن سياسته. إلا أن هناك حادثا جاء يعكر هذا الصفو، تدخل القائد بين بني يفرن ومغراوة. فتحرك حمامة بن زيري بن عطية المغراوي من فاس، قاعدة امارته بالمغرب الأقصى، زاحفا بحشود كثيرة سنة 430هـ/1038م على مملكة القائد، ولعله كان يرغب في استرجاع الأراضي التي كانت تابعة لأبيه بالمغرب الأوسط قبيل وفاته. فلقيه القائد بجيوشه، وكان داهية. فلماذا يقتتل معه وتسيل الدماء ومن الممكن تحاشيها؟ فجنح إلى الحيلة: سرب الأموال في زناتة. فأحس بذلك حمامة وتيقن أن لا مناص من الهزيمة. فصالح خصمه ودخل في طاعته، وعاد إلى قاعدة إمارته. فرجع القائد هو الآخر إلى قلعته مظفرا.

وهناك مواقف تعيد نفسها. استقامت لحماد الأمور وتوسعت رقعته وشيدت قلعته، فمال عن العبيديين ودعا للخلافة العباسية.

(1) ابن خلدون العبر جـ 6 ص: 352.

فارتاب باديس من سلوكه الذي هو سلوك ملك مستقل. فأبى إلا أن يبقى تحت طاعته تابعا له، فراح يحاربه. فنفس الحادث وقع بين ولديهما القائد والمعز. استتب الأمر للقائد، فرأى أن لا فائدة في الميل إلى الفاطميين ودعا لما دعا له أبوه سنة 432 هـ/1041م. فلم ير المعز بعين الرضا نجاح سياسة ابن عمه. فحرك إليه من افريقية وحاصره بالقلعة سنة 434هـ/1043م. ولحسن الحظ لم يقع قتال بينهما. فصالحه المعز وانصرف إلى أشير ، فحاصرها ثم خرج عنها وانكفأ راجعا.

إثر هذه المحنة راجع القائد بني عبيد[1]. فنال بذلك مودة البلاط الفاطمي ورضا الخليفة المستنصر عنه. فأكد القائد بذلك حريته واستقلال بلاده، وأصبحت منـزلته السياسية بالمغرب الأوسط لا تقل عن رتبة المعز بإفريقية. فتوطدت حينئذ أركان دولته لا يطمع فيها جيرانه شرقا ولا غربا.

أما المعز فبقي يخطب على المنابر للفاطميين حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم . فلم ير المعز بدا حينذاك من قطع دعوة الفاطميين. ففرح أهل القيروان ولا سيما عندما رأوا أنه لم يكتف بذلك، فقد أمر بلعنهم في الخطب وخلعهم. لما كان عيد الأضحى سنة 440هـ، أمر الخطيب أن يسب بني عبيد فقال:

"اللهم والعن الفسقة الكبار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان والمخالفين لأمرك والناقضين لعهدك المتبعين غير سبيلك والمبدلين لكتابك. اللهم والعنهم لعنا وبيلا واخزهم خزيا عريضا طويلا.... "قال ابن شرف: "أمر المعز بن باديس بأن يدعى على منابر

(1) ابن خلدون: العبر جـ 6 ص: 352 .

إفريقية للعباس بن عبد المطلب ويقطع دعوة الشيعة العبيديين. فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعباس بن عبد المطلب والبقية العشرة رضي الله عنهم، وأمر بإحراق بنودهم.فوردت على المعز الخلع والتقليد بافريقية وجميع ما يفتحه. "وفي أول الكتاب الذي جاء به الرسول: «من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وحمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمر المؤمنين بولاية جميع المغرب وما فتحه بسيف أمير المؤمنين، وأرسل إليه سيفا وفرسا وأعلاما عن طريق القسطنطينية. فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل الجامع والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية.فدخلت الأعلام. فقال: هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم وأستغفر الله لي ولكم..

وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت وأحرقت أعلامهم[1]. فلّما اتصل خبر ذلك بالمستنصر الفاطمي بعث إلى المعز يوبخه ويهدده. ولكن المعز كان على يقين من عجزه عن القيام بأية حركة نحو المغرب. فدولته أخذ الضعف يدب في مفاصلها. فشلت سياسته في المشرق واستقل عنه زناتة طرابلس. فأغلظ المعز في الجواب، ولم يكتف بلعنهم في الخطب ،ففي سنة 441هـ ضرب الدينار المسمى التجاري .قال ابن شرف "في هذه السنة[2] أمر المعزبن باديس بتبديل السكة في شهر شعبان و أمر بسك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عبيد.

(1) الكامل حـ 9 ص: 521- 522
(2) سنة 441هـ

فسبكت وكانت أموالا كثيرة."[1] فالنقود الجديدة التي ظهرت من سنة 441 سنة إلى 449 سنية وضربت بالمهدية والقيروان أخذت تتداولها الأيدي في شعبان 441هـ/29 ديسمبر1049م. ثم بث المعز في الناس قطع سكة الشيعة[2] وأزال أسماءهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله.

وقد قطع أسماء الرايات والبنود .وكانت بقيت مرسومة فيها 145 سنة من 296 441هـ. وفي سنة 443 كان لباس السواد بالقيروان. قال ابن شرف: "وفي جمادى الثانية أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين واخرج لهم ثيابا بيضاء من فندق الكتان وأمرهم أن يصبغوها سوداء... وجمع الخياطين فقطعوها أثوابا، ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطيي القيروان وجميع المؤذنين وكساهم ذلك السواد،ونزلوا بأجمعهم، وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان. ثم صعد الخطيب المنبر وخطب خطبة أثنى فيها على جميع الأمراء بأجزل لفظ وأحسن معنى، ثم دعا لجعفر عبد الله بأمر الله العباسي."[3]

واتفق ان الخليفة الفاطمي استوزر الحسن بن علي اليازوري و لم يكن من أهل الوزارة، وإنما كان من أهل التبانة والفلاحة، فلم يخاطبه المعز كما كان يخاطب من قبله الوزراء. فغضب لذلك وأغرى به المستنصر. فأرسل هذا العرب[4] القاطنين في الصعيد المصري الجهة الغربية

(1) البيان جـ 1 ص: 402
(2) البيان جـ 1 ص: 402
(3) البيان جـ1ص:405
(4) قبائل سليم وهلال ورباح وزعبة والأثبج ومعقل

وأعطاهم مالا وأمرهم بقصد بلد القيروان، وملكهم كل ما يفتحونه ووعدهم بالمدد والعدد. فدخلت العرب إلى افريقية. .وكتب اليازوري إلى المعز "أما بعد ،فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولا وحملنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا."

فقاتلهم المعز، ولكنهم هزموه واضطر إلى مغادرة القيروان وإلى اللجوء إلى المهدية في شعبان 449هـ. فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه، وكان أبوه ولاه تلك المدينة سنة 445هـ.

فهكذا كانت نتيجة موقف المعز العدائي من الشيعة.. وأما القائد، فأنعم عليه المستنصر بلقب شرف الدولة، وأصبح متأكدا من أن استقلاله لا ينازعه فيه المستنصر فهو بعيد يفصل بينهما الدولة الافريقية والدولة الزناتية بطرابلس، ولا ينازعه أيضا المعز بن باديس، فهو في شغل شاغل مع العرب. فانقلب على الفاطميين ونقض بيعتهم وعاد إلى مبايعة الخلافة العباسية. وبقى على ذلك إلى أن توفي في شهر رجب أوذي القعدة سنة464هـ والقائد شريف النفس. فقد اعتدى عليه المعز، فلم يحقد عليه. فبعث له ألف فارس والحرب تدور رحاها بينه وبين العرب بحيدران. إلا أن مشاركتهم في المعركة الطاحنة لم تغير خطورة الموقف. فالأقدار حكمت على المعز بالهزيمة فلا مرد لحكمها. كانت دولة القائد عند مفارقته الحياة قوية مستقلة رغم دعوته للخلافة العباسية. فما على من يأتي بعده من الملوك إلا أن يتبعوا سياسته حتى تطول حياة دولتهم ويعيش الشعب في ظلالها الوارفة في اطمئنان ورفاهية.

محسن بن القائد بن حماد

مرض القائد وأحس بدنو أجله، فولى محسنا وأوصاه بأن لا يخرج من القلعة ثلاث سنين وأن لا ينازع أعمامه في مناصبهم. و لم يلبث أن توفي وجلس ولده محسن على عرشه سنة 447هـ/1054م، وكان جبارا[1] ومكابرا، فضرب بوصية أبيه عرض الحائط وعمل بما أوصى به المعز لدين الله الفاطمي أبا الفتوح أن لا يولي أحدا من أهل بيته. وشتان مابين وصية المعز الفاطمي ووصية القائد. فإن الأولى يريد بها صاحبها التفرقة والشقاق بين الملك والعمومة ومن ثم الثورة والاضطراب، وأما الثانية فترمي إلى ائتلاف القلوب والتلاحم والتعاون على بسط الاطمئنان والاستقرار. فعزم محسن على خلع أعمامه من مناصبهم. فخرج عليه عمه يوسف صاحب مليانة وابتنى قلعة بجبل منيع سماها الطيارة وجمع حوله حشودا كثيرة. فاغتاظ محسن لسلوك يوسف، وساء الظن بأعمامه، فقتل منهم أربعة. بدأ بمديني ومناد وثنى بوغلان وتميم. لما اتصل خبر ذلك بيوسف جن جنونه وزحف من طيارته إلى أشير، فخربها واستباح أموالها فلا يمكنها أن تستعيد تمدنها وازدهارها إلا في سنة 445هـ/1062م فكتب إليه محسن يأمره بالحضور بين يديه. فأجابه يوسف قائلا "كيف أثق بك وقد قتلت أربعة من أعمامك؟"

فصمم محسن على الانتقام من عمه يوسف. فجهز جيشا لمقاتلته وجعله تحت قيادة بلكين بن محمد بن حماد عامل افريون، وكان يريد أن يقضي عليه هو الآخر ، ولأجل ذلك جعل في مؤازرته رجلين من سادة العرب: خليفة بن مكان وعطية الشريف موعزا إليهما بقتله.

(1) ابن خلدون: العبر ج6 ص353.

وكان بلكين قد غمرهما بإحسانه وأسر قلبهما بمودته فأبيا أن يمتثلا أمر الملك بل أخبرا بلكين بالمكيدة، وأردف خليفة قائلا: "لا خوف عليك، وإن أردت أن تقتله فإني مستعد للبطش به"فلم ينته خليفة من كلامه حتى لبس بلكين خوذته وركب جواده وقصد محسنا"، وكان خارج العاصمة.

فأنذر بلكين وفر إليها، ولكنه، لم يستطع أن يفلت منه. فأدركه بلكين وحكم السيف في رقبته، فسقط ميتا في ربيع الثاني سنة 447هـ/جويلية 1055م لتسعة أشهر من ولايته. ودخل بلكين العاصمة ليلا ودعا فيها لنفسه، فأذعن له القوم وبايعوه سنة447/1055م.

بلكين بن محمد بن حماد

يصور لنا التأريخ بلكين شهما قرما حازما سفاكا للدماء[1]، وأحد جبابرة الإسلام، ولا يكلم إلا حين يبتسم[2]. فهناك عدة حوادث تبرر صحة هذه النعوت. قد قتل ابن عمه محسنا وجلس على عرشه كما سبق أن قلنا. ثم لم تمض إلا أيام حتى قتل وزيره. وقد أحس بنكث جعفر بن أبي رمان صاحب بسكرة فقتله، فثار لذلك أهلها، فنكل بهم سنة 450هـ/1058م. وكان توفي أخوه مقاتل بن محمد بن حماد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علناس بن حماد، فقتلها، فأحفظ ذلك أخاها، الناصر بن علناس. فليس من شك أن يثأر لها منه. فان بلكين، إذن، كما يصفه ابن بسام: لا يمد يده إلا من لبدة أسد.[3]

(1) ابن خلدون: العبر:جـ 6 ص:353
(2) ابن بسام الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص:59
(3) نفس المصدر ص:159

وقد غزا المغرب عدة مرات إذ من طبعه ان لا يراح إلا وبحر الموت يلتطم.[1] آب مرة من بعض غزواته ،فاحتاجت نفسه الراحة والخلوة بوجه أنسه، فجلس لذلك مجلسا حشد له شهواته وتقدم في إحضار ما يصلح له من آلاته وأدواته، وأمر قيمة جواريه باستحضار ابنة عمه دنيا، لم ير بعدها ولا قبلها أبرع ظرفا[2] ولا أكثر جمالا منها.فإذا به تختمر بعقله فكرة الغزو، وقد كان بلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة. فلم يعد يفكر فيما حول،، وأخذ يريد ويدبر.[3] فقالت قيمته: وكأني أنظر إلى الكأس في يده وإلى ابنة عمه قائمة على رأسه من وقت صلاة العصر إلى طلوع الفجر، وحانت بعد طول ليلته نظرة، فرأى ابنة عمه، فاعتذر إليها واستدناها ووعدها ومناها، وقام من حينه، فوضع الكأس ملأى في طاق وطبع عليها، وأمر بالركوب كما فعل المعتصم العباسي، ولكن، لا لينقذ مثله العربية من النصارى بمعمورية بل ليغزو غزوته المشهورة إلى المغرب الأقصى التي بلغ فيها مدينة فأس واستولى عليها في صفر سنة 454هـ، واحتمل من أكابر أهلها وأشرافهم رهنا على الطاعة. وبث الرعب في قلوب المرابطين، ففروا منه إلى الصحراء، وتوغل في ديار المغرب، فوطيء دولة برغواطة، ودوخ السهول والجبال، وانكفأ راجعا القلعة، ظانا ان البلاد كلها تدين له بالولاء، وأن لا يوجد أحد فيها ليس على حكمه. فعمد إلى مجلسه الذي غادره ليلتحق بالمغرب الأقصى، واستدعى كأسه التي وضعها في الطاق وابنة عمه دنيا التي وعدها ومناها.

(1) نفس المصدر ص:159.
(2) نفس المصدر ص: 159
(3) نفس المصدر ص:159

وفي أحد أسفاره انتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته. كان بعض خواصه خوفه من الناصر بكلمة أخذت يومئذ عنه، فجعلها بلكين نقلة ركابه وسمر أصحابه، وكان قلّما يركب إلا ذارعا آخذ بما يأخذ به من ذعر القلوب، وكان مولعا بالإدلاج إذا ارتحل، مؤثرا للإنفراد كلما ركب ونزل، وأقسم تلك الليلة ألاّ يدلج إلاّ حاسرا وليقتلن الناصر إذا نزل ولو كان أسدا خادرا فأعجله عن الأمر ولما يبد وضح الفجر لقيه كأنه يسلم عليه أو يسير بين يديه. فما راجعه الكلام الا وقد جلله الحسام وأراح منه البلاد والأنام.[1]

وذلك بتاسلة قرب وهران سنة454هـ يوم الخميس منتصف شعبان. وفي الصباح جمع زعماء ذويه وأكابر صنهاجة وقال: "إنكم تعلمون أن بلكين قتل أختي فقتلته لا طمعا في مقالد الحكم بعده وإنما لأشفي صدري" فظنوا أنه لم يجسر على القيام بهذا العمل الخطير إلا وله أشياع وأتباع"، فلازموه السكوت ثم عمد إلى خزائن بلكين وأمر العساكر من عرب وزناتة أن ينهبوها"، فأمال إليه بذلك قلوبهم"، ورحل إلى القلعة وجلس على عرش عدوه".

فهكذا انتهت أيام بلكين، فلم ينفعه الحذر من أقاربه ولا السيطرة على أقرانه. سفك دماء الأبرياء، لكن لم يطل به المطال حتى سفك دمه وأصبح في خبر كان.

---

(1) ابن بسام: الذخيرة: القسم الأول المجلد الأول ص: 160.

الناصر بن علناس بن حماد

جلس الناصر بن علناس بن حماد على العرش في السنة التي تسلم تميم بن المعز مقالد الحكم بالمهدية، وقد اتكأ في سياسته على أهل عشيرته الأقربين. فعقد لأخيه كباب على غرب البلاد وأنزله مليانة، ولأخيه رمان على سوق حمزة، ولخزر على نقاوس فبنى أسوارها التي كان قد هدمها المعز بن باديس، ولأخيه بلبار على قسنطينة ولإبنه عبد الله على الجزائر ومرسى الدجاج، ولإبنه يوسف على أشير. فقد جعل بين أيديهم مصير الدولة الحمادية. فلم يخامرهم شك في إخلاصه لهم فخدموه، هم الآخرون بإخلاص، فنجحت بذلك سياسته الداخلية. أما بسكرة التي قتل بلكين صاحبها جعفر بن أبي رمان فقد خرجت عن طاعة الحماديين وقام بزمام أمرها بنو جعفر. فلم يقبل الناصر هذا الخروج، وأمر وزيره خلف بن أبي حيدرة الذي وزر من قبل لبلكين بن محمد أن يرجعها إلى رقعته. فقصدها ونازلها ودخلها عنوة، واحتمى بني جعفر في جماعة من أعيانها بالقلعة. فأمر الناصر بقتلهم وصلبهم.

وقد سعى رجال من صنهاجة يخلف هذا عند الأمير أنه لما بلغه خبر موت بلكين أراد تولية أخيه معمر بن محمد بن حماد وشاورهم في ذلك ، فأمر الناصر بقتله وولي مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح[1].

وقد خرج الناصر يتفقد غرب مملكته، وكان علي بن رقان هرب إثر موت بلكين ولجأ إلى أخواله من عجيسة. فاغتنم فرصة غياب الناصر للاستيلاء على القلعة بمساعدة أخواله ليلا. فأخبر الناصر، فرجع

(1) ابن خلدون: العبر : جـ 6ص354

على جناح السرعة، وفاجأهم واسترجع قلعته. فذبح علي بن رقان نفسه بيده.

ولعل الناصر يظهر لك جريئا على سفك الدماء. فليس ذلك من طبعه، وإنما حرصه على أن يسود البلاد الاستقرار والاطمئنان الذي يؤدي به تطهيرها من عناصر الاضطراب والفساد.

قضى البدو على جيش المعز بحيدران، بين صفاقص وقفصة، واكتسحوا البلاد وعمت الفوضى. فانتقل المعز إلى المهدية. كما سبق أن قلنا، و لم يبق حكمه سائرا إلا عليها. أما القيروان والقسطيلية وألابة والأربس وباجة، فاستولى عليها الأعراب. وبما أن السلطة المركزية صارت عاجزة كل العجز عن حماية المدن الأخرى فثارت عليها.

فسقطت قابس في يد بني جامع وصفاقص في يد بني مليل وبترزت في يد ورد وتونس في يد بني خراسان. ومن هؤلاء الأمراء من ضرب سكته، وإليهم أخذت الجبايات ترد. وأمير توزريحي بن وطاس دفع أهل قسطيلية على أن يدعوا لبني حماد. وكانت قفصة تحت حكم عبد الله بن محمد بن الرند، وأسرته بنو صدغيان من جربة. وعلى حسب المؤرخ الحفصي ابن نخيل فهم من بني أزمرتان المغراوي. وفي عهد عبد الله هذا عرف السكان والمسافرون نوعا من الإطمئنان لأنه كان يدفع إلى لأعراب إتاوة حتى تأمن المدن والطرق. فاستقل في سنة 445 هـ/1053ـ1054م. ودانت لحكمه أكثر مدن ناحية قسطيلية وتوزر ونفتة وتقيوس والحمة. فقرب إليه الشعراء والأدباء، فمدحوه بشتى القصائد، واحترم الأولياء ومات سنة 465 هـ /1072 ـ 1073م.

وفي سنة 445 هـ / 1053 ـ 1054م ثار أهل سوسة وامتنعوا من دفع الجباية إلى الخزينة السلطانية بدعوى أنهم يدافعون بها عن المدينة. واتفق أن توفيت أخت المعز في سوسة، فاستولوا على تركتها، وأبوا أن يدفعوا، ولو شيئا منها إلى المعز. فبعث يطلبها منهم، فرفضوا، فأرسل إليهم أسطولا دخل إلى ميناء سوسة وأحرق أكثر من ستين سفينة.

وأخذوا أموالهم. وأخذ بزمام أمر المدينة جماعة من الأعيان.

وانتقاما منه قام السوسيون إلى أهل القيروان القاطنين بسوسة وعذبوهم فقد تدهورت الحالة السياسية، كما ترى، وتدهورت معها الحالة الاقتصادية. فالبوادي قد خلت من سكانها خائفين من البدو وملتجئين إلى المدن، فمن البديهي أن تضعف الزراعة وتربية المواشي، وتتعطل السبل وتكسد الأسواق. فلم تأت سنة 447 هـ حتى عرفت افريقية أزمة اقتصادية كبيرة[1]. أما المغرب الأوسط فبقي في مأمن من وطأة الأعراب في الشمال. أما في الجنوب فقد ظهرت فيه عصابات بدوية قاومتها زناتة. لم يزل نفوذ الناظر يقوى شيئا فشيئا. فكتب إليه حمو بن مليل البرغواطي من صفاقص أن يدخل في طاعته وبعث له بهدية. ووفد عليه مقدم قسطيلية يحي بن وطاس على رأس جماعة من الأعيان طالبين الدخول تحت حكمه. فأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم. وعقد على قسنطينة ليوسف بن خلوف من صنهاجة. ودخل أهل القيروان أيضا في طاعته سنة 450 هـ. ومشى أشياخ من أهل تونس على الناصر وهو إذ ذاك بالقلعة، دار ملكه، فاستدعوا منه النظر إلى مدينتهم وتقديم وال من قبله عليهم. فأمرهم أن يختاروا واحدا منهم

(1) البيان : جـ 1 ص: 122

يقوم بأمرهم . فوليها من قبل الناصر عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان. فأقام بها واليا إلى أن توفي سنة 488هـ. فتوسعت رقعة الناصر، فلم يبسط نفوذه على المغرب الأوسط فحسب بل على قسم كبير من افريقية أيضا، وسولت له نفسه أن يطمع في افريقية كلها نظرا لذلك التدهور السياسي الذي أصبحت تعانيه الدولة الزيرية. اتفق أن وقع بها الهلاليين حروب، وأتى إلى الناصر وفد من الأثيج صريخا به على رياح. وبما أن هؤلاء كانوا يميلون إلى الزيريين فأجابهم الناصر ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة، ويا ليته لم يظاهرهم! فموقفه كان ذا عاقبة وخيمة. علم تميم بن المعز بأن ابن عمه الناصر يقدح فيه في مجلسه ويذمه، وأنه عزم على المسير إليه، وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال: الأثبج وعدي ليعينوه على حصار المهدية. فلم يبق مكتوف الأيدي، فأرسل إلى أمراء بني رياح، فأحضرهم إليه وقال: «انتم تعلمون أن المهدية حصن منيع ليس لعدو على اقتحامها سلطان كيفما كانت قوته. فالناصر، إذن، يريد بجمعه هذه العساكر اكتساح أرضكم وتبديد شملكم» فكانوا له آذانا صاغية وسألوه المعونة على محاربة الناصر. فأمدهم بالمال والسلاح. أعطى كل واحد منهم، وكانوا عشرة، ألف دينار وألف درع وألف رمح وألف درقة وألف سيف مهند. فودّعوه وذهبوا. فجمعوا قومهم وتحالفوا، واتفقوا على لقاء الناصر. ثم أرسلوا شيخين سرا من مع الناصر من بني هلال يقبحان عندهم مساعدتهم للناصر ويقنعانهم بأن صاحبهم لا يتأهب إلا لسحق العرب والاستيلاء على أرضهم. فاقتنعوا وقالوا: «اجعلوا أول حملة تحملونها علينا، فنحن ننهزم بالناس ونعود عليهم ويكون لنا ثلث الغنيمة». فأجابهم الشيخان إلى ذلك واستقر الأمر.

ومن خلفاء تميم أيضا المعز بن زيري بن عطية الزناتي. فأرسل إلى من مع الناصر من زناتة نحو ما قام به رباح. فوعدوه أيضا أن ينهزموا. فرحل رباح وزناتة جميعهم. وسار إليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبني هلال. فالتقت العساكر سنة 457هـ/1065، بسهل سبيبة بين القيروان وتبسة. وحملت رباح على بني هلال وحمل المعز على زناتة. فانهزمت الطائفتان وتبعهم عساكر الناصر منهزمين ووقع فيهم القتل. ولحسن الحظ، أمكن الناصر أن ينجو بنفسه في عشرة من فرسانه، ويرجع الفضل في ذلك لأخيه القاسم. فإنه طلب منه تاجه ولواءه ودخل المعمعة ويوهم الناس أنه الناصر يجري في ساحة الوغى يلقي أوامره ويحرض عساكره على القتال والصبر بينما الناصر ينسحب وينجوا إلى قسنطينة ثم يلحق بالقلعة، ولسوء الحظ قتل القاسم وقتل معه أربعة وعشرون ألفا من صنهاجة وزناتة مع أن زناتة قد اتفقوا مع إخوانهم على الخيانة، ولكن العرب كانوا يقتلون ولا يفرقون بين صنهاجة وزناتة من جيش الناصر، ولعلهم لم يكونوا على بينة من الاتفاق الذي أبرم بين زناتة أحلاف تميم وزناتة أحلاف الناصر. وغنمت العرب جميع ما كان في معسكر الملك الحمادي من مال وسلاح ودواب. فاقتسموها على ما استقر ما بينهم. وبهذه الوقعة تتم للعرب ملك البلاد. فأنهم قدموها في ضعف وفقر وأصبحوا بعد حين ذوي مال وسلاح ودواب فأرسلوا الألوية والطبول وخيم الناصر بدوابها إلى تميم. فردها وقال: «يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي». فأرضى العرب[1]. ولم يكف رباح القتل والنهب فتبعوا الناصر وحاصروه في قلعتـــه وعاثوا في الناحية، فعمدوا إلى البساتين فأتوا على

---

(1) الكامل جـ 1 ص: 45 ـ 46

على الأخضر واليابس وخربوا طبنة والمسيلة وطردوا سكانها ونهبوا الفنادق وكبسوا الآبار، ونشروا الإرهاب في كل مكان، واضطرّ أهل المدن إلى لزوم بيوتهم لا يخرجون إلى مزارعهم إلا إذا أدوا إتاوة وهم صاغرون.

إن وقعة حيدران مكنت أولئك البدو من الاستيلاء على افريقية باستثناء المهدية حيث تحصن الملك، وأما وقعة سبيبة فشجعتهم على مواصلة زحفهم نحو الديار المغربية التي على كل حال لم تضطرم نارا كإفريقية لأن شوكتهم لم تبق قوية كما كانت على عهد دخولهم إلى القيروان.

والبدو طارئون على البلاد لا يربط بينهم إلا صلة العرق والأرومة. ولو كان وعيهم القومي مشفوعا بوعي سياسي لأزالوا الدولتين الزيرية والحمادية ولأسسوا على أنقاضهما دونة عربية عتيدة نظرا على عددهم وشجاعتهم وروح العصبية المتأصلة فيهم لكن الاستقرار ليس من طبيعتهم والسياسة لا يكترثون لها. ولعلهم يجنحون إليها في بعض الأحيان، إلا لأنهم لا يهمهم منها الا مصالحهم الشخصية ومنافعهم المباشرة. اكتسح الأثبج جنوب المنطقة، وتمركزوا فيها فأصبحوا حماة الطرق وحماة الأسواق وحماة المدن، ولا نعني بذلك أن الدولة الحمادية تضعضع كيانها مثل دولة تميم، لا زال الناصر قويا يفرض وجوده على الأثبج وغيرهم فيصانعونه ومع ذلك تراه حذرا منهم. أينسى غدرهم يوم سبيبة؟ فلم يهدأ له بال حتى شيد عاصمة جديدة كانت حصينا لا يدور بخلد عدو أن يحاول اقتحامها بريا.

ويحكي لنا ابن الأثير[1] أن فكرة بناء بجاية، تلك العاصمة الجديدة، اهتدى إليها رسول تميم إلى الناصر بن علناس. أحضر تميم بن محمد بن البعبع وأعطاه مالا ودواب وعبيدا وأرسله إلى الناصر.

فسار حتى وصل إلى بجاية، وكانت، حينئذ مترلا فيه قبيلة صنهاجة تسمى بجاية. فنظر محمد بن البعبع إلى الموقع.وقال في نفسه «إن هذا المكان يصلح أن يكون له مرسى ومدينة» ثم استأنف سيره إلى القلعة. فدخل على الناصر وقدم له كتاب تميم. وبعد تأدية الرسالة قال له:«معي وصية إليك وأحب أن تخلي المجلس» فقال الناصر: إني لا أخفي عن وزيري شيئا. فقال «بهذا أمرني الأمير تميم» فقام الوزير بكر وانصرف. فقال الرسول حينئذ «يا مولاي، إن الوزير مخامر عليك، هواه مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئا. وتميم مشغول مع عبيده، قد استبد بهم واطرح صنهاجة وغير هؤلاء، ولو وصلت بعسكرك ما بت إلا فيها لبعض الجند والرعية لتميم. وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها» وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية. وقال «أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبر دولتك» فأجابه الناصر إلى ذلك،وارتاب بوزيره. وسار مع الرسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلعة. فلما وصل الناصر بجاية أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك. فأمر الناصر من ساعتة بالبناء والعمل، وسر بذلك وشكره، وعاهده على وزارته إذا عاد إليه. ورجعا القلعة فقال الناصر لوزيره.«إن هذا الرسول محب لنا، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا، فاكتب جواب كتبه»

(1) الكامل جـ 10 ص: 47 .

ففعل[1]. وكان الناصر قد بعث وزيره هذا للإصلاح بينه وبين تميم.فعقد صلحا وتمه الناصر. ولكن هذا الصلح جاء ما يجعله حبرا على ورق. فإن الرسول ابن البعبع رجع إلى مولاه تميم وقد ارتاب به هذا حيث تجدد بناء بجاية عَقبَ مسيره إليهم وحضوره مع الناصر فيها، وكان الرسول قد طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها. فأرسل معه رسولا يثق به. فأرسل معه «إنني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية وقد عظم أمرها عليه واتهمني، فانظر إلى من تثق به من العرب ترسلهم إلى موضع كذا، فإني سائر إليهم مسرعا. وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك» وسير الكتاب. فلما قرأه الناصر سلمه إلى الوزير، فاستحسن هذا وشكره وأثنى عليه وقال:« لقد نصح وبالغ في الخدمة ، فلا تؤخر عنه إنقاذ العرب ليحضر معهم»[2] ومضى الوزير ابن أبي الفتوح إلى داره وكتب نسخة الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم وكتابا منه يذكر له ما وقع وما سيقع. فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك وبقي يتوقع له سببا يأخذه به، إلا أنه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر.فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره بأن الرسول صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهري. وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه. فأحضره تميم.فقال: «كنت واصلا إليك فأخبرك بأن محمد بن البعبع دعاني .فلما حضرت عنده قال:«أنا في ذمامك، أحب أن تعرفني مع من أخرج من المهدية. فمنعتــه من ذلك وهو خائــف».

---

(1) الكامل ج10 ص:48

(2) الكامل جـ 10ص:49

فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه، وأمره بإحضاره. فأحضره الشريف فلما وصل باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيرهم الناصر ومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده. فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم.فلما رآه ابن البعبع سقطت الكتاب منه، فإذا عنوان أحدها: من الناصر علناس فلان. فقال له تميم: «من أين هذه الكتاب؟» فسكت، فأخذها وقرأها. فقال ابن البعبع:«العفو يا مولانا!» فقال: «لاعفا الله عنك!»[1]. وأمر به فقتل وغرقت جثته[2]. وتحقق الناصر بدوره أن وزيره ابن أبي الفتوح مائل إلى تميم، فقتله.

بقيت الحالة متوترة بين الناصر وتميم. فالأول يشد أزره الأثبج والثاني رباح.وكان تميم حازما لم يأل جهدا لاسترجاع النفوذ الزيري وذلك مدة 48 سنة من 454هـ 501هـ/1060-1108م. فاستعاد تونس الخراسانية سنة460هـ/1067-1068م فعظم أمرها على الناصر، فقام يحاصر الأربس بمساعدة حلفائه الأثبج سنة 460هـ/11نوفمبر 1067-30 أكتوبر 1068م، ودخلها وقتل صاحبها ابن مقرز وفي الوقت نفسه كان على القيروان القائد ابن ميمون قد أقره عليها تميم.فخالف عليه ومال إلى الحماديين.فدخلها الناصر وعقد له عليها ثم غادرها. وفي سنة461هـ/1069م، رجع الناصر إلى القلعة خوفا من أن يتكتل عليه العرب فيقع له ما وقع له آنفا بسبيبة.

إن موقف ابن ميمون أثار غضب تميم، فأرسل إليه جيشا ينتقم منه.فرأى القائد أن ليس في استطاعته أن يقاوم العدو، فغادر القيروان وهرب إلى القلعة .فدخل إليها تميم و أمر بهدم قصر ابن ميمون.

---

(1) الكامل جـ 10ص:49/ (2) الكامل جـ 10ص:49

قضى هذا الأخير ست سنوات بجانب الناصر، فإذا به يقصد صاحب صفاقص حمو بن مليل البرغواطي الموالي للحماديين. فاتصل هناك بأمير زغبة يبقى بن علي ورغبه في بيع القيروان للناصر. فكانت الصفقة بين الطرفين على يد حمو بن مليل. ولكن، هل فعل ابن ميمون ذلك من تلقاء نفسه أم سيره الناصر؟ فأرتبك المؤرخون في الأمر مع أنه لا يختلف فيه إثنان، فلم يتحرك ابن ميمون إلاّ بإذن الناصر بدليل أنّه لم يتم البيع حتى عقد له على المدينة. ثم لا شك أن الناصر كان يريد أن يحدث مشكلا بهذا الابتياع. فإنه انتقام من الحلف التميمي الرياحي الذي أخرج زغبة من افريقية، وقد تنجم عنه عواقب سيئة تمنع تميما من مواصلة عمله لاسترجاع كيان دولته. وقد فهم تميم والناصر معا أن العنصر الصنهاجي يضعف بقدر ما يقوي العنصر العربي. فعزما على أن يتفقا، وما هي إلا حتى أبرم الصلح بينهما. وهذا ما كان يرمي إليه الناصر بابتياع القيروان. فاصطلحا سنة 470هـ/1077-1078م. ووطد هذا الصلح بالمصاهرة. فقد زوج تميم ابن عمه بلارة وجهزها إليه من المهدية في عساكر عظيمة ومال وأسباب وذخائر[1]. وكان اقتبال الموكب ببجاية. ثم أنزلت العروس بقصرها الخاص الذي شيده الناصر وسماه باسمها: قصر بلارة. واحترم الناصر الاتفاق بينه وبين تميم حتى وفاته واحترمه أيضا بعده المنصور وباديس والعزيز بعد وفاة تميم. فتفرغ العاهلان لحل مشاكلهما، وما أكثر ما كانت هذه المشاكل!

(1)كتاب العبر جـ 6 ص446

اضطرب أمر الحماديين وكثر الثوار في غرب البلاد وجنوبها إثر معركة سبيبة. لكن ليس لليأس على قلب الناصر سلطان، فمعركة سبيبة عنده كسحابة صيف عن قريب تنقشع. وفعلا نهض من كبوته وأرجع إلى دولته هدوءها ويسرها وعزها. افتتح بجاية واختط مدينة 460هـ 1068م سماها الناصرية وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا. ونقل إليها الناس وأسقط الخراج عن سكانها، وانتقل إليها سنة 461هـ/1069م. وفي أيامه كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس اخوانهم بالمهدية. فبنى المباني العجيبة المؤنقة وشيد المدائن العظيمة[1]، وردد الغزو النواحي الثائرة ،ولم تأخذه في الثائرين والمخالفين هوادة.

استمال الناصر بني ومانو وكان على رأسهم بنو ماخوخ. وأبى الاّ أن يبني ببنت من هذا القبيل العتيد، فالمصاهرة توطد المحالفة والولاء. واقتدى به بعده ابنه المنصور. كانت فتنة من الترك والمغاربة بمصر في أيامها خرج المنتصر بن خزرون الزناتي إلى طرابلس. فوجد فيها بني عدي قد طردهم الاثيج وزغبة من افريقية. فرغبهم في بلاد المغرب وسار بهم حتى نزل بالمسيلة ودخلوا أشير فقصدهم الناصر، فتفرقوا وفر المنتصر إلى الصحراء، ولم يلبث أن عاد.فرجع إلى سلوكه التخريبي. فرأى الناصر أنه لا يقضي عليه فتستريح المنطقة من فساده إلا بالحيلة فأقطعه ضواحي الزاب وريغة. وأوعز عروس بن هندي رئيس بسكرة وولي دولته أن يمكر به. فاتفق أن يدخل المنتصر إلى بسكرة ونزل ضيفا على عروس، وقدم له ولأصحابه ما لذ وطاب وحينئذ أمر عروس حشمه

(1)كتاب العبر جـ 6 ص:446

أن ينقضوا عليهم ويضعوا السيف في رقابهم. وما هي إلاّ دقائق حتى طعنوا المنتصر وفر أتباعه. فأراح الناصر منه والبلاد من عيثه، وبعث برأسه إلى العاصمة، فنصب ببجاية، وصلب شلوه بالقلعة حتى يكون عظة لغيره.

كان أبو الفتوح بن حبوس المغراوي أميرا على سنجاس، وأبى الا أن يبسط نفوذه على لمدية، ولمدية قبيل من بطون صنهاجة سمّي البلد بهم.فقبض عليه الناصر وقتله.

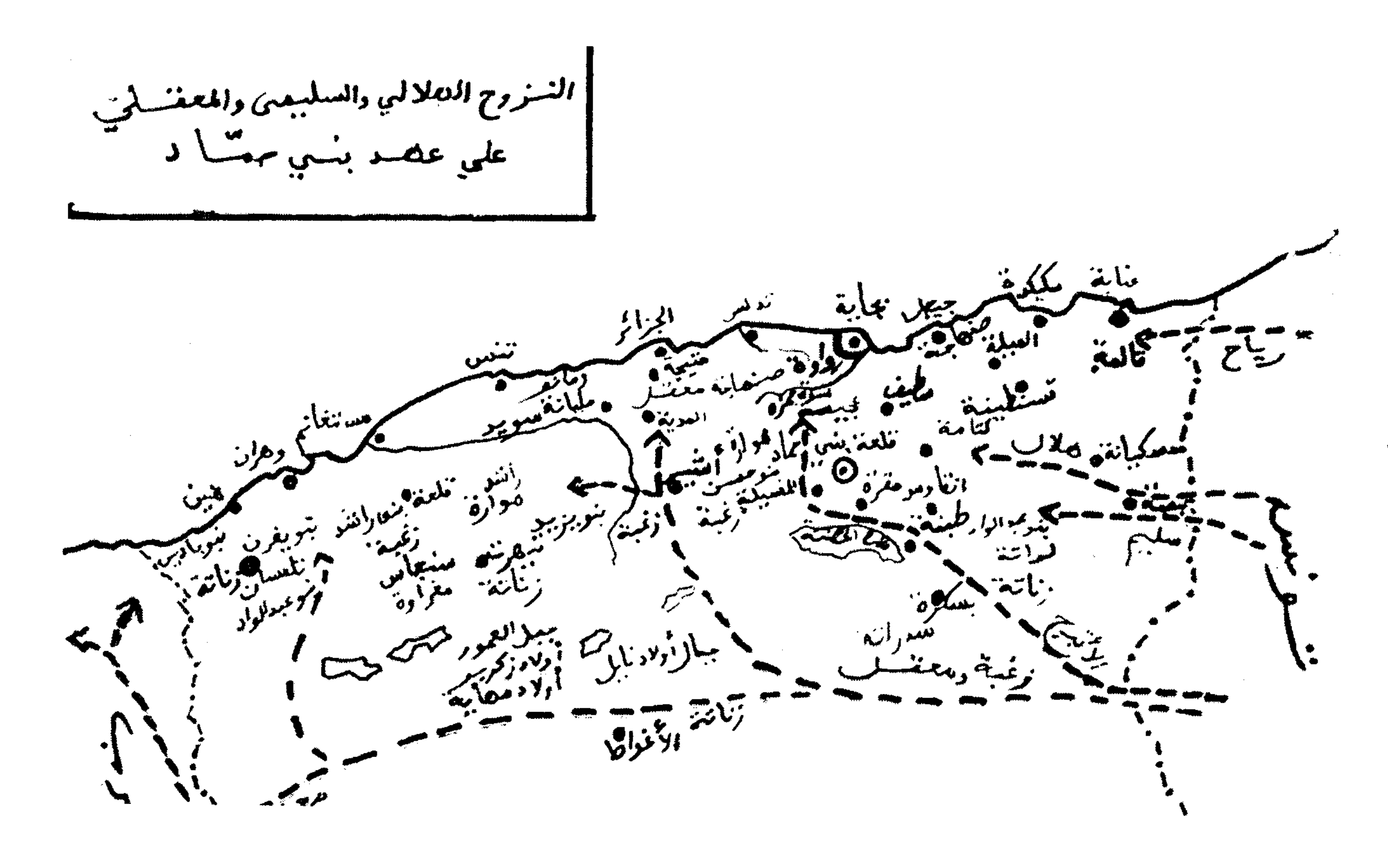
وكان بناحية شلف مع نصر بن حماد المغراوي. فأجلب على عامل مليانة وقتل شيوخ بني ورنسفان من مغراوة، وكانوا موالين للناصر، وكان هذا مشتغلا بشأن العرب. فكاتب رجال القبيلة أن يقتلوه. فامتثلوا أمر الناصر، وزحفوا اليه وقتلوه وحزوا رأسه وبعثوا به اليه، فنصبه على رأس القصر. وبعث أهل الزاب إلى الناصر أن غمرت ومغراوة ظاهروا الأثبج على بلادهم. فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وغلان بلد المنتصر بن خزرون وهدمها.

وتحركت عناصر الإضطراب بواركلا، فبعث الناصر إليهم جيشا أخمد نار الفتنة، وولى على البلد من يدبر أمره، وقفل راجعا بالغنائم والسبي. فلم يرتح من تلك الغزوة حتى وافاه خبر بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني عدي على الفساد وقطع السبيل، وأميرهم وقتئذ مناد بن عبد الله. فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر. فتقبض على أمراء بني عدي: ساكن بن عبد الله وحميد بن خزعل ولاحق بن جهان، وتقبض أيضا على أمير بني توجين وأخيه زيري وعميهما الأغلب وحمامة وأحضرهم، فوبخهم وقتلهم جميعا.

فإن هذه الأحداث ترجع، كما، ترى إلى تواطؤ زناتة والأعراب، فإن هؤلاء لم يقنعوا بالاستيلاء على افريقية، فواصلوا زحفهم على المغرب الأوسط، فأغراهم بأراضيه الشاسعة ومياهه الدافقة وثرواته الطبيعية. فحلوا به بفكرة الإقطاع. فانقسم إلى مقاطعات يرأسها أمراؤهم ويحمونها. فيدفع إليهم المزارعون نصيبا من منتجاتهم والتجار وأصحاب الحرف قسطا من أرباحهم. ألا تتفكك الوحدة السياسية بهذه الإجراءات ان لم يكن لهم بالمرصاد سلطان حازم يشتت شملهم ويرغمهم على الخضوع مثل الناصر بن علناس؟

ولكن سكان المدن الداخلية يخافون على أنفسهم وأموالهم عند شن الحرب بين السلطة والثائرين فيتجهون نحو الشمال حيث يجدون اطمئنانا وراحة من ظلم وشغب أولئك الأعراب. فهذا هو سر ضعف بعض المدن بشريا وحركات مثل القيروان وطبنة والقلعة وأشير التي عرفت ازدهارا كبيرا قبل هذه الآونة.

انحدرت جماعة من رباح من نواحي باجة، وتفرقوا بنواحي القالة وبونة وقسنطينة إلى القل وجبال بابور، وجماعة أخرى عن طريق سبيبة وانتشروا بنواحي تبسة وجنوب الأوراس وقرى الزاب. ودخل الأثبج من قفصه إلى بسكرة وطبنة والمسيلة ووصلوا إلى نواحي القلعة. وظهر زغبة ومعقل من الجنوب وتفرقوا عند وصولهم ما بين صدراتة ولغواط. فعرج زغبة إلى الشمال إلى أن وصلوا متيجة فأثبتوا في أنحائها. أما معقل فواصلوا طريقهم غربا إلى أن قصد بعضهم مقاطعتي تلمسان ووهران والبعض الآخر المغرب الأقصى وسجلماسة. اكتسح الأعراب الأرض، وزاحموا البربر وضايقوهم حتى تخلت لهم قبائل عن مواطنها، وهجرت


النزوح الهلالي والسليمي والمعقلي
على عهد بني حماد
عنابة
سكيكدة
جيجل
بجاية
تدلس
الجزائر
تنس
مستغانم
وهران
تالمة
قسنطينة
كتامة
سطيف
المدية
ملبانة
تلمسان
زناتة
مغراوة
جبل العمور
الأغواط
بسكرة
طبنة
قلعة بني حماد
زغبة ومعقل
سليم
هلال
رياح

إلى الناحية الغربية مثل بني عبد الواد الذين نزلوا بإقليم تلمسان وبني مرين الذين نزلوا جنوبي إخواهم بني عبد الواد، ثم نزحوا إلى المغرب الأقصى وكونوا هناك مملكة عاصمتها فاس.

اتصل البربر بأولئك الأعراب بحكم الجوار وأخذوا عنهم عوائدهم واستعرب كثير منهم لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وأدبا راقيا وإعانة على فهم الدين، واستبدلوا بحياتهم حياة عربية،[1] فالمغلوب بالغالب يقتدي[2] فزادت العربية انتشارا بالاحتكاك والمصاهرة، وأخذت البربرية يتقلص ظلها على الجبال. فقال الأستاذ العكاك: «إن البربرية بقيت لغة حديث بالجبال والأماكن التي لم يختلط فيها البربر بالعرب و لم تنتشر بينهم الثقافة العربية حينئذ»

وقد تغلب الأعراب على طرق القوافل فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم. فوقفت حركة البربر التجارية من هذه الناحية. ولكن الهلاليين قاموا بها أحسن قيام ووسعوا نطاق التجارة بين التل والصحراء.

فتروح بني هلال، زغبة ومعقل، إلى المغرب الأوسط قد أثر في الحواضر والبوادي اجتماعيا ولغويا وجنسيا واقتصاديا.

مات الناصر سنة 481هـ دون أن يجد حلا جذريا للمشكل العربي. فالأعراب أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض وبالأحرى لمن ليس من أرومتهم، وذلك للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة.

---

(1) الميلي: تأريخ الجزائر جـ 3ص:154
(2) ابن خلدون: المقدمة ص: 147.

فقلما تجتمع أهواؤهم. فلم ينفع معهم إلا الحذر واليقظة والملاينة تارة والعنف تارة أخرى على حسب الظروف. فبقيت المملكة الحمادية شاغرة بموت الناصر. فمن ذا الذي يجلس على عرشها ويدير شؤونها مثله، ياترى؟

المنصور بن الناصر بن علناس

كان المنصور حديث السن عندما خلف أباه على العرش الحمادي سنة 481 هـ/1088م. فإنه ابن بلارة بنت تميم بن المعز التي بنى بها الناصر سنة 1077/470م. فلم يشع هذا الحادث حتى بعث له الملوك، منهم تميم بن المعز ويوسف بن تاشفين الرسائل والوفود يعزونه ويهنئونه. ورث من أبيه مملكته وشهامته وحزمه وعزمه. ساس رعيته بحكمة وحصافة مقتديا بأبيه. وكان كاتبا وشاعرا ويلبس الثياب البالية المرقعة وربما كان يرقعها بيديه، وكان يقنع بالقليل من الطعام في قلعته التي رأى النور فيها لأول مرة. فوجود البدو في نواحيها لم يمنعه من الإقامة بها مدة. إلا أنه غادرها سنة 483هـ/1090م، واستقر ببجاية، فإنه لا يعرف ما قد يأتي به الغد. فهي أكثر حصانة وأشد استراتيجية، وأحسن موقعا منها. فهي من الجهة البرية صعبة المسالك لوجود الأوعار، ومن الجهة البحرية متفتحة على العالم الخارجي. فآثر أن يتخذها معقلا، وصيرها دارا لملكه، وجدد قصورها وشيد جامعها. وكان مولعا بالبناء. فهو الذي حضّر بني حماد[1] وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض

(1) ابن خلدون:العبر جـ 6 ص:458

والبساتين[1]. فبنى في القلعة قصر الملك وقصر الكواكب والمنار وقصر السلام وببجاية قصر أميمون وجدد قصر اللؤلؤة الذي بناه أبوه في نفس هذه المدينة.

توفي الناصر سنة 481 هـ وترك لولي عهده المنصور مملكة قوية يسودها استقرار نسبي لابأس به، الا أن هذا الاستقرار كثيرا ما كانت تغيب شمسه في أيام المنصور.فكان عمه بلبار على قسنطينة منذ عهد الناصر. فسولت له نفسه الاستبداد والخروج على ابن أخيه. فسرح إليه المنصور أبا يكنى بن محمد بن القائد في جيش، وعقد له على قسنطينة وبونة. فسار إليه وتقبض على بلبار وأرسله إلى القلعة وقام واليا على قسنطينة مكانه وولى أخاه وغلان على بونة. ثم بدا له الخلاف على المنصور. فثار بدوره بقسنطينة في سنة 487هـ/1094م.وبدا له أكثر من ذلك. فأراد أن يتفق مع أعداء المنصور تميم والعرب والمرابطين فيكونوا عليه ألبا واحدا .فبعث أخاه من بونة إلى تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونة. فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم ونزل بونة مع ويغلان.ثم استمال العرب وكاتب المرابطين في الأمر. ولكن المنصور كان يقظا، فأجهضه.فجيش جيشا بعثه لاسترجاع بونة، فحاصروها سبعة أشهر ثم اقتحموها ودخلوها عنوة وأسروا أبا الفتوح بن تميم وبعثوا به إلى المنصور ،فاعتقله بالقلعة .هذا من جهة ومن جهة أخرى أمر المنصور بحصار قسنطينة فاضطربت أحوال أبي يكنى وفر إلى قلعة بجبال الأوراس وتحصن بها. ولكنه ترك بقسنطينة صليصل بن الأحمر من شيوخ الأثيج. فداخل هذا المنصور في أن يمكنه

(1) ابن خلدون:العبر جـ 6 ص:458

من قسنطينة على ما يبذله[1]. فقبل المنصور. فبقيت المدينة من رقعة المنصور، أما أبو يكنى فلم يزل بحصنه يردد الغارات عليها.فوجه إليه المنصور العساكر فحاصروه بقلعته ثم اقتحموها.فقبضوا عليه وقتلوه في سنة 473-474هـ/1080-1082م.

قد سبق أن قلنا إن قبائل صنهاجة كانت تضرب بالصحراء بأرض موريطانية الحالية منها لمتونة وكدالة ومسوفة. فألف منهم عبد الله بن ياسين جيشا دخلوا المغرب الأقصى كمصلحين. وفعلا قاموا بالإصلاح وقاوموا الخارجية والشيعة، ولكن الحركة الإصلاحية أصبحت بتوالي الأيام حركة سياسية.

وكان على رأس ذلك الجيش يحي بن عمر فقتل ،وخلفه أخوه أبو بكر بن عمر. لكنه اضطر إلى الرجوع إلى الصحراء وعهد لابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيش المرابطين في المغرب وأوصاه أن يتتبعوا معاقل زناتة وقاتلهم، ثم مضى. فقضى يوسف بن تاشفين على زناتة بأغمات وتادلى، ودوخ أقاليم أخرى بالمغرب الأقصى. وفي ذلك الوقت بالذات اكتسح بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي معاقل زناتة في المغرب الأقصى، وكانت عاصمتهم فاس. فاقتحمها، كما سبق أن قلنا،[2]سنة 454هـ، ثم أخذ رهائن من أهلها وعاد بهم إلى عاصمته القلعة، وبقيت فاس تحت حكم بني خزر المغراويين إلى أن فاجأهم يوسف بن تاشفين، فقضى عليهم واستولى على المدينة عنوة. ولم يكتف يوسف بن تاشفين بذلك، فأجمع على أن يأتي على جميع مغراوة

(1) ابن خلدون: العبر جـ 6 ص:359.
(2) ص:81

أينما كانوا. فعقد لقائده مزدالي التكلاتي اللمتوني بالتوجه إلى أوطانهم بالمغرب الأوسط. فزحف مزدالي في نحو عشرين ألف مقاتل نواحي تلمسان في سنة 472هـ فقاتلهم عنها صاحبها يومئذ يحي هرم بني خزر إلى أن سقط ميتا في ساحة الوغى.عند ذلك راح الجند المرابطي يعيث بتلك النواحي بدون أن يستولي على المدينة،ثم عاد إلى المغرب الأقصى. و لم تمض السنة حتى قام يوسف لغزو المغرب الأوسط.فافتتح منه عدة أقاليم واستولى على تلمسان وقضى على من كان بها من بني خزرو اختط بجانبها مدينة تاقرارت بمكان معسكره، وهو اسم محله بلسان البربر، وهي التي صارت اليوم مع أقادير تلمسان القديمة ــ بلدا واحدا سن 472هـ/1070م. ومن تلمسان توجه إلى وهران وجبال أنشريس وأعمال تنس. ومراده من هذه الجولة القضاء على مماليك زناتة. محا أثار مغراوة من جميع المغرب الأوسط، و لم يدخل جزائر بني مزغنة التي يسكنها بنو أرومته، ورجع إلى تلمسان ونصب فيها عامله محمد بن تينعمر المسوفي. ثم رجع إلى عاصمته مراكش. فدخلها في ربيع الثاني سنة 470هـ/1082م.

فأصبحت تلمسان وضواحيها بيد المرابطين. وكانت الدولة الحمادية إذ ذاك لاهية بإخماد ثورة أبي يكنى بن محسن بن القائد بن حماد بقسنطينة. فظفر به المنصور.فتفرغ حينئذ لدحر المرابطين من مملكته. فخرج في شوال486هـ/1103م. فأجلى جيوشهم مما استولوا عليه من الثغور الحمادية. ثم عقدت الهدنة والصلح بينه وبين يوسف بن تاشفين إلا أن المرابطين أعادوا بعد ذلك غزوهم للمنطقة بقيادة محمد بن تينعمر. فردهم عنها عبد الله بن المنصور، وكانت الوقائع حول

الجزائر شديدة. فحوصرت المدينة يومين، ولكنها لم تسقط بأيديهم، وهلك محمد بن تينعمر، فولي أخوه تاشفين على عمله. فغزا أشير واقتحمها وخربها. وكان لبني ومانو وبني يلومي أثر في مظاهرته وإمداده مع أنهم كانوا من جهة المنصور الحمادي وأصهاره. فأحقد عليهم المنصور بعدها. فهذه التحديات من طرف المرابطين ومن أحلافهم بني ومانو وبني يلومي تدعو إلى رد فعل قوي. فأجمع المنصور على الخروج إليهم بنفسه. فغزا بني وامانو في عساكر صنهاجة. وجمع له ماخوخ، فهزمه وقتله وقتل زوجه، أخت ماخوخ، متشفيا. ثم نهض تلمسان في جيش جلب من صنهاجة وحشد فيه العرب من الأثبج ورياح وزغبة ومن لحق بهم من زناتة. وكثر في هذه الغزوة عدد القتلى والجرحى، وانكسرت شوكة المرابطين. فهزموا عن تلمسان تسالة، ودخلها المنصور في جنده. فعاث فيها الجيش وعظمت المحنة بأهلها. فخرجت يومئذ زوجة والي المرابطين مستعطفة المنصور. فتأثر لحالها وانكبابها على قدميه[1] متوسلة بالوشائج الصنهاجية[2]. خرج من تلمسان صباح ذلك اليوم،وقفل راجعا إلى عاصمته بالقلعة مظفرا. ودامت هذه الغزوة عاما كاملا. وفي497هـ/1104م، صالح يوسف بن تاشفين المنصور، ومرضاة له أزال تاشفين بن تينعمر عن ولاية تلمسان.

وقد كانت تحركت عناصر زناتة بنواحي الزاب والمغرب الأوسط بينما كان الحماديون لاهين بصد الزحف المرابطي على البلاد. فتفرغ إليهم المنصور، فقصدهم، وأثخن فيهم وشردهم، وآب إلى بجاية.

(1) الطمار: تلمسان ص34 (عن مراصد الاطلاع ص:134
(2) العبر ج 6 ص:361

فأخضع قبائل بنواحيها لم تخضع من قبل خضوعا تاما للسلطة المركزية. ففروا إلى الجبال المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور[1].

ظل المنصور يعمل لراحة الشعب واطمئنانه، وما برحت تتجاذبه بجد باله وحذره ويقظته وحكمه قضايا شتى: مناوءة زناتة للنفوذ الصنهاجي وأحقاد الزيريين للبيت الحمادي وعدم انقياد العرب وميلهم للتخريب واستفحال أمر المرابطين غرب البلاد. وتوفي في ربيع الثاني سنة 498هـ/31 ديسمبر سنة 1105. وبوفاته أخذت شوكة الدولة تضعف،ويتسرب إليها الهون.

باديس بن المنصور

'ولي بعد أبيه المنصور أبو معد باديس. فكان جريئا، مقحاما، جافيا، سريع الغضب، متهورا سفاكا للدماء. فلم يجلس على العرش حتى أمر بالقبض على عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه وباستصفاء أمواله وقتله، وآثر أن يستقر ببجاية. فخرج إليها. فسقط على سهام عاملها. وكان أخوه واليا على مدينة الجزائر. فعزله ونفاه إلى جيجل. ويقال إنه اعتدى على بعض الصالحين فرماه إلى الأسود ولكن الله حفظه منها فلم تفترسه. وقد عقد النية على القيام بما هو أردأ، فقد توعد أمه بالقتل، لكن لم تطل مدته، فتوفي في سنته في الثالث عشر من شهر ذي الحجة سنة 498هـ /27 جويلية 1105م. فلم تبكه أمه. فهي التي سمته[2] حتى لا ينفذ أمره فيها. فخلا الجو بموته لأخيه العزيز.

(1) كتاب العبر ج6 ص361.
(2) ابن الخطيب: القسم الثالث من أعلام الأعلام تحقيق أحمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتاني ص:18 .

العزيز بالله بن المنصور

فلم يدفن أبو معد باديس بن المنصور حتى بعث قائد الأسطول الحمادي علي بن حمدون، عن أخيه العزيز. فقدم وبايعه، وتمت البيعة التامة. ولد يوم ولاية أبيه المنصور في جمادى الأولى سنة 481هـ/غشت 1088م، ولذا لقب بالميمون. فجلس على العرش وسنه سبع عشرة. فخصاله متناقضة تماما لخصال أخيه. فكان رصينا هادئا ثابت البصيرة حازما ماهرا فقد صالح زناتة. عزز جانبه بمصاهرتهم من جهة وبمصاهرة الملك بالمهدية. فبنى ببنت ماخوخ أحد سادة بني ومانو، ثم بيدر الدجى، بنت يحي بن تميم، سنة 509هـ/1115م. فأمن ثورات زناتة الحاقدة على بني حماد وعداوة الزيريين الهاجعة نارها تحت الرماد. وكاتب ملوك زمانة وسالمهم.[1] فساد مملكته الهدوء والإطمئنان والرخاء.

وكان يحب العلم ويلذ له أن يحضر بنفسه مجالس المناظرة بين العلماء. ومما يؤسف له أن جاء ما يكدر الصفو الذي طالما تمتعت به البلاد في أيامه. ففي سنة 512هـ/1118م، أغار الأعراب الهلاليون وحلفاؤهم على القلعة وأضروا بأهلها ونهبوها. فبعث العزيز ابنه يحي ومعه القائد علي بن حمدون، فأرغماهم على الطاعة وردا الأمر إلى نصابه. وفي نفس السنة كان غلاء عظيم ووباء حتى بلغ ربح الدقيق بتلمسان عشرين درهما.

(1) نفس المصدر.

وقد سبق أن قلنا إن تونس كانت خاضعة لدولة بني حماد يديرها ولاة من بني خراسان. ففي سنة 488هـ/1095م. هلك عبد العزيز الخراساني وتولى مكانه ولده أحمد، فاستمر على الطاعة للدولة إلى أوائل القرن السادس الهجري. فغير موقفه وأظهر الاستبداد. فنازله العزيز سنة514هـ/1120م، فرجع عن غيه وخضع. تقدم الأسطول الحمادي إلى جربة، فاحتلها قبيل وفاة العزيز التي كانت سنة 505 هـ/1111م.

وفي عهد العزيز هذا ظهر بالمغرب الأوسط المهدي بن تومرت مؤسس الحركة الموحدية..... خرج هذا المصلح من هرغة بالأطلس في طلب العلم سنة500هـ/1106-1107م. رحل إلى الأندلس ومن ثم إلى المشرق .فحج ودخل بغداد واتصل بعلمائها. فتأثر بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والأصول والسنة، وتأثر بتعاليم الاشعرية[1] وبنظريات الغزالي الكلامية التي وصلت إلى المغرب والتي كانت فاشية في المشرق. فمقامه في تلك الديار لم تكن إلا دراسة وبحثا بحيث أصبح بحرا منفجرا وشهابا واريا من الدين.[2] فلم يبق له إلا أن يعود إلى بلاده. فشخص إلى الإسكندرية ومن ثم أبحر إلى المهدية، ثم دخل بجاية سنة 513هـ/ 1118-1119م وكانت بلغت من الحضارة عتيا. وقد تجلت هذه الحضارة في الحياة الاجتماعية. فانصرف الناس إلى متع الحياة يتذوقونها والتفنن في وجوه التزيين. فخرج ابن تومرت إلى السوق، فرأى الرجال في أزياء لا تليقُ إلا بالنساء فصاح قائلا: «أراكم تتزينون بزي النساء، والتشبه بالنساء حرام».[3]

---

(1)و(2) ابن خلدون : العبر جـ 6 ص 466. (3) البيذق: ص: 52.

وقد أدى به حبه النهي عن المنكر إلى استعمال العصا أحيانا.
وقد أظهر بهذا البلد تدريس العلم والوعظ.

فاجتمعت عليه الناس ومالت اليه القلوب. فخاف العزيز عاديته. فأمره بمغادرة المدينة. فخرج إلى قرية بجوار بجاية يقال لها ملالة. فرحبت به قبيلة بني ورياغل وبنى أبناء العزيز مسجدا انتصب فيه للتدريس. فتقاطر عليه الطلبة من كل مكان. فقام بتلك القرية أشهرا. وكان بها رجل اسمه عبد المؤمن بن علي الكومي، ولد بتاجرة بنواحي ندرومة وذلك سنة 490هـ / 1096 م. قد نشأ وتعلم القرآن بها. وأراد الإستزادة من العلم. فنزح عن بلده إلى تلمسان، وانكب على الدروس. فأخذ عن القاضي صاحب الصلاة والفقيه عبد السلام التونسي الذي قضى نحبه في تلمسان ودفن بالعباد، وكل من ترجم له يخبرنا أنه كان من أكبر العلماء في الفقه والتوحيد. ومن تلمسان قصد عبد المؤمن ملالة، فاستقر بها مؤقتا ريثما يواصل سيره إلى المشرق لينهل ما أمكنه من حياض العلم والمعرفة. فاتصل به ابن تومرت وسأله أن يصحبه إلى المغرب الأقصى لإماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع[1]. فأجابه عبد المؤمن. وقد سمع طلبة تلمسان بابن تومرت، فأرسلوا إليه أن يتقدم إلى بلدهم يأخذون عنه. فلبى دعوتهم وغادر ملالة صحبة عبد المؤمن حتى وصلا إلى تلمسان. فأقاما بأقادير، وانتصب إبن تومرت إلى التدريس. فوضع في النفوس هبة وفي الصدور عظمة[2]. ولازال بتلمسان يحث الناس على المعروف وينهاهم عن المنكر ويلوم على الفقهاء عبيد النار والدرهم، عدم اكتراثهم بما يقوم حولهم من البدع

(1) المراكشي: المعجب ص: 180
(2) المراكشي: المعجب ص: 180

والمنكرات. فوجد هؤلاء الفقهاء أن مبادئه تخالف مبادئهم. فتيقنوا أن بقاءه بين ظهرانيهم خطر عليهم. فأشاروا إلى الوالي المرابطي بإبعاده، فنفذ الوالي طلبهم. فخرج محمد بن تومرت وفي قلبه ما فيه قاصدا المغرب.

يحي بن العزيز بن المنصور

تولى يحي بن العزيز بن المنصور الملك بعد أبيه سنة 515هـ/ 1121م. فكان أديبا مثل أبيه، رصينا لكنه مغرم بالصيد واللّهو منهمك في شهواته. وكان له ولد، ولاه الأمر من بعده وفوض إليه الأمور في حياته. فجعل الولد يتستنقص الوزير ميمونا ويقبح أفعاله ويسميه الشيخ الكذاب. فخاف ميمون على نفسه وخاطب أبا محمد عبد المؤمن.

عوض أن يهتم يحي بمشاكله الداخلية بعث عسكرا إلى المهدية تحت قيادة ابن المهلب. فحاصرها، فامتنعت عليه سنة 522هـ / 1128م وتخلى عنها. وابن عذاري صاحب هذا الخبر لم يحدثنا عن سبب نكوصه. وفي نفس السنة زحف مطرف بن علي بن خزرون الزناتي إلى تونس، وفتح في طريقه قرى ومدنا. فاحتل عاصمة بني خراسان وأجلس على عرشها كرامة بن المنصور على حساب صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخراساني، وأرسل هذا بأهله إلى بجاية. فبقي كرامة واليا على تونس تحت إشراف دولة بني حماد إلى وفاته بها. فخلفه عليها أخوه أبو الفتوح بن المنصور، ثم حفيده محمد. ولم يلبث أن عزله يحي لسوء سلوكه، وولى مكانه عمه معد بن المنصور. فبقي هذان إلى أن زحف النورماند على تونس سنة 543هـ/ 1148م. فخرج معد إلى بجاية.

عاود الحماديون غزو المهدية سنة 530 هـ/1135م وانشبوا القتال برا وبحرا. فساعد العرب الزيريين، فانتصروا واستولوا على غرابين من أسطول بجاية وقتلوا رئيسيها. فرحل عسكر يحي عن المهدية بعد إقامته هناك سبعين يوما.

اتفق أن فسدت العلاقات بين الحسن الزيري وروجر. فأرسل هذا قائده جيرارد إلى المهدية، فاقتحمها ودخلها عنوة. فتعين على صاحبها الحسن أن يغادرها، وتبعه أهل البلد فارين من العدو الذي راح بعد ذلك يغزو جميع موانئ افريقية. ولم يقنع روجر بضمها إلى ملكه، فأمر بمهاجمة الموانئ الحمادية. فقصد أسطوله جيجل. فترل الأعداء اليها سنة 537هـ/1143م وانتهبوها وأحرقوا دورها وخربوا قصر الترهة الذي شيده يحي العزيز فوق جبل عيوف مشرفا على المدينة تجاه البحر. وأولئك الذين ساعدهم الحظ أن ينجوا من القتل ابتنوا بلدة حصينة بجبل عال هناك يستقرون بها في الصيف حيث يظهر أسطول العدو ويترلون إلى الساحل في الفصول الأخرى. وقد أعاد النورماند غزوهم على المغرب الأوسط، فاحتلوا في سنة 538هـ/1143م مدينة جيجل ثانية ثم مدن برشك وشرشال وتنس، ولكن لم يدم نفوذهم عليها ولا على افريقية.

لما فقد الحسن بن يحي بن تميم ملكه أجمع على أن يقصد عبد المؤمن لعله يساعده على استعادته. فأرسل كبار أولاده يحي وتميما وعليا إلى يحي بن العزيز يستأذنه في الوصول إليه وتجديد العهد به والمسير من عنده إلى عبد المؤمن. فكان له ذلك. فأمّ بونة التي كان عليها الحارث بن المنصور، ثم توجه إلى قسنطينة وصاحبها سبح بن العزيز، ومن ثم

إلى مدينة الجزائر حيث استقبله القائد بن العزيز استقبالا يليق بمقامه في محرم سنة 544هـ/ماي 1149م. فأمر وزيره ميمون بن حمدون أن يكون عينا عليه وأن يمنعه بإتصاله بعبد المؤمن مباشرة أو مكاتبة، وذلك خوفا من أن يكون قدوم عبد إلى المؤمن افريقية فرصة للاستيلاء على مملكته. فمكث الحسن بمدينة الجزائر إلى أن زحف عبد المؤمن صاحب ابن تومرت إلى بجاية. قام هذا عند إيابه من المشرق بحركة بالمغرب الأقصى قامت على أساس مزدوج ديني وسياسي. مات يوم الإثنين 14 لشهر رمضان من سنة 524 هـ. فخلفه عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة. وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى استفحل أمر الموحدين على حساب المرابطين.

أخذ عبد المؤمن يتجول على رأس جيش ضخم قوي في البلاد المغربية. و لم يقنع بذلك، فانتقل إلى أحواز تلمسان، وبايعه أكثر زناتة المستوطنة بها[1]، ونزل برأس الجبل الذي يعلو المدينة. ونزل تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين المرابطي على الجانب الآخر من البلد وقد انشق عليه بنو ومانو من بطون زناتة الذي كانوا أحلافهم ضد بني حماد، وقدم أشياخهم طاعتهم للموحدين. وكان بنو يلومي وبنو عبد الواد من أنصارالمرابطين. فسار إليهم فيلق من الموحدين تحت رئاسة ابن وانودين وابن زجو وابن يومر وعاشوا في بلادهم واستاقوا كثيرا من الغنائم وكانت المناوشات تنشب كل يوم بين المرابطين والموحدين، واستمر ذلك مدة شهرين و لم تقع معركة حاسمة. وكان قدم جيش من بجاية يساعد المرابطين. فعيل صبره، فاشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في ظاهر الصخرتين، لكنه هزم، وقتل منه عدد غفير، وبعث

قائده إلى عبد المؤمن سرا يعده بالتوحيد وأنه متى افتتح المغرب فإنه، إذا ورد المشرق، وجده مفتوحا كذلك. وكان تاشفين قد ابتنى بوهران حصنا منيعا على البحر كي يحتمي به عند الحاجة فقرر أن يترك محله في تلمسان ويغادرها في قواته وهران. ولكن ما كاد المرابطون يتحركون نحو الشمال حتى سار في إثرهم عبد المؤمن في قوته، وبعث في مقدمته الشيخ، أبا حفص عمر بن يحي الهنتاتي، وعسكرا من بني وامنوا فنفذوا إلى بلاد بني يلومي وبني عبد الواد وبني رسفين وبني توجين من زناتة وكانوا من أنصار لمتونة. فاثخنوا فيهم حتى استسلموا وأجمعوا على أن يرسلوا إلى عبد المؤمن زعماءهم ليقدموا طاعتهم إليه. فتلقاهم بالقبول وضمهم جنده.

أما في وهران فقد قضى تاشفين نحبه، وانهزمت جيوشه، وتقلص ظل المرابطين من المغرب الأوسط.

سقوط الدولة الحمّادية

غادر عبد المؤمن وهران ظافرا، وقصد تلمسان،فدخلها عنوة، ثم عقد عليها لابن وانودين الهنتاتي، وترك معه ولده يوسف معاضدا له وناصرا، وانطلق في قواته نحو المغرب الأقصى في ربيع الثاني سنة 540هـ/أكتوبر1140م، بنية العودة فأخذ يتدخل حربيا في الأندلس منذ سنة 541هـ، وقبل أن تتم له السيطرة على تلك الديار زحف سنة 546هـ قاصدا إلى ما وراء إقليم تلمسان يقوّض مملكتي بني حماد وبني زيري ويضمهما رقعته. فشخص سبتة. فأقام بها مدة يعمر الأسطول ويجمع العساكر، والناس يظنون أنه يريد العبور إلى الأندلس.

فأرسل إلى قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب الأقصى برا وبحرا. وبغتة خرج من سبتة في صفر من سنة 547 هـ/1152م والعساكر تلقاه في طريقه. فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكان ملكها يحي بن عبد العزيز بن حماد، وكان مولعا باللّهو والصّيد لا ينظر في شيء من أمور مملكته، كما سبق أن قلنا، فقد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل بميمون بن حمدون خبر نزول عبد المؤمن بنواحي بجاية، جمع العساكر وسار نحوه وفاء بما وعده بتلمسان، وفتح له باب بجاية. فدخلت[1] مقدمة عبد المؤمن بجاية، قبل وصوله إليها، وتفرق عسكر يحي بن عبد العزيز وهربوا. إلا أن ابن الأثير يقول[2]: «ان ابن حمدون بالعكس خرج في قوات بجاية، وهي تزيد على عشرين ألف فارس». فلم ير آخر ملوك بني حماد إلا أن يفر إلى بونة[3]، وأخواه الحارث وعبد الله إلى صقيلية حيث استظلا بحماية الفرنج. ومن بونة انتقل يحي إلى قسنطينة. فامتنع بها مع أهله وقرابته. إلا أن الموحدين حاصروه هناك. فاضطر إلى أن يرسل اخاه وشيوخ صنهاجة وقسنطينة عبد المؤمن يعلنون خضوعه ويطلبون الأمان. فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوا.

دخل بجاية سنة 547 هـ/1152 م فأمن أهلها ولم يتعرض مالهم، وسبب ذلك أن بني حمدون استأمنوا فوفى بأمانه[4].

(1) الحلل الموشية ص: 124

(2) الكامل جـ 11 ص: 158

(3) المعجب ص: 123

(4) ابن الأثير: الكامل جـ 11 ص : 159

فلم ير صنهاجة بعين الرضى استيلاء عبد المؤمن على عاصمتهم، فثاروا، وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن. فأرسل إليهم جيشا تحت قيادة أبي سعيد يخلف. فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية. فانهزم أبو قصبة وقتل أكثر من معه ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم.

لما صفا الجو للموحدين في بجاية ساروا إلى القلعة وهي من أحسن القلاع وأعلاها. فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤوس الجبال. فدخل جيش عبد المؤمن ، وقتلوا صاحبها حوشن بن العزيز وأخذوا جميع ما فيها من مال وغيره وبقيت خرابا يبابا.

كان عبد المؤمن عالما أديبا ويقرب إليه العلماء والأدباء، فلا يفارقونه في السلم ولا في الحرب. أنصت إلى أبي عبد الله بن حبوس الفاسي الذي شاهد مع الخليفة فتح بجاية.

من القوم بالقرب تصغي	*حديثهم أذن المشـــرق*
جرّوا والمنايا غايـــــة	*فلم يسبقوها ولم تسـبق*
بأيديهم النار مشـــبوبـة	*فمهما تصب باطلا تحرق*
يقودهـــم ملـــك أروع	*تفرّد بالسؤدد المطلـــق*
تخـــيره اللــــه من آدم	*فما زال منحدرا يرتقـــي*
الناصرية سرنا معـــــا	*ولما تفتنا ولم تلحـــق*

ولما استولى عبد المؤمن على قسنطينة أرسل كتابا إلى أهل تلمسان يعلم الطلبة[1] والموحدين بالفتح ويخبرهم بالفوز على بني حماد، وقد دبّج الرسالة أبو عقيل عطية يقول فيها:

(1) العلماء الكبار

«أما بعد، فالحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء على العموم والإطلاق، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والإنفاق، وتمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والإتساق، والصلاة على نبيه محمد المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازرين أولي التبواء مرتضاه والاستباق، والرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم على الأعلام، وذخيرة الإيمان والإسلام، وبدر الكمال والتمام، الطالع بأشرف مطامع الإشراق، الفارع عن تطاول الرؤوس والأعناق، والجامع أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق. وهذا كتابنا إليكم.. كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة، ومكن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الأنالة والإفادة، ويبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة من حضرة بجاية ــ حرسها الله ــ من أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده فتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده، وبشائر يتره بشرها وسماحها عن الجري على معتاد الدّأب والمألوف ومعهوده، وآيات بينات أغنى تجلّيها وانتضاحها من كل برهان وجحوده. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. وقد تقدم أعلامكم، واصل الله سروركم، وضاعف شكوركم، بما كان من صنع الله تع في فتح هذه البلاد التي يصر مرامها بحوله واقتداره، ونور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره، وصير أباطحها وآكامها من مواطئ أوليائه وأنصاره، وإنّ أبا زكريا يحي بن عبد العزيز بالله بن المنصور وجميع إخوته وقرابته وخوولته حين أتاهم الرائد الذي لا يكذب أهله، وانتاحهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله، لم يكن لهم بدّ من التولي عن قرارهم والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم لأمر قضى الله فيه لهذا

الآمر المبارك بخير قضائه... فكان مأمّهم الذي اعتقدوا منعته وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته، بلد قسنطينة، عمره الله لكونه بحيث لا ينال بقدرة مخلوق».

نجتزي بهذه الفقرة لأن الرسالة ما زالت طويلة.

لقد فرح يحي لما خرجت بلاد افريقية من يد ابن عمه الحسن بن علي، وكان يذمه ويذكر معايبه. فلم تطل المدة حتى قوض ملكه. وأتى الحسن عبد المؤمن في جزائر بني مزغنة. فأحسن إليه وأدناه إلى أن فتح المهدية، فجعله فيها وأمر واليها أن يقتدي برأيه ويرجع قوله [1]. أما يحي بن عبد العزيز فقد صحب عبد المؤمن إلى حاضرة مراكش «فأعمره الديار وأقطعه الضياع وأقام هو وبنوه تحت إكرام وميرة إلى أن انقرضوا».[2] فلا يرقى لنا ظل من الشك في قول صاحب الحلل الموشية هذا، فإن عبد الواحد المراكشي يؤكد لنا ذلك حيث يقول في معجبه[3]: «كر (عبد المؤمن) راجعا إلى مراكش ومعه في جنده يحي بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته. فحين وصلوا مراكش أمر لهم بالمنازل الواسعة و المراكب النبيلة والسكنى الفاخرة و الأموال الوافرة، وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله، ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما. وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها». وهذه العناية تظهر جليا فيما حكاه المراكشي أن يحي كان في مجلس عبد المؤمن يوما. فذكروا بعذر الصرف. فقال يحيى: «أما أنا فعلـــيّ

(1) الكامل جـ 11 ص: 159
(2) الحلل الموشية ص: 123 ـ 124
(3) ص: 124 .

من هذا كلفة شديدة، وعبيدي في كل يوم يشكون إليّ ما يلقونه من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف»، وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب، فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بيعاتهم ـــ فلما قام يحي بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها، وقال لرسوله: «قل له: لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا».[1]

فهكذا تستمال القلوب وتذهب الضغائن والأحقاد. فلم يعد يحي يفكر في أمر السياسة ولا في أبهة الملك بل «تحامل وتجاهل وأشغل نفسه بالصيد واستعمل شباك الحديد لصيد الأسد وكان يهديها للخليفة عبد المؤمن فيثيبه عليها، وأنه أصاب في بعض الأيام شبلا أدخله على الخليفة في مجلسه، فأمر بحله من عقاله، فمشى الشبل بين الناس يخترق الصفوف حتى وصل إلى ما بين يدي الخليفة فتربص وسكن لا يتحرك من موضعه.[2]

ولم يستقر يحي نهائيا بمراكش. فلما انتقل عبد المؤمن إلى سلا سنة 558هـ/1163-1164م رافقه إليها وسكن قصر بني عشيرة،[3] وبقي هناك إلى أن توفي في سنته، ودفن في إحدى مقابر الجهة الشمالية المحاذية لساحل البحر.

ليس من الغريب أن تسقط الدولة الحمّادية بهذه السهولة في يد عبد المؤمن، فلم يقصدها إلا وهو متيقن من فتحهـــا. فقد أقام بملالة

(1) الحلل الموشية ص: 124
(2) الحلل الموشية ص: 124
(3) العبر جـ 6 ص: 364

من بجاية ورأى عن كثب أن أمارات التدهور أخذت تبدو جليا في هيكل الدولة، كيف لا وأن الحضارة الحمّادية في عهد الناصر والمنصور وصلت إلى أوج الكمال بالنسبة إلى حضارات الحوض المتوسط والحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة.[1] فمن الطبيعي، إذن، أن تأخذ الدولة الحمّادية في الانحطاط. وهناك عوامل شتى استعجلت خطاها إلى حتفها. فملك الحمّاديين كغيره مبناه الشوكة والعصبية، ومتى ضعفت الشوكة والعصبية اخذ ظل الملك يتقلص شيئا فشيئا حتى يتلاشى. ولقد انحط شأن شوكة وعصبية الحمّاديين في عهد العزيز وابنه يحيى. فالأول كان لا يهمه إلا الأدب والمناظرات بين الأدباء والعلماء، لا يكترث بحل مشاكل دولته، وما أكثر ما كانت تلك المشاكل! والثاني كان ضعيفا لا يحلو له إلا اللهو والصيد. أما ملكه فيدبر أمره وزيره ابن حمدون الذي لا يمت للأسرة الملكية بصلة عرقية البتة والذي كان بينه وبين عبد المؤمن كتب ومداخلة.[2] والجيش خليط لا عصبية تربط بين أفراده، إن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم.[3]

وأضف إلى ذلك أن البلاد اكتسحها هلال ورباح، عناصر الفوضى المنافية للعمران.فكيف، يا ترى، تبقى شوكة هذه الدولة قوية تهابها الدول الأخرى فلا تطمع فيها؟ بل أصبحت هذه الدولة عاجزة عن صد هجوم الموحدين عليها.فإنهم جاءوا في الوقت المناسب لقطف الثمرة اليانعة، فما عليهم إلا أن يهزوا الفرع لتسقط الثمرة في أيديهم.

---

(1) المقدمة ص: 374

(2) الحلل الموشية ص: 123- 124

(3) المقدمة ص: 294

فقد قوضوا العرش الحمّادي، ولكن لا بد لهم من جهود أخرى يبذلونها ليتأتى لهم تذوق حلاوة تلك الثمرة. فالمنطقة مملوءة بعناصر البدو، عناصر الاضطراب والتخريب، فكسر شوكة هؤلاء أمر ضروري حتى يسود البلاد الهدوء والاطمئنان، فلا يكون التقدم والرقي إلا بواسطتهما. فلم يكتف هؤلاء الأعراب بالإغارة على مؤخرات الموحدين والهجوم على محلاتهم، فاجتمعوا لمقاومتهم وإخراجهم من المغرب الأوسط. فاعتزم عبد المؤمن أن يطهر المنطقة من عيثهم، وسار في قواته إلى سطيف. فعسكر هناك، ثم جهز لقتالهم حملتين الأولى بقيادة صهره وزوج بنته عبد الله بن وانودين والثانية بقيادة يصلاتين بن المعز. ومما يؤسف له أن ثار بين القائدين خلاف. فنكص يصلاتين وترك زميله يواجه وحده العرب. فانتهز هؤلاء هذه الفرصة وهاجموا قوات عبد المؤمن إلا أن هذا حشد كافة الموحدين لمقاتلتهم.فلما شعروا بوطأة الخصم افترقت كلمتهم وأذعن بعض زعمائهم إلى التوحيد. فحمل عند ذلك الموحدون على ما بقي من العرب. فدامت المعركة يومين وليلة، وكان النصر حليف عبد المؤمن.فقتل عسكره زعيم القوم، هلال بن عامر، واستولى على ما ترك العرب من أهل ومال وأثاث ونعم. فقسم عبد المؤمن الأموال على عسكره، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم، وأمر بصيانتهم. وهذه الموقعة كانت في شهر ربيع الأول سنة 548هـ/1153م. فتفرغ عبد المؤمن إثر ذلك لتنظيم شؤون بجاية وندب لولايتها ولده أبا محمد عبد الله. وسار جيشه الظافر أولاً إلى تلمسان ثم المغرب وفي ركبه نساء العرب وأولادهم. فأنزلهم في المساكن الفسيحة بمراكش وأجرى لهم النفقات

الواسعة. وكاتب أمراء العرب أن يحضروا ليسلم لهم عيالهم. فأقبلوا. فزودهم بالمال ورد إليهم نساءهم وأولادهم وصرفهم إلى بلادهم.

تحرك سنة 548هـ أسطول روجر وقصد مدينة بونة تحت قيادة فيلب المهدوي، فحصرها واستعان بالعرب عليها، فأخذها في رجب وسبى أهلها وملك ما فيها، غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى المجاورة. فأقام ببونة عشرة أيام وعاد إلى المهدية، ومن هناك إلى صقلية. فقبض عليه روجر لما اعتمد من الرفق بالمسلمين. ومما يزيد الطين بلة أخبر روجر بأن فيلب مسلم. فجمع ذلك الملك الأساقفة والقساوسة والفرسان، فحكموا بأن يحرق، فأحرق في رمضان. ولكن، ما هي إلا أيام حتى مات روجر في العشر الأول من ذي الحجة وخلفه ابنه غليام وكان فاسد التدبير.

لما كانت سنة 551هـ قوي طمع الناس في هذا الملك. فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة فرقنة وجميع إفريقية ما عدا المهدية وسوسة. اجتمع أهل زويلة وأهل صفاقس وحصروا المهدية وضيقوا عليها، وكانت الأقوات بها قليلة. فأرسل إليها غليام الرجال والطعام والسلاح. فخرج النورماند من الغد، فاقتتلوا، هم وأهل زويلة، فانهزم المسلمون، واستقر الافرنج بالمهدية إلى أن أخذها عبد المؤمن حيث قصده وفد منهم وهو بمراكش يستجيرونه، فلبى نداءهم. فأمر بالاستعداد إلى السفر وكتب إلى جميع نوابه في المغرب، وكان قد ملك قريب تونس، يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات. وفي صفر سنة 554هـ، خرج من عاصمته يطلب افريقية في مائة ألف مقاتل، وبلغ

من حفظه لعساكره أنهم كانوا يمشون بين الزرع فلا تتأذى بهم سنبلة. وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحي بن تميم الذي كان صاحب المهدية وافريقية. فملك عبد المؤمن تونس والمهدية وجميع افريقية وأجلى الفرنج. وأقام بالمهدية عشرين يوما، فرتب أحوالها وأصلح ما تثلم من سورها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد، واستعمل عليها الهنتاتي وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه وأفعاله، وأقطع بها الحسن أقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده.

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العودة إلى المغرب الأقصى جمع أمراء العرب بني رباح الذين كانوا بافريقية وطلب منهم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله بالأندلس حيث استفحل أمر المشركين واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين. فأجابوا على طلبه. فحلّفهم على ذلك بالله وبالمصحف. فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان. إلا أنهم تراجعوا وهربوا إلى عشائرهم.فواصل عبد المؤمن سيره حتى وصل إلى موضع يقال له وادي النساء بقرب قسنطينة. فترل. ثم جهز إلى العرب ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من شجعان الموحدين.فقصدوهم. فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول إليها إذا راموا ذلك. فناجزهم الموحدون القتال في العشر الأوسط من ربيع الثاني من سنة 554هـ. فاشتد القتال بين الطرفين وكثر القتل.فاتفق أن محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح.فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا

البيوت والحريم والأولاد والأموال. فحمل ذلك كله إلى عبد المؤمن. فأمر بحفظ النساء العربيات وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى المغرب الأقصى. فلم يصبر العرب على حريمهم. فأقبلوا إلى عبد المؤمن. فرحب بهم، ورد عليهم حريمهم. فلم يبق أحد منهم إلا صار تحت حكمه. فبدل فيهم الإحسان. ثم جهزهم إلى ثغور الأندلس. فهكذا انتزع عبد المؤمن ما كان بأيدي الذين إستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجبايات فلم يبق المشكل العربي. فوجد عبد المؤمن حله بالتي هي أحسن. فللمرة الأولى استطاعت افريقية الشمالية أن تتوحد تحت راية عبد المؤمن الكومي الندرومي الجزائري.

القسم الحضاري

عمران المغرب الأوسط
المدن ، الطرق وإمكانيات البلاد الزراعية

ان المدن كانت قديماً قليلة في المغرب، ويعلل ابن خلدون هذه الظاهرة في مقدمته بقوله: «ان المدن والأمصار بافريقية والمغرب قليلة. والسبب في ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدويا، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى يستكمل أحوالها. والدول التي ملكتهم من الافرنجة، والعرب لم يطل أمد ملكهم حتى ترسخ الحضارة منها. فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها. فكانوا اليها أقرب. فلم تكثر مبانيهم، وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر، لأنهم أعرق في البدو. والصنائع من توابع الحضارة وإنما تتم المباني بها، فلا بد من الحذق في تعلمها. فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوق الى المباني فضلا عن المدن، وأيضا فهم اهل عصبيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح الى البدو، وإنما يدعو الى المدن الدعة والسكون ويصير سكانها عيالا على حمايتها. فتجد أهل البدو لذلك يستكنفون عن سكنى المدينة أو الاقامة بها، فلا يدعو الى ذلك إلاّ الترف والغنى وقليل ما هو في الناس. فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارا ورساتيق من بلاد الاندلس والشام ومصر وأعراق العجم وامثالها، لأن العجم ليسوا بأهل انساب يحافظون عليها ويتباهون بها في صراحتها والتحامها الا في الأقل. وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل

الأنساب لحمة النسب أقرب وأشد، فتكون عصبيته كذلك ولا تترع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيّره عيالا على غيره»[1]كان في عهد الفينيقيين قرطاجة وموانئ صغيرة طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

وفي عهد الرومان كانت قسنطينة وسطيف وتمقاد وجميلة وتبسة وقالمة، وباغاية ومقرة ومليانة وتلمسان، والموانىء التي أزالوها من يد الفينيقيين:

هيبون وسكيكدة وجيجل وبجاية(صلدي) واكسيوم وشرشال وتنس ومرسى الكبير وصيغة والغزوات. ولكن هذه المدن وهذه الموانئ ضعف شأنها عندما زال الرومان وغيرهم من المستعمرين. ثم دخلت الحضارة الإسلامية وكان للمغاربة حظ وافر في ازدهارها. فأسست مدن وقرى لم يكن بعضها في معزل عن بعض. كانت طرق تصل الواحدة بالأخرى. فإن جغرافيّي العرب مثل اليعقوبي وابن حوقل والمقدّسي والبكري والإدريسي وصاحب الإستبصار وياقوت وغيرهم أخبرونا عنها ووصفوا لنا ما قد أسر أنظارهم مدة زيارتهم لهذه الديار، ولكن،قلما تختلف أوصافهم مع أنهم لم يعيشوا في وقت واحد. فلا غرو، إن الأحوال البشرية لا تتغير تغيرا جذريا بين عشية وضحاها وبالأحرى المحيط الطبيعي. فقد تمادى الناس في حياتهم على طريقة من سبقوهم في الفلاحة والصناعة والزي والمعاش في إطار طبيعي خاص أثر في أمزجتهم وعقولهم ونشاطاتهم.

---

(1) المقدمة ص :357

كانت تبسة تقع في سهل عال شرقي وادي شبرو تحيط بها البساتين وغابة من شجر الجوز. قد تهدم بعض أسوارها إثر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتربطها شتاء بالقيروان طريق تمر بمجانة والأرسس وسبيبة، وصيفا بمرجانة. فكانت هذه المدينة نقطة تجارية حساسة تحط بها القوافل. وكان بها أقباء يأوي كل منها ألفي دابة. وهذا في أوائل القرن الحادي عشر أما بعد ذلك فقد تضررت من وجود هلال بمنطقتها حتى لم يبق معمورا منها إلا القصر بحيث أن الإدريسي لم يذكرها البتة.

وبين تبسة وباغاية تقع مسكيانة التي، على قول ابن حوقل، تعقد بها سوق كل أسبوع، والتي تمتاز بمزارع مزدهرة لوجود المياه الغزيرة فيها. فهي أيضا أوسع من مرجانة. وباغاية هي الأخرى كانت كبيرة يحيط بها سوران إلا من الجهة الغربية حيث يلصقها ربض مسوّر أيضا وبه أسواق وحمامات وفنادق. أما الجامع فكان في وسط المدينة.و بما أن جبال الأوراس تجود عليها بالمياه الدافقة فكانت محفوفة بالأشجار المثمرة والمزارع والمراعي. فكانت تحت حكم مستقل في عهد ابن حوقل.وسكان الناحية بربر ينتمي بعضهم إلى مزاتة والبعض الآخر إلى ضريسة ولكنهم جميعهم اباضيون على عقيدة أهل باغاية. ويبدو أن بردها قارس في فصل الشتاء، فخوفا على إبلهم منه يلجأون إلى الصحراء لاعتدال الجو هنالك. فالأسواق كانت تعقد بالربض. أما في عهد بني هلال فتحولت إلى داخل المدينة كجميع أسواق المنطقة لأن هؤلاء كانوا يفرضون على البربر غرامات باهظة.

ويذكر لنا البكري أن بين باغاية وبملزمة مدينة قديمة اسمها قاساس تقع على نهر شرقي جبل عال. أما ابن حوقل فيحدثنا عن طريق تذهب من باغاية وتمر على بلزمة ونقاوس وطبنة وتلتحق بالطريق التي تذهب من مجانة الى تيجس وبونة، ومن تيجس تذهب طريق الى المسيلة مارة بقسنطينة وميلة وسطيف. بالقرب من جبل الونزة تقع مجانة المشهورة بالمطاحن التي تزود أسواق القيروان وأسواق جميع المغرب الأوسط.تسمى هذه البليدة بقلعة بسر وبسر هذا هو مؤسسها. ويقال لها أيضا مجانة المعادن لوجود معادن الحديد والفضة والمرتك والرصاص والإثمد بجوارها. يحيط بها سور، وتحتوي على جامع وأسواق وحمامات، وبقلعتها 360 صهريجا تملؤها مياه الأمطار. وكانت نقطة حساسة للمواصلات. وسكانها عرب. أما الضواحي فيعمرها البربر من لواته. وريفها الخصب يدر على الفلاحين المحصولات المختلفة من برّ إلى شعير إلى زعفران. إلاّ أن هذا أخذ يقل حين حل العرب بالناحية.

إن بين وادي ملاق وتفس تقع تادميت. لها سور من حجر وجيار، وعين ماء وبساتين ومراع ومزارع تدر على أصحابها الشيء الكثير من القمح والشعير. ويلي هذه المدينة غربا قصر الإفريقي الذي كان يعد بلدا هاما، وإن كان غير محصن، يقع في وسط مزارع القمح والشعير، والمراعي. منه تذهب طريق تمر بأركو المحفوفة بالعيون والبساتين ومزارع البرّ والشعير، وتمر أيضا بتيجس التي كانت مسورة وبها أسواق وجامع وحمام. سكانها بربر من نفزة وغروسة وبني أرتمو

وكزناية، ثم بمدينة المهريين الواقعة في وسط سهل يسكنه عشائر من كتامة ومزاتة والمحاذية لقرى تامسنة وذكّمة.

وبلزمة ايضا كانت تقع في سهل يكثر فيه المزارع. بين هذه المدينة وبجاية وقسنطينة مسيرة يومين. كان النفوذ فيها لمزاتة. وشرقي بلزمة تقع نقاوس وهي مدينة اللوز.

إن منطقة الاوراس كان يعمرها في القرن الخامس الهجري هوارة ومكناسة وجميعهم خوارج اباضيون. أما منطقة الزاب فكانت تحتوي على مزارع تنتج القمح مرتين في السنة، وكانت عامرة في وقت الادريسي. حل بها الهلاليون وسيطروا عليها وضيقوا على أهلها. إن مدنا كثيرة بُنيت في أرجائها أعظمها بسكرة. يحيط بهذه سور وخندق يجعلان السكان في مأمن من المغيرين عليها. وتحتوي على جامع ومساجد كثيرة وحمامات وثلاثة أبواب: باب المقبرة وباب الحمام وباب آخر سكت البكري عن ذكر اسمه. لا ينقص سكانها الماء، فالآبار في كل مكان، ولا الملح، فجبل الملح لا يبعد عنها. وتمتاز بالأشجار المثمرة المختلفة والزيتون ولا سيما التمر الذي يضرب به المثل في الجودة والمذاق. إن سكانها أقحاح، أما في ضواحيها فيكثر سدراتة ومغراوة الذين ينتمون إلى بني خزر وبني أزمرتين.

إن فقهاءها كانوا يدرسون العلوم الدينية على مذهب مالك. في جنوب بسكرة الشرقي تقع تهودة المسماة بمدينة السحر، فهي عامرة مبنية بالحجارة وتحتوي على جامع ومساجد وأسواق وفنادق ويجاورها أكثر من عشرين قرية عليها مزارع ونخيل وبساتين. سكانها عرب اكثرهم قرشيون وجميعهم عراقيون أي حنفيون. يصبّ نهر في جوفها

من جبل أوراس. فإذا كانت بينهم وبين غيرهم حرب وخافوا النزول عليهم أجروا ماء ذلك النهر في الخندق المحيط ببلدهم، فامتنعوا من العدو[1]. إن الجهة الشرقية من تهوذة يستقر بها الإباضيون من هوارة ومكناسة. فالإباضية راسخة فيهم منذ ظهورها في عهد الرستميين، وأضف إلى ذلك أنهم كانوا الساعد الأيمن لأبي يزيد بن كيداد الخارجي على الفاطميين.

إن ضريح الأمير عقبة بن نافع يقع في وسط قرية تسمى باسمه. أدخل عليه المعز بن باديس بعض التحسينات على حد قول أبي العرب وصاحب الاستبصار. وأهم مدينة في الجهة الغربية طلقة قد تحدث عنها البكري والمقدسي فكان بها ثلاثة أحياء الأول يسكنها الاقحاح يدعون المولودين والثاني به عرب يمنيون والثالث عرب قيسيون. وكانت المدينة محفوفة بالبساتين المزدانة بالزيتون والكرم والنخيل وأشجار مثمرة أخرى.

وفي الجانب الغربي من طلقة تقع بنتيوس المحاذية لمدن ثلاث محفوفة منها جامع وسور يحيط به خندق فالأولى يسكنها بنو جرف وهم من اصل فارسي والثانية يسكنها الأهالي وهم من دم خليط، والثالثة يعمرها بربر أصليون أباضيون. ويسقيها نهر يأتي من الجهة الشمالية. والمقدسي والبكري الإدريسي يذكرون قرى أخرى منبثة في تلك المنطقة التي تمتد جنوبها فيافي يسكنها بطون من مغراوة.

---

(1) الإستبصار ص: 62

ومنطقة الحضنة ليست اقل مدنا من الزاب نذكر لك بعضها، فنقاوس التي لها سور من حجر كانت ثرية يكثر في ضواحيها اللوز والجوز والعنب والقطن والحبوب. وأعظم سكانها من مكناسة وأوربة.
وأما طبنة فهي أكبر مدينة في الزاب حينئذ على قول اليعقوبي. أما على حسب البكري فهي أهم مدينة ما بين القيروان وسجلماسة، ويؤكد لنا ذلك ابن حوقل. كان يقع بها فتن يثيرها العرب والأهالي قد تؤثر في عمرانها ورخائها، ولكن لم يلبث أن يعود إليها اطمئنانها وازدهارها الذي ينوه به الإدريسي. فكان يحيط بها سور من طوب بأحد جوانبه قصر هائل مبني بالحجارة وبابه من حديد، يقيم به العمال، وبه جامع وحوض يأتيه الماء من وادي طبنة وتسقى به بساتين المدينة. ومن باب خاقان إلى باب الفتح يمتد سماط به دكاكين على يمينه وشماله. وكان باب ثالث،باب تهوذة، من الجهة الجنوبية، وباب رابع، باب الجديد، ودفتا كل من هذه الأبواب من حديد. وكان باب خامس يسمّى باب كتامة لأنه يفتح جهة منطقة كتامة. وبنواحي طنبة تقع قرى أهمها واحدة يخرج إليها من باب الفتح ومحاطة بسور بني في وقت عمر بن حفص المهلبي الذي جدد بناء طبنة. فالمنطقة خصبة يسقيها وادي بيطام، وغنية تجد فيها ما شئت من بر وشعير وكتان وتمر وقطن وفواكه أخرى، ومن بقر وغنم وخيل وبغال وطبنه كانت مركزا هاما للمواصلات بين الزاب والحضنة والأوراس وبلزمة من جهة وللتجارة والصناعة من جهة أخرى، تبعد طبنة عن المسيلة بمسيرة يوم وبينهما تقع مقرة على واد يسمى باسمها وبها مرصد أعلن عنه ابن حوقل ويكثر بضاحيتها الكتان والحبوب والثمار وتربط هذه المدينة بالقلعة طريق منذ الفاطميين.

على وادي سحر تقع المسيلة ولا تزال قاعدة الزّاب وأهم معاقل المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري، إلا أن أهميتها أخذت تضعف منذ شيدت القلعة فقد بنى بها بنو حمدون قصورا فخمة ذهب أثرها إلا من شعر ابن هانئ مادح تلك الأسرة فكان يحيط بها سوران من طوب يفرق بينهما قناة تزيد في منعتها وتسقى بمائها بساتين ضاحيتها، فكانت مركزا تجاريا هاما، وكانت عامرة حتى بعد أن دخلها هلال. وبها أسواق وحمامات وكان يصطاد من نهرها سمك دقيق ذو خطوط حمراء يفخر به أهل طبنة ويتهافت عليه أهل القلعة وبساتين المسيلة تكفي حاجات سكانها حنطة وشعيرا وثمارا وخضرا إن سفرجلها التنسي كان يصل إلى أسواق القيروان، وقطنها ممتاز ومراعيها عامرة بالدواب عامة وبالخيل خاصة لما اختطها المهدي الفاطمي سماها باسمه ونقل إليها ابنه، من القيروان، بني كملان الذين ساعدوا أبا يزيد الخارجي وقد أشرنا إليهم في القسم السياسي ويخبرنا ابن حوقل بأن نواحي المسيلة كان يعمرها بنو برزال وبنو زندج وهوارة ومزاتة وعلى قول البكري إن الجبل المجاور لها كان يسكنه عجيسة وهوارة وبنو برزال وسدراتة ومزاتة وبنو برزال القاطنون بالمسيلة وسطيف وطبنة وميلة كانوا حلفاء علي بن حمدون وشاركوا في المعركة التي لقي زيري بن مناد حتفه فيها لما قام بلكين يثأر لأبيه منهم خافوا على أنفسهم فهاجر عدد كبير منهم إلى الأندلس كان مهد تلكاته الأول غرب مدينة الجزائر.

وقبيل أن يجلس بلكين أبو الفتوح على عرش ولاية افريقية والمغرب انتشرت في ما بين القبائل الكبرى وطبنة تجدهم في كل مكان بين مليانة والمدية والجزائر شمالا وحمزة شرقا والمسيلة جنوبا فقوي

نفوذهم على حساب مزاتة وهوارة ونفزة وغيرهم من البربر الذين كانوا يسكنون بيوتا من الخُوص وعانوا الشيء الكثير من طرف بلكين، وعلى حساب مغراوة الذين طردو إلى المغرب الأقصى. أما بنو ومانو وبنو يلومي فمكثوا بديارهم وصاروا أحلافا لصنهاجة وانتهزوا ضعف هؤلاء ليتوسعوا ويفرضوا وجودهم في المغرب الأوسط فإنهم خدموا الحمّاديين، ولكنهم بعد سنة 470هـ/1077-1078م، مالوا إلى المرابطين وأعانوهم على المنصور بن الناصر، كما سبق أن قلنا في القسم السياسي أما هلال فقد استولوا على البسائط وطردوا زناتة إلى النواحي الجبلية من الزاب والتل، أما أشير فقد حدثناك عنها في القسم الأول من الكتاب فقد خربها يوسف بن حماد أخو القائد بعد سنة 440هـ/1048-1049م فلم تستعد عمرانها إلا بعد سنة 455هـ/1063م.

عقد الفاطميون لزيري بن مناد على تاهرت سنة 349هـ/960-961م فتوسعت بها رقعته، وأراد أن يوسعها أكثر ويعزز إستراتيجيتها، فأمر ولده بلكين أن يجدد بناء جزائر بني مزغنة ومليانة والمدية، وربط بين كل منها وبين عاصمته بطريق وأشير كانت عاصمة تحتاج إلى شبكة من الطرق تربطها بالمنطقة التي بسط عليها زيري نفوذه، فالطريق التي تذهب من أشير إلى مرسى الدجاج تمر بقرية الشعبة ومضيق يؤدي إلى سهل واسع فيه الكافورية ينتفعون بجذورها وحمزة، التي تسمى باسم مشيدها حمزة بن سليمان العلوي، كانت تقع بسهل ومبنية بالطابية ويحيط بهما سور وخندق، وكانت تحت حكم صنهاجة ويذكر لنا البكري أن هناك طرقا تؤدي من هذا البلد إلى بلياس الواقع بجبل عال، ومن ثم إلى مرسى الدجاج وإلى مدينة

بني جناد، ويصف البكري الطريق التي تذهب من القيروان نحو مرسى الدجاج فيمر المسافر بالمسيلة ثم بعين أوزقور، ثم بسوق ماكسن وهي مدينة صنهاجية الواقعة على شلف ومسورة، ثم بمدينة جناد وهي صغيرة واقعة على جبل، ثم مرسى الدجاج، وفي الطريق الذاهبة من أشير نحو مدينة الجزائر يذكر البكري المدينة التي تسمى باسم بطن من صنهاجة وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، ثم مدينة فزروبة الواقعة بنواحي البليدة يمر بها نهر عليه أرحية وبساتين، ثم سهول المتيجة التي تكثر فيها الزراعة والمراعي، وكتاهما لا يكفي حاجيات السكان فحسب بل يصدر إلى مناطق أخرى ثم أغزر وهي المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى مدينة الجزائر.

أما ابن حوقل فيصف لنا الطريق التي تربط مدينة أشير بمليانة فإنها تمر برطل مازوغة الذي يكثر فيه الماء والزراعة ولعل سوق هوارة التي ذكرها البكري هي نفس رطل مازوغة ويلي هذه المحطة ريغة وهي قرية تقوم فيها سوق أسبوعية وتحف لها الأشجار والبساتين، ثم كران على شلف تقوم به أيضا سوق كل جمعة.

مليانة مدينة سكنها الرومان وأعاد بناءها بلكين بأمر أبيه زيري بن مناد فالمنطقة خصبة يسقيها نهر عليه أرحية وشرقي مليانة تقع الخضراء ومدينة وزيفان وتنس، وإلى هنا تنتهي بلاد صنهاجة وتبدأ منطقة زناتة التي ينتمي إليها بنو ورسفان القاطنون بنواحي الخضراء.

وأشير مرتبطة كذلك بتنس فالطريق تمر بلميانة ومدينة بني وارفن، ثم بشلف ومدينة جليداسن، ثم بمطغارة التي سكانها من الأندلس والقيروان والتي لم يدخلها بنو برقجنة منذ العهد الذي أرادوا

فيه أن يستولوا عليها سنة 398هـ/1007-1008م، وبسوق حمزة والمسيلة وبسكرة وبوسعادة ولغواط.

زار ابن حوقل مدينة الجزائر سنة 337هـ/948م، قبيل أن يجدد بلكين بناءها ووصفها لنا بقوله: «جزائر بني مزغنة هي مدينة عليها سور في سيف البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة شربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كثيرة أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم السائمة في الجبال. ولهم من العسل والسمن والتين ما يجهز ويجلب إلى القيروان وغيرها ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجأوا إليها، فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه». منذ عهد زيري بن مناد أخذت تستعيد مكانتها فابن حوقل يذكر لنا علاقتها بالداخل والمقدسي الذي زارها من بعده يخبرنا بأن يعبر منها إلى الأندلس فلم تكن في عهده متصلة بالداخل فحسب بل بالخارج أيضا ولا غرو، فبقدر ما تقوى اتصالاتها بقدر ذلك يقوى عمرانها ويزداد ازدهارها وتعرض البكري بعد المقدسي إلى الجزائر فيقول: «جزائر بني مزغنة هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار وازاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارات ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور للحيوانات بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة الجزائر كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدور من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد

إليها أهل السفن من أهل افريقية والأندلس وغيرهما». فالسفن لم تكن تقصدها من الأندلس فقط بل من افريقية أيضا فعلاقاتها البحرية تقوت في عهد بني حماد الذي عاش فيه البكري و لم تزل أهمية الجزائر في تصاعد بعده.

فالإدريسي يحدثنا عنها فيقول:«مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة، وتجارتها مربحة، وأسوارها قائمة وصناعتها نافعة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن في بلادهم كثيران وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل، ولهم حرمة مانعة».

فيتراءى من حديث هؤلاء الجغرافيين أن المغرب الأوسط عرف تطورا كبيرا فيما يخص العمران والاقتصاد وبلغ أوج الازدهار في عهد الدولة الحمادية وفي أوائل العهد الموحدي أيضا. والخارج من الجزائر إلى بجاية يمر بتامدفوس ثم بمرسى بني جناد، وبنو جناد هم زواوة وعلى ميل من هذا المرسى يصل إلى مرسى الدجاج، فإنه محاط من جهة البحر ومن جهة أخرى بسور به باب وداخل هذا السور يوجد جامع وأسواق وثمار هذه البلدة كثيرة أهمها التين الذي يصدره أصحابه إلى الآفاق وسكانها أندلسيون وكتامة. وفي عهد الإدريسي كان هؤلاء السكان يغادرونها في الصيف حذرا من نزول العدو النورماندي وقبل أن ينهي المسافر إلى بجاية يمر بتادلس التي يحيط بها

سور فالناحية خصبة جدا وذات مراع واسعة تعينها على إصدار الغنم والبقر إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة.

والخارج من الجزائر إلى شرشال يمر بمرسى جنابية ثم بمرسى الذبان ومرسى البطال، فقد ذكره ابن حوقل والبكري، أما المقدسي فلم يذكره في كتابه إذ لم يكن له أهمية كما يقول الإدريسي، إلا أن الناحية تجود بالأثمار الفاخرة ولا سيما السفرجل والعنب والتين ومحصولات البدو البر والشعير، فإنهم يعيشون بالزراعة وتربية النحل والمواشي.

ويذكر ابن حوقل أن برشيك التي تقع غرب شرشال على كدية بالقرب من البحر يحيط بها سور من طابية ونواحيها تجود بالفواكه والحنطة والشعير.

في شرق تادلس تقع بجاية وهي أهم مدينة في عصر الحمّاديين الناصر والمنصور فهي أزلية كما يقول البكري فبقايا سورها القديم من جهة المرسى دالة على ذلك عمرها القرطاجيون ثم الرومان ثم الأندلسيون. وفي عهد صاحب الاستبصار كانت عظيمة، ولها من جهة الشمال جبل عال صعب المرتقى يسمى أمسيون، فيه مياه سائحة وعيون كثيرة، وفي أكنافه جمل من النبات ينتفع به في صناعة الطب وتقابل المدينة من الجهة الجنوبية جبال الجرجرة الشامخة المكللة بالثلوج على الدوام، ومن الجهة الشمالية طرطوشة من الأندلس يدخل إليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب[1].

---

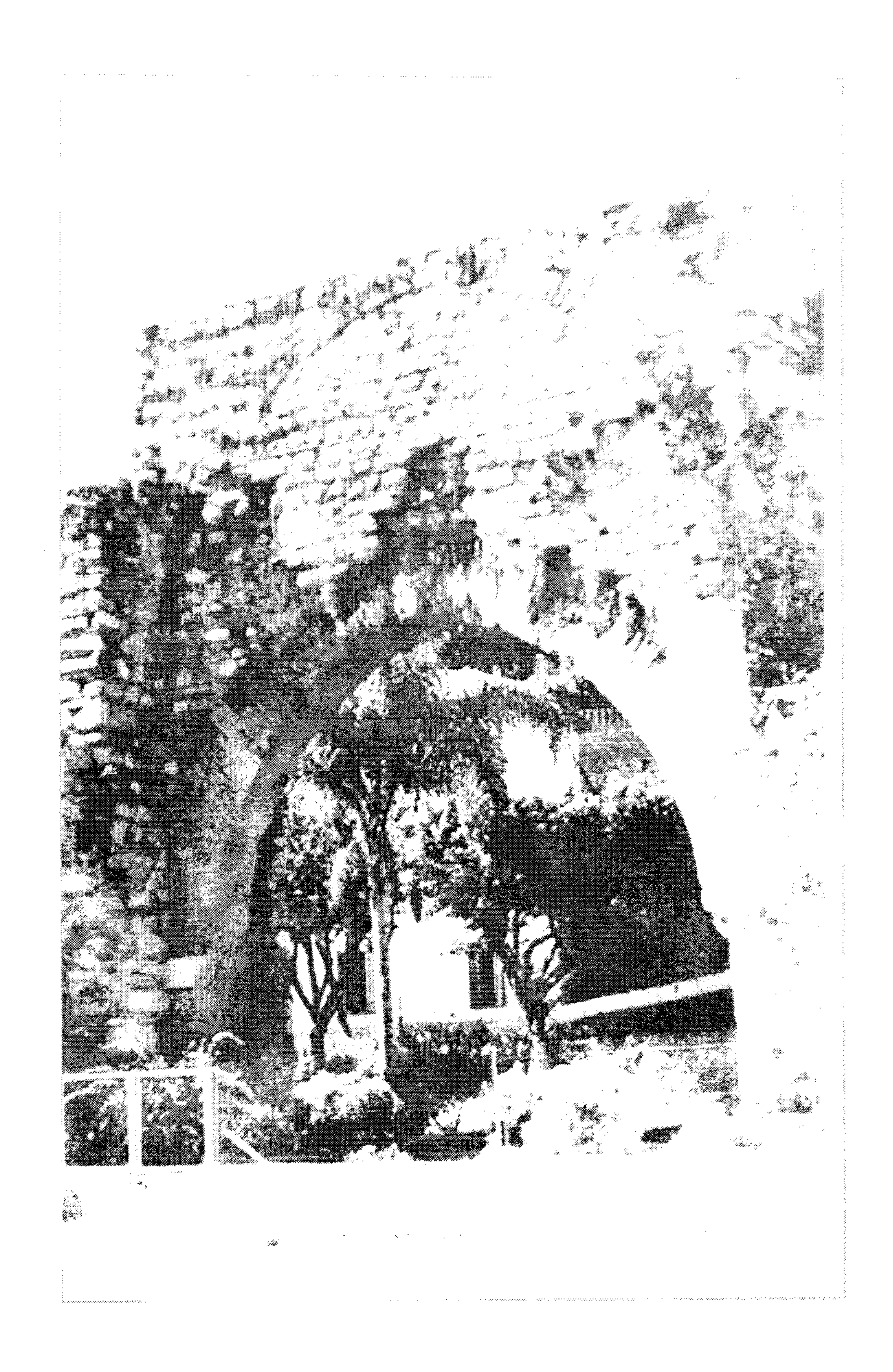
(1) القلقشندي: صبح الأعشى جـ 5 ص: 109

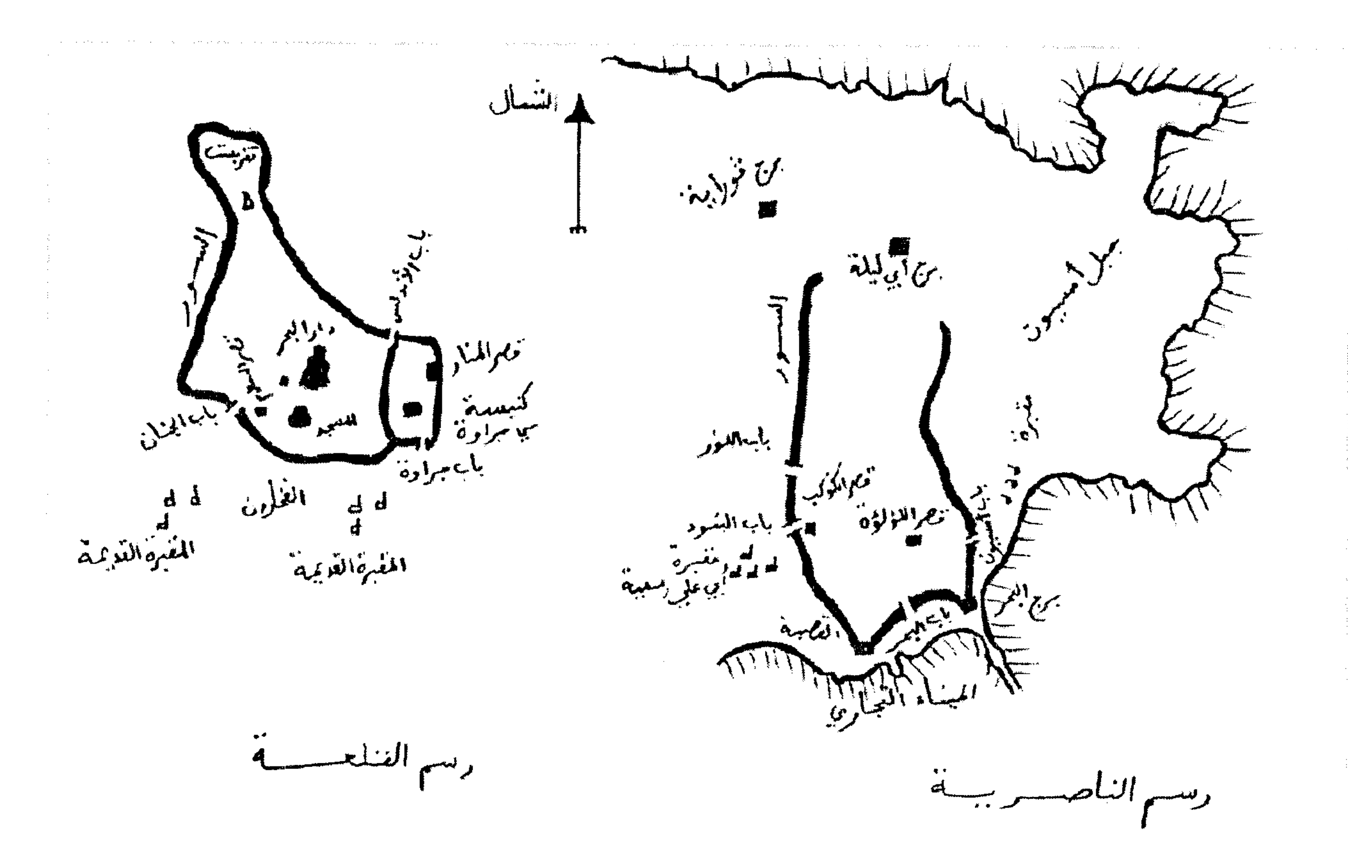
على المدينة سور عظيم[1] له أبواب كثيرة: يقع من الجهة الجنوبية باب البحر، ومن الجهة الشرقي باب المرسى وباب أمسيون وباب تاطونيت عرفه ابن تومرت وعبد المؤمن أما باب اللوز الذي مر به علي بن الغانية فيدخل معه الآتي من جهة جبل الخليفة، وتحته يقع باب البنود وباب باطمة والباب الجديد والمدينة مقسمة إلى 31 حيا وكان كلّ حي يسمى باسم الباب المحاذي له أو باسم مؤسسة قريبة منه، قد اقتبسنا هذين. الرسمين من الكتاب المسمى بجاية لوزارة الإعلام فالأول يمثل الناصرية وبالتأمل فيه نلاحظ أن السور لا يحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم فلا شك أن مهندسي الحمّاديين رأوا أن لا حاجة إلى تحصين الجهة الشمالية، فهي محصنة طبيعيا حين تكتنفها أرض وعرة يصعب على كل متعد جبار اقتحام المدينة منها ولعلهم لم يدققوا النظر في إجماعهم على ترك هذه الفجوة فمنها بالذات أمكن الاسبان أن يقتحموا بجاية ويفتحوها في أوائل يناير سنة 1510م والرسم الثاني يمثل قلعة حماد فإن سورها عام كامل لا فجوة فيه مع أن الجهة الشمالية هي الأخرى محصنة تحصينا طبيعيا فالمدينة في كنف جبل تقريست الذي ترتفع قمته إلى 1418 مترا بينما قمة قوراية لا يزيد ارتفاعها على 680 مترا.

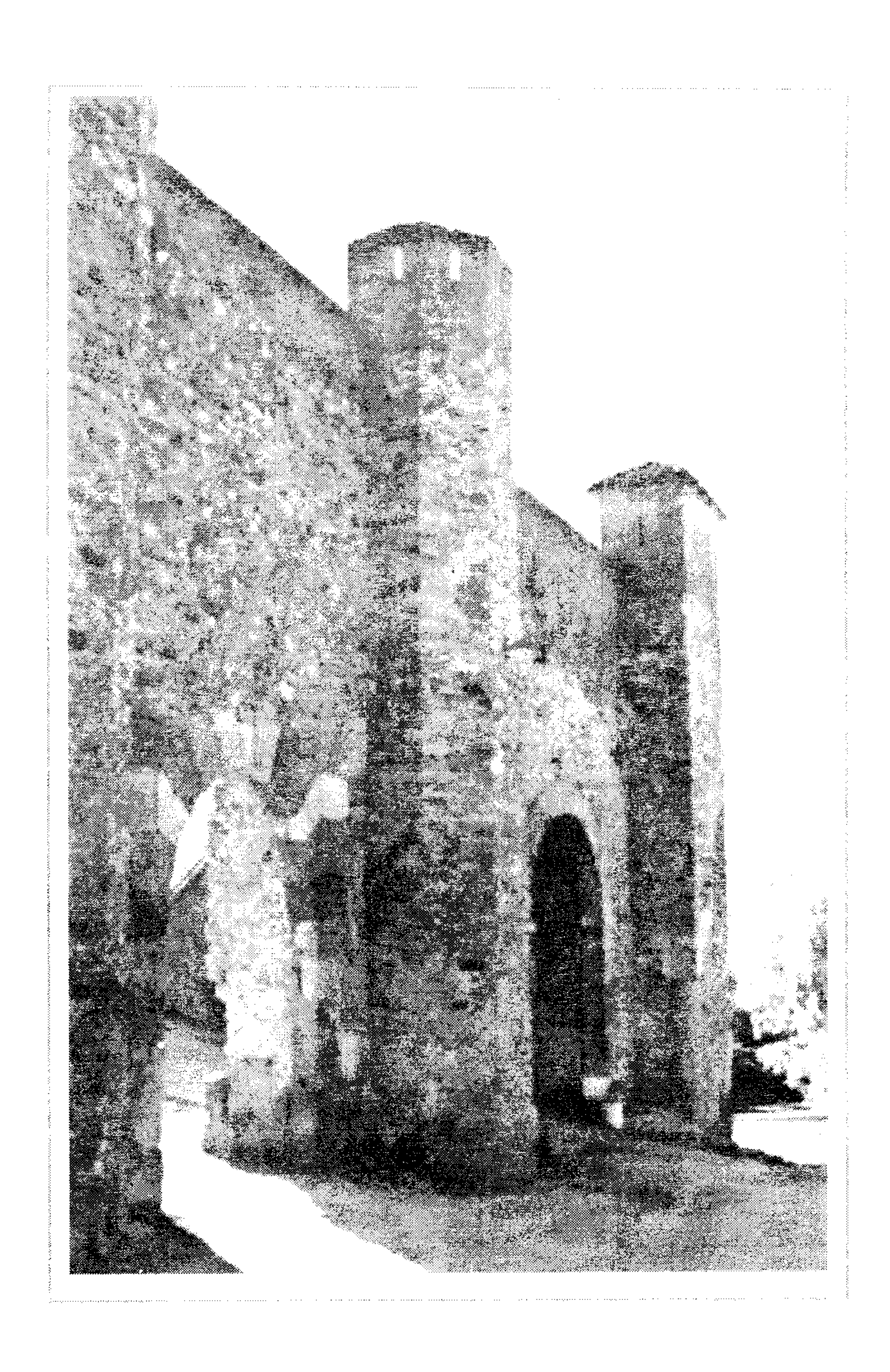
فيقال حومة باب البحر وحومة باب أمسيون وحومة باب باطمة حيث تقع دار المقدسي المسماة بدار الفقيه هلال، وحومة اللؤلؤة القريبة من قصر اللؤلؤة، وحومة المذبح حيث كان القراصنة يبيعون الأسرى ويؤدون الخمـــس من الأرباح للخزينة السلطـــانية،

---

(1) كتاب الاستبصار ص: 19




الشمال
تفربنت
السور
باب الأندلس
دار البحر
قصر السلام
مسجد
باب الجنان
قصر المنار
كنيسة
سيدي جراوة
باب جراوة
الفلاون
المقبرة القديمة
المقبرة القديمة
رسم القلعة
برج قوراية
برج أبي ليلة
جبل أمسيون
السور
باب النور
قصر الكوكب
باب الشهود
مقبرة
أبي علي رسعبة
قصر اللؤلؤة
مقبرة
باب البحر
القصبة
برج البحر
الميناء التجاري
رسم الناصرية



وحومة الساباط الأموي، وحارة المقدسي وحومة رابطة المتمني وحومة بئر مسفرة القريبة من مقبرة أبي علي رسمية أي خارجة باب البنود.

وكان ببجاية ما يربو على خمسين مسجدا منها مسجد الإمام المهدي ومسجد الريحانة حيث انتصب ابن تومرت للتدريس ومسجد النطاعين وهم صانعو الزرابي من الأديم وذلك زيادة على الجامع الواقع في وسط المدينة والذي يحيط به عشرون ألف بيت.[1] أما المقابر فكانت تمتد خارج الأبواب التالية: باب أمسيون وباب المرسى وباب البنود إلا مقبرة واحدة تسمى مقبرة أبي على رسمية.

أسواق بجاية كانت كثيرة ويذكر الغبريني بعضها: سوق القيسارية وسوق الصوف وسوق باب البحر. وببجاية مرسى كبير مأمون مشتى[2] حينئذ وسوق هامة رائجة فالإدريسي يحدثنا عنها فيقول:

«السفن إليها مقلعة والقوافل بها منحطة والأمتعة إليها، برا وبحرا، مجلوبة، والبضائع بها نافعة، وأهلها مياسير تجار يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة» وصاحب الاستبصار هو الآخر ينوه برواج ميناء بجاية وحركاته:

---

(1) البكري ويؤيد قول البكري ما جاء في ماضي افريقية ص361 لقوطية أن الناصرية في عهدها الحمّادي الزاهر كانت أكبر من بجاية الحالية وأوسع من صلدي الرومانية بثلاث مرات، وما جاء في «وصف افريقية» للحسن الوزان أن عدد سكانها كان يربو على مائة ألف نسمة حيث كانت تحتوي على أكثر من 24000 بيت.

(2) البكري.

«تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرق بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها... وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير ويجلب من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة الغرب من نحو جبال جرجرة، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمركب. وعلى ضفتيه بستانان البديع في الجهة الغربية والرفيع في الجهة الشرقية بالقرب من قصر اللؤلؤة وقد صنعت عليه نواعير والمدينة مشرفة مطلة على البحر وعلى فحص قد أحاطت به جبال وتسقيه أنهار وعيون ثم أكثر بساتينهم».[1] للمدينة بواد ومزارع وبساتين تجود بالحنطة والشعير والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي أكثر ومن البلدان،[2] فلم يكن أبدا بها خصاصة من حيث الغذاء ولا من حيث الماء أيضا، فقد جلب إليها المنصور المياه من جبل بواسطة القناطر المعلقة، ولا زالت آثار الصهاريج التي كانت تجمع فيه المياه بادية للعيون. كانت بجاية دار مملكة قد استمر عمرها بعد الدولة الحمّادية بنزول الموحدين بها، فحفظت سياجها وتزايدت مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر.[3]

---

(1) صاحب الاستبصار ص: 19

(2) كتاب الاستبصار.

(3) الإدريسي نزهة المشتاق ط دوزي ص 954.

لبجاية طريق إلى جهة الغرب تسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير والطريق إلى قلعة بني حمّاد على عقاب وأوعار، وكذلك طريقها إلى الشرق وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب، فلم يكن للعرب اليها سبيل.[1]

فقد وصف الإدريسي الطريق التي تصل بجاية بالقلعة، فإنها تخترق القبائل الكبرى تابعة وادي الصومام، وتمر بالمضيق وبسوق الأحد ووادي وهت وحصن تاكلات الواقع بكدية تطل على وادي بجاية حيث تنتهي المرحلة الأولى في هذه القرية سوق نافقة على الدوام لوجود الخضر والفواكه واللحوم بكثرة وبثمن زهيد ولا شك أن هواءها صحي وماءها نمير حيث كان بها ليحي بن العزيز الحمّادي قصور جميلة وبساتين وارفة فمن هذه القرية يستأنف المسافر سيره نحو تادرفت وسوق الخميس وحصن بكره في هذا الحصن القائم على الوادي الكبير، وسط المراعي الواسعة، تعقد سوق رائجة فيقضي فيها المسافر ليلته ثم يتابع سيره نحو حصن وازفو وحصن الحديد والشعراء وقصر بني تراركس وتاورت فثم يحط ريثما يواصل سيره نحو الباب وحصن الشقائف وحصن الناظور وسوق الخميس.

وهناك يبقى له مرحلتان ليصل إلى القلعة في الأولى يمر بحصن يقع بجبل عال يعزب على العرب أن يصلوا إليه، ثم بالطماطة وهي سهل عال وسوق الاثنين. وفي المرحلة الثانية يمر بحصن تافلكانت ثم بتركة وبقصر عطية الواقع بقمة جبل فالمنطقة بها أوعار، وسكانها بمنجاة

---

(1) المقدمة ص 343.

من عبث العرب وفسادهم، لأن هؤلاء لا يتسنون إليهم التلال والجبال فالعرب لا يتغلبون إلا على البسائط.[1]

وفي شرقي بجاية جيجل تربط بينهما طريق. وجيجل مدينة صغيرة حينئذ، لكنها من الأهمية بمكان، كان لها ميناءان، وأهمهما مرسى الشعرة، يجعلاها فرضة سطيف وقسنطينة، شواطئها تزخر بالسمك الذي كان أصحابه يجهزونه إلى مدن المنطقة نواحي جيجل خصبة يتوفر فيها بكثرة اللبن والسمن والعسل والحبوب. وبجبال كتامة المحاذية لها معادن الحديد الذي يصدر إلى افريقية واللازورد.[2]

وكان بنو زلدوي يستوطنون أقصى باديتها وكانوا جفاة عصاة لا يؤدون الغرائم إلى الدولة إلا تحت التهديد والإرغام.

تربط جيجل وعنابة طريق تمر بحصن المنصورية ومتوسة التي يستخرج من أرضها الجبس الذي كان يجهز إلى بجاية، وسكيكدة، والقل عنابة هي فرضة قالمة وقسنطينة وعنابة مدينتان: القديمة ويقال لها مدينة زاوي، بها مساجد منها مسجد سيدي مروان الذي شيد سنة 435هـ/1032م، في عهد المعز بن باديس، وبها أسواق وحمام، والمحدثة التي هي أهم من الأولى فيحاط بها سور شيد بعد سنة 450هـ/1057-1058م.

تقع عنابة في منطقة خصبة يسكنها البربر من مصمودة وأوربة يخدمون الأرض، فتجود عليهم بالقمح والشعير والكتان والفواكه المتنوعة، ويعتنون بتربية النحل والبقر، فكثير عندهم العسل والسمن

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ص:149

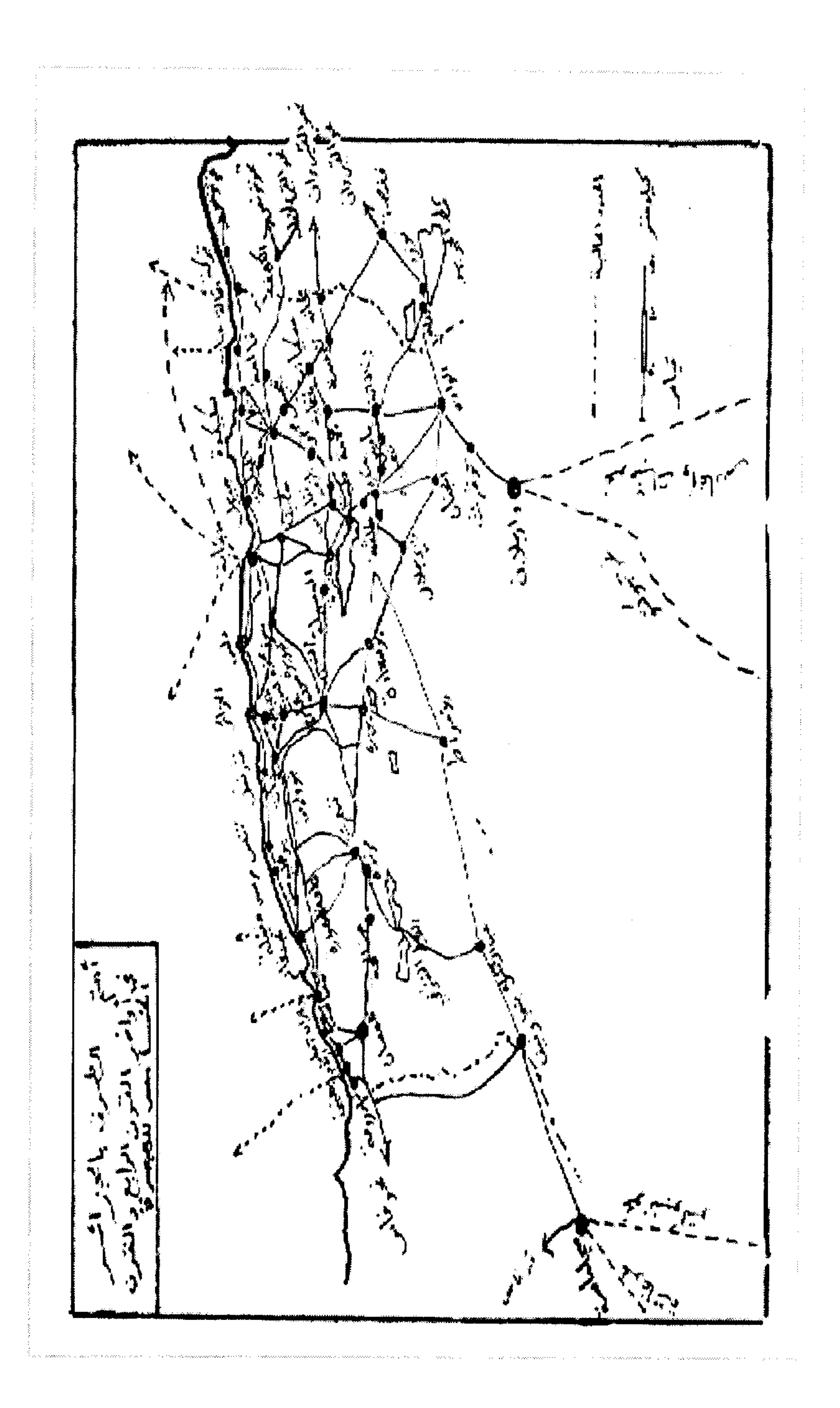
(2) البكر.

وسمكها كان يجهز إلى قسنطينة وقالمة. والخشب موفور في الغابات المجاورة يصنعون به السفن التي كانت تغزو شواطىء جزر البحر الأبيض المتوسط مثل صردانيا وكرسيكة وكان لها، زيادة على الموارد الفلاحية والبحرية، خبايا الأرض، فجبال إيدوغ المحاذية لها تحتوي على معادن الحديد إلا أن شأن عنابة أخذ يتقلص بوصول العرب إليها فعندما غزاها النورماند، سنة 548هـ/1153-1154م، كانت مدينة فقيرة قليلة السكان.

تربط عنابة والقيروان طريق تمر بمرسى الخرز ويعثر سالكها على بربر يسكنون الخوص والأكواخ بزانة في وسط غابة واسعة الأطراف ويكثر فيها شجر البلوط الذي يصدر خشبه إلى افريقية.

إن أقدم وأهم مدينة بشرق المغرب الأوسط قسنطينة كان يحيط بها سور له بابان باب ميلة في الجهة الغربية وباب القنطرة في الجهة الشرقية. أما المقبرة فكانت تقع خارج باب ميلة باديتها واسعة الأطراف خصبة صالحة لزراعة البر والشعير، الشيء الذي يفسر وجود المطامير الكثيرة المشحونة بالحبوب.وما يجدر بالذكر أن هذه الحبوب لا تفسد ولو بقيت قرنا مخزونة. كان يغمرها أسر من ميلة ونفزاوة وقسنطينة فالأغنياء منهم كانوا يتعاقدون مع العرب على خدمة مزارعهم وتربية مواشيهم ونخيلهم.

كانت قسنطينة في وقت البكري تعد من منطقة كتامة كانت شبكة من الطرق تربطها بمدن المنطقة الشرقية جيجل وبجاية وأبراس وقلعة بشر وتيفاش وقالمة والقصرين ودور مدين ومرسى القل والطريق التي تؤدي من قسنطينة إلى جيجل تمر بالنهر وفحص فارة



وقرية بني خلف وحصن كلديس وسوق بني زند حيث تقام سوق أسبوعية، وتالة، ثم بالمغارة ومسجد بهلول ثم المزارع قبل أن تصل إلى جيجل.

أما ميلة التي خربها المنصور بن بلكين إثر ثورة أبي الفهم سنة 379هـ/988-989م ونقل أهلها إلى باغاية، كما سبق أن قلنا في القسم الأول، فأمكنها أن تستعيد ازدهارها بعد ذلك فقد جددت أسوارها. كان بها مسجد جامع يقع بالقرب من باب الرؤوس وملاصقا لجدار دار الإمارة وداخل الباب تقع عين السبع التي يرد ماؤها من جبل بني ياروت فإن سكانها من العرب والجنود والأهالي (المولدين).

فقد وجد العرب نواحيها واسعة خصبة فاستوطنوها وطاب عيشهم فيها. فلا تبعد عن سطيف التي كانت مدينة كبيرة والتي تقع في وسط سهل عال هدمت كتامة أسوارها لأن العرب الذين استولوا عليها أرغموهم على أن يؤدوا لهم ضرائب فادحة.

إلا أن عدم الأسوار لم يمنعها من أن تكون مزدهرة حينذاك. كان بها أسواق كثيرة نافقة ترد عليها محصولات مزارعها وبساتينها من حنطة وفواكه، فكانت مشهورة بكثرة الجوز الذي يجهز إلى غيرها. فقد تضاءل عدد سكانها في عهد الإدريسي، فلم يبق فيها سنة 484هـ إلا أربعة آلاف نسمة.

وتربط سطيف والقلعة طريق تخترق بوادي غنية زرعا وضرعا، وقد حدثناك عن الظروف التي دعت إلى تأسيسها وعن موقعها إن جراوة وأهل مسيلة وحمزة الذين نقلوا إلى القلعة كانوا يسكنون بحي خاص بهم يشرف عليه القصر الذي بقي منه المنار.

وكان بالقلعة على الأقل ثلاثة أبواب، باب الأقواس في الشمال الشرقي، وباب جراوة في الجنوب الشرقي، وباب الجنان في الجنوب الغربي والأحياء الزاخرة بالسكان والأسواق المكتظة بالتجار كانت تحيط بالمسجد الواقع في وسط المدينة وكان يخترق المدينة شارع يمتد من باب الجنان إلى باب الأقواس. وقد اكتشف علماء الآثار مؤسسات قام بتشييدها ملوك بني حماد منها دار البحر والذي بينه وبين المسجد مائة وخمسون مترا من الجهة الجنوبية وفي شرقي المدينة يقع قصر المنار. فقبل أن يؤسس الناصر بجاية زين مسجد القلعة وبنى غير بعيد من المدينة قصورا قصرا لعروسين وقصر بلارة زوجته، بنت تميم بن المعز، التي بنى بها سنة 470هـ/1077م، وقصر الخلافة وقصر الكوكب في أوائل القرن الخامس.

كان بالقلعة مساجد وفنادق عديدة وقد اشتد شأنها على حساب القيروان التي قضى عليها بنو هلال فقد جاء أهل افريقية يستقرون بالقلعة فلم تضق بهم، فالمواد الغذائية كانت كثيرة ورخيصة كان يقصدها القوافل من المشرق ومن المغرب وكانت بلاد زرع وضرع وخصب وفلاحة،[1] فإن مطامير القلعة يخزن فيها القمح سنة أو سنتين دون أن يفسد، وكان يصنع فيها اللبد للسروج والكسى السميكة الموشية بالخيوط الذهبية والثياب الصوفية: إلا أن ازدهار القلعة أخذ يتقلص بدخول هلال إليها، لما أسست بجاية بقيت القلعة عاصمة، ولكن للدرجة الثانية، خرج منها يحي بن العزيز سنة 543هـ/1149م فلم تبق من ذلك الحين عاصمة، لكن، لم تضمحل فبقيت تصارع الموت والموت يصارعها إلى أن خربها يحي بن الغانية في

أوائل السابع الهجري ولا زال بها ضريح أبي الفضل بن النحوي الذي توفي بها سنة 513 هـ /1119م والذي سنتحدث عنه بعد.

وبما أن القلعة كانت عاصمة فكانت شبكة من الطرق تصلها بشتى المدن شمالا وجنوبا وشرقا وغربا على غربيها تقع المسيلة وأشير وبين هذه المدينة وتاهرت تمتد طريق عليها غوزا وهي محطة للقوافل،وهاز التي نقل زيري بن مناد سكانها إلى أشير، وجرتيل التي يسكنها زناتة والتي تقع في ناحية بها ماء وخصب، وماما التي بها جامع وسور من الطوب وخندق، وأغير وهي قرية صغيرة بينها وبين تاهرت مرحلة.

تيهرت مدينتان: القديمة وقد اعتنى بها ملوك البربر قبل الرومان، والحديثة التي أسسها عبد الرحمان بن رستم سنة 143هـ 765م[1] يقول ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك: «تيهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة والأخرى محدثة» اختار عبد الرحمان لمدينته موقعا يتمتع فيها سكانها بالصحة والاطمئنان والرخاء، فإنها تقع في مكان مرتفع حصين هواؤه صحي وعيونه عذبة غزيرة تكفي المدينة شربها وباديتها خصبة زراعية واسعة الأرجاء يجري فيها نهر مينة الذي يسقي مزارعها والذي عليه أرحية، وتتوسط الشمال والجنوب والساحل والصحراء ما جعلها ملتقى تجاريا هاما بين المغرب الأوسط وبلاد السود والمغرب الأقصى والأندلس وافريقية. وقد نوه الجغرافيون بحسن طبيعتها وثرواتها ورخائها وصفها المقدسي في القرن الرابع فقال «تيهرت هي بلح المغرب، قد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار

(1) وذلك على حسب الأستاذ عبد الرحمان الجيلالي، أما على حسب الأستاذ قوطيه والأستاذ طيراس فكان الشروع في تأسيسها سنة 144هـ/761م

وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب".

ويقول أيضا: «تيهرت بلد كثير الخير، رحب، رفق طيب رشيق الأسواق، غزير المياه، جيد الأهل، قديم الموضع، محكم الرصيف عجيب الوصف ولتيهرت العاصمة مسجدان جامعان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والجير، قريبان من الأسواق من دروبها المعروفة أربعة: درب مجانة ودرب المعصومة ودرب حارة الخفير ودرب البساتين» وقد وصفها ابن حوقل أيضا، فقال:«تيهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة وأخرى محدثة والقديمة ذات سور، وهي على جبل ليس بالعالي، وفيها كثير من الناس، وفيها جامع، والمحدثة مدينة أيضا فيها جامع كتيهرت القديمة وإمام وخطب والتجار، والتجارة في المحدثة أكثر.

ولهم مياه كثيرة تدخل في أكثر دورهم، وأشجار بساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفارهة. ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات» والبكري يذكر لنا أشياء لا نجدها عند سابقيه فقال«مدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها. وهي في سفح جبل يقال له جزول ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليّها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها وهو في شرقيها وفيها جميع الثمار. وسفرجلها يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ومشما،

وسفرجلها يسمى بالفارسي وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج»
ووصف صاحب الاستبصار لتيهرت ليس أقل دقة من وصف البكري
يقول: "مدينة تاهرت مدينة مشهورة كبيرة، عليها سور صخر، ولها
قصبة منيعة تسمى المعصومة، وهي في سفح جبل، وعلى نهر يأتيها من
ناحية القبلة يسمى مينة، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى
تاتش منه شرب أرضها وبساتينها وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع
الثمار، وفيها سفرجل يفوق سفرجل البلاد حسنا ومطعما ورائحة"
نحس ونحن نقرأ ما قاله البكري وما قاله صاحب الاستبصار، أن واحدا
منهما نقل عن الآخر، وبما أن البكري عاش قبل صاحب الاستبصار
فالناقل هو هذا الأخير.

فقد استولى على تيهرت الفاطميون، ثم بسط الزيريون وبعدهم
الحمّاديون نفوذهم عليها، فتأثرت سياسيا، وضعفت تجارتها لفائدة
القيروان، ولكن باديتها لم تتأثر، فأصغ سمعك للإدريسي حيث يقول
في القرن الثاني عشر «مدينة تيهرت كانت فيما سلف من الزمان
مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة والقديمة من هاتين
المدينتين ذات سور، وهي على قمة جبل قليل العلو، وبها ناس وجمل
من البربر لهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة، وبها مزارع وضياع
جمة، وبها من نتائج الخيل والبراذين كل حسن.

وأما البقر والغنم فكثير بها جدا وكذا السمن والعسل، وسائر
غلاتها مباركة وبمدينة تيهرت الحديثة مياه متدفقة وعيون جارية تدخل
أكثر ديارهم ويتصرفون فيها، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار

تحمل ضروبا من الفاكهة الحسنة وبالجملة فهي نفعة حسنة» فابن عذاري من جهتـــه يؤكد ما حدثنا به الإدريسي عن باديتها: فقال: «تيهرت غيضة بين ثلاثة أنهار: نهر مينة في الجنوب ونهر شلف في الشمال وعيون تاتش في شرقها كانت حول تاهرت بساتين من أنواع الثمار كثيرة الأشجار، وهي شديدة البرد كثيرة الأمطار».

فهؤلاء الجغرافيون جميعهم متفقون على أن تاهرت كانت من أحسن مدن المغرب الأوسط موقعا وأكثرها خيرات وثروات فأقوالهم متكاملة وتعطينا نظرة شاملة عن عمرانها واقتصادها.

إن المواصلات كانت ممكنة بين تاهرت وتنس ومازونة وقلعة بني راشد ووهران وتلمسان وسجلماسة والمنطقة مهد مغراوة ويفرن، ذات سهول واسعة فلاحية فاليعقوبي يحدثنا عن قلعة بني راشد وعن باديتها فكانت هذه خصبة يخترقها وديان، فمن البديهي أن يكثر فيها الحنطة والشعير والثمار المختلفة والماشية كان معظم سكانها من هوارة، ولهذا تسمى أيضا قلعة هوارة فهؤلاء كان موطنهم الأصلي بشرق البلاد. ولكن شاءت الظروف أن يتشتت شملهم، فنجدهم لا بهذه القلعة فحسب بل في شتى النواح وبسط بنو توجين نفوذهم عليها في أواخر العهد الوسيط. إن أهلها يشتغلون بالحياكة لوجود الصوف في الناحية والقطن في ناحية شلف فهي مشهورة بصناعة الزرابي وأهلها كانوا على مذهب الخارجية منذ عهد الدولة الرستمية.

أما مازونة فتقع في بادية تسقيها وديان بسوماتة من الجهة الشمالية الشرقية ووادي مازونة في الجهة الشمالية الغربية فهي غنية

ذات مزارع وبساتين ومراع، ما يجعل أسواقها نافقة يكثر فيها الزرع والفواكه والحليب والسمن والعسل والصوف.

وعلى ساحل البحر المتوسط تقع مدينة وهران التي كانت فرضة تيهرت في عز الدولة الرستمية تصلها بالأندلس ثم جاء محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين، فبنوا سورها وزادوا في عمرانها فقد وصفها البكري فقال:"وهران مدينة حصينة وهي ذات مياه سائحة وأرجاء ماء وبساتين ولها مسجد جامع وقد أسس هذه المدينة محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين كانوا ينتجعون مرساها باتفاق مع نفزة وبني يسقن، وذلك سنة 290هـ"

وتحدث عنها الإدريسي في القرن السادس فقال: «وهران على ضفة البحر وعليها سور تراب متقن، وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات ناضة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل الأندلس ولها مرسى صغير على ميلين منها، المرسى الكبير وهو يستر من كل ريح. وشرب أهلها من وادي يجري إليها من البر وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب، والعسل بها موجود وكذلك السمن، والزبد، والبقر، والغنم بها رخيصة،ومراكب الأندلس إليها مختلفة، وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة» وهي فرضة تلمسان، تربطهما طريق تمر على تموشنت التي كانت في العهد القديم معقلا من المعاقل الرومانية وتلمسان بلد أزلي ينعم بالمياه والأعشاب والأشجار فكان الرومان يسمونها بومارية أي البستان، وكلمة تلمسان نفسها معناها أرض تنعم بالمياه والأشجار، فهي غوطة قد مر بها اليعقوبي ثم ابن حوقل. فالأول

يقول بأن الأسوار مبنية بالحجر، وكان يحيط بها سور داخلي وآخر خارجي. أما الثاني فقد رآها مبنية بالآجر في بعض جهاتها و لم يذكر السور الثاني. كانت تلمسان مزدهرة وهذا الازدهار يرجع إلى الصناعة والفلاحة، وقد نشطت الزراعة لاعتدال المناخ وخصب الأرض. فقال صاحب الاستبصار:«وهي، أي تلمسان، كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار كثيرة الخيرات» إلا أن هذه الزراعة كانت تمر بأزمات في سنوات الخارجية وأيام الصراع الأموي الشيعي نظرا للاضطرابات السياسية والثورات المتكررة التي كان البلد يتعرض لها، فتقل حينئذ المواد الغذائية وترتفع الأسعار وتكدس الأسواق.

ولكنها كانت تنهض وتزدهر من جديد كلما خمدت نار الفتن واطمأنت قلوب الفلاحين فيستأنفون نشاطهم فينعمون ويعم الرخاء المنطقة، فالفلاحة والصناعة كانتا عاملين مهمين في ازدهار التجارة ومصدرا لسعادة الفرد والجماعة فأشار أكثر الجغرافيين الذين تحدثوا عن تلمسان إلى أهمية نشاطها التجاري فذكر البكري أنها كانت قاعدة المغرب الأوسط، وبها مساجد وأسواق نافقة ضمت عددا كبيرا من التجار الأجانب نعم، فقد كانت مقصدا لتجار الآفاق فكانت القوافل غادية رائحة بين تلمسان والأندلس عن طريق فرضيتها القريبتين منها أرشقول وهنين. وفي جنوب تلمسان بلاد السود كان تجارنا يقصدونها، تخرج القوافل التجارية إلى سجلماسة ومن هناك تؤم تنبكتو صحبة القوافل الفاسية. قد توالى عليها ملوك من مغراوة ويفرن، لكن لم ينف ذلك نفوذ صنهاجة عليها فقد حل بها زيري بن مناد ثم ولده بلكين أبو الفتوح ثم بلكين بن محمد والمنصور بن الناصر وقد نزعها المرابطون من يد

زناتة وبنوا بها تاقرارت، فصارت تحتوي على مدينتين بينهما رمية حجر،[1] ولكن جاء عبد المؤمن واستولى عليها، ومن وراء تلمسان من جهة الشمال الغربي تقع مدينة ندرومة في سند جبل فلاوسن، وقد سماها اليعقوبي فلوسن والمنطقة يعمرها بطون من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة وأنجفة وعنجزة[2] وكومية، ويصفها الإدريسي فيقول:«هي مدينة كبيرة عامرة آهلة ذات سور وسوق موضعها في سند ولها مزارع،ولها واد يجري في شرقيها وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي». وكان أهلها فلاحين أونساجين، ينسجون الثياب الصوفية والقطنية، فزراعة القطن في الناحية كانت نشيطة. وفرضتها تبحريت (الغزوات)· ويذكر لنا الإدريسي أن بين تبحري وهنين على البحر أحد عشر ميلا.

وهنين مدينة حسنة صغيرة في نحر البحر عامرة عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء، وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة. ومن هنين على الساحل إلى مرسى الوردانية ستة أميال، ومنها إلى جزيرة القشقار ثمانية أميال، ومنها إلى جزيرة أرشقول، وكانت فيما سلف حصنا عامرا له مرسى وبادية وسعة في الماشية والأموال السائمة· ومرساها في جزيرة فيها مياه وضواحي كثيرة المراكب. وهي جزيرة مسكونة ويصب بحذائها نهر تافنة.

فالطرق، كما ترى، كانت متوافرة في المغرب الأوسط، بحيث أنك لا تجد منطقة منعزلة عن الأخرى، وكيف لا والطرق من الضروريات، فإن فوائدها أكثر من أن تحصى. إن الدولة لا يستقيم

(1) مراصد الاطلاع جـ 1 ص: 272.
(2) الادريسي.

أمرها إلا إذا كانت العاصمة في اتصال دائم بالولايات القريبة منها والقاصية، وعلى بصيرة مما يجري فيها من أحداث سياسية أو حركات تجارية أو أزمات مختلفة.

فالحكام ساهرون على بث الطمأنينة في قلوب الرعية، وهذه الطمأنينة هي وليدة الأمن الذي تنشره الجيوش· فلولا وجود الطرق لتعطلت حركاتها ولما وصلت إلى هدفها.

ومتى كثر الاطمئنان عظم العمران وزادت حاجيات الناس الذين لا يجدون حلها إلا في الأسواق· وهذه الأسواق ترد عليها من كل ناحية المحصولات الفلاحية والمنتوجات الصناعية· ونفاقها يذر على التجار والصناع والفلاحين الأرزاق، فينعمون، وعلى إدارة الجبايات الأموال الغزيرة فيشمخ سلطان الدولة وتتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد المؤسسات من مارستانات ومساجد ومدارس وأساطيل وغير ذلك من المرافق.

وبفضل المسالك تمكن الجغرافيون والمؤرخون من الطواف في مناطق البلاد، فحدثونا عن جغرافيتها وعن حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية والحضارية، وبواسطتها أيضا كان العلماء والدعاة يتحركون طول البلاد وعرضها لنشر العلم وبث آرائهم بين الناس، والحجاج يتوجهون من جميع أطراف القطر إلى ملتقى ليذهبوا جميعا إلى الديار المقدسة، والتجار يصدرون ما يكثر عن حاجات السكان وإيراد ما ينقصهم·

فالبلاد، إذن، لا يسودها النظام والاطمئنان والرخاء إلا إذا احتوت على شبكة كثيفة من الطرق تمتد في أنحائها، فتربط المدن

والقرى والحصون والمراسي. وجميع الرحالة الذين تحدثوا عن المغرب الأوسط في العهد الوسيط متفقون على أن الطرق كانت متوافرة فيه. فخيرات البلاد والسلع الواردة من الخارج برا وبحرا كانت تتوزعها جميع المدن والقرى في جميع المناطق من القالة إلى الغزوات ومن بجاية إلى أعماق الصحراء. فالبلاد كانت عامرة غنية بالنسبة إلى ذلك الوقت؛ فكانت فلاحية قبل كل شيء ومحصولاتها وافرة من بر وشعير وأثمار وسمن وزيت وعسل ولحوم وسمك وصوف وكتان وقطن، وربما زادت على حاجاتها. ألم يمد زيري بن مناد بكمية عظيمة من الزرع الخليفة الفاطمي في أيامه الحالكة حين خالف عليه أبو يزيد بن كيداد الخارجي؟ ألم يكن المغرب الأوسط من قبل خزينة روما؟ وقد رأينا أن المواد الأولية متوافرة. فالصوف والوبر والكتان والقطن والحلفاء والطين بجانب الحديد والرصاص كانت تشغل يد الصناع. فالتجارة بفضل ازدهار الفلاحة والصناعة كانت نافقة في الداخل والخارج.

وغاباتنا تجود بالخشب والزفت والقطران، فتساعد بذلك على صنع السفن الحربية والتجارية، فالأولى تحمي البلاد من الهجومات المعادية الطارئة، والثانية تصلها بالعالم الخارجي. فالصادرات والواردات ترجع على القطر بالرفاه. على كل حال، فإن المغرب الأوسط قد جلب أنظار الرحالة العرب، فتحدثوا عنه وعددوا محاسنه. فنجتزي بما قاله المقدسي حول خصائصه الطبيعية والعمرانية والاقتصادية في القرن الخامس في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: «هذا الإقليم، إقليم المغرب كبير سري كثير المدن والقرى وعجيب الخصائص والرخاء، به ثغور جليلة وحصون كثيرة، ورياض نزيهة، وبه جزائر عدة، قد غابت في الزيتون مدنه وبالتين والكرمات.

أرضه تجري خلالها الأنهار وتملأ غيطانها الأشجار. أنما افريقية فقبضتها القيروان. ومن أهم مدنها المسيلة وأشير وسوق حمزة وجزيرة بني مزغناية ومتيجة وتنس وسوق إبراهيم والغزة والقلعة ومرسى الدجاج».

إن هذا الرخاء الذي كان يتمتع به المغرب الأوسط هو وليد جهود عناصر شتى من السكان· فإن الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد مزقت وحدة كثير من القبائل البربرية· فجماعات غادرت مواطنها الأولى وتشتتت في أنحاء البلاد، يخبرنا اليعقوبي بوجود لواته في طرابلس وفي ناحية قابس وشمال الأوراس، بينما البكري يرى أنهم كانوا بمصر وبالفزان وبطرابلس وبقابس وبالقرب من تاهرت وبأزمة وبمجانة وبالمغرب الأوسط· أما أوربة الذين كانوا بالمغرب الأقصى فانبتوا في عهد اليعقوبي في ناحية نقاوس، والبكري يذهب إلى أنهم كانوا بنكور وبناحية عنابة وبالمغرب الأقصى.

وبنودمر الذين كانوا منبثين في أرض تمتد بين الزاب وتيهرت في عهد اليعقوبي، ذكر البكري أنهم كانوا بتنس وبندرومة. ومطماطة التي كانت بتخوم طرابلس تنقلت في عهد اليعقوبي إلى ما بين تيهرت وملوية ونراها فيعهد البكري بشمالي تيهرت تجاه البحر وبمنطقة ندرومة. وهوارة التي كانت بالفزان أصبحوا بالأوراس وبشمال جبل السرسو حيث ابتنوا قلعة تسمى باسمهم. وفي عهد البكري نجد لهم أثرا في ناحية زغوان وفي جبال المعاضيض وفي تاهرت وفي شمال تهوذة وبالمغرب الأقصى وفي ناحيتي بني راشد وتبسة. أما بنو إرنيان فيعثر عليهم في بلاد زناتة مثل مكناسة الذين كانوا في القرن التاسع بنواحي

بسكرة والأوراس وتيهرت. وبنو يفرن الذين منهم مر بجيصه وبنوا واركو مهدهم الأول شرق المغرب الأوسط. فانبنوا بنواحي تلمسان مثل بني واسين، ومغراوة هم الآخرون كانوا مشتتين فمنهم بنو خزر ولغواط وبنو ريغة. كانوا يملكون تلمسان، وبسطوا نفوذهم أكثر من مرة على تيهرت وسجلماسة، وذلك كلما لم يقصهم عنها صنهاجة.ولعل تشتت شمل البربر يظهر بصفة أجلى فيما استوعبه جبل الونشريس حينذاك من قبائلهم. فاستقر به بطون من مكناسة وخرسون وأوربة ويصلاتن وزولات وبني واتمشوس وزوارة ونزار ومطغرة ووارترين وبني بلال وايزكرو وبني أبي حكيم وهوارة.[1]

وكانت عناصر بشرق المغرب الأوسط تنتمي إلى البيزنطيين والرومان. فقد بقوا متمسكين بدين إبائهم ويتكلمون باللاتينية في عهد البكري فذهب أثرهم، فقد ذابوا في الجماعة بتوالي الأيام.

ولعل القبيلة الصنهاجية لم تتفكك أوصالها مثل غيرها، لحموا بمنقطتهم ونشبوابها، فكان لهم الغلبة التي تدعو إلى التلاحم. فالتفت بتلكاتة التي منها الأسرة المالكة ونوغة وبنو عثمان وبنو مزغنة وبنو جعد وبطوية وبنو أفاون وبنو خليل. فإن هذه القبيلة العتيدة أخذت في طريق توحيد المغرب العربي، لكنها لم تصل إلى هدفها، قصدها عنه الزحف الهلالي برا والنورماندي بحرا.

(1) الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص: 84

النظم

النظام السياسي والإداري

كان الصنهاجيون أمراء وظلوا يتمتعون بالاستقلال الذاتي، ولكنهم يدينون بالتبعية الاسمية للخليفة الفاطمي التي تتمثل في ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة وتطريزه على ثياب الأمير وعلى الأعلام التي لا يخالف لونها اعلام الخلافة. وكان الأمراء يتوارثون الملك ويتخذون ولاة العهد. فإذا تولى أمير جديد بعثوا للخليفة الفاطمي في القاهرة يطلبون منه سجل التقليد والاعتراف بشرعية حكمه ويلتمسون الخلع والألقاب والأعلام. وظلت الولاية وراثية في أعقاب بلكين أبي الفتوح بافريقية من سنة 362هـ إلى سنة 542هـ حين استولى النورمانديون على مدينة مهدية. وظل بنو زيري يدينون بالتبعية للخليفة الفاطمي إلى سنة 443هـ/1051م حيث قطعت الخطبة للمستنصر الفاطمي.

أما الحمّاديون فكانوا من عهد حماد يخطبون لبني العباس، وبينما كان الزيريون تأتيهم سجلات التقليد مشفوعة بالأعلام والهدايا والألقاب التشريفية مثل نصير الدولة (باديس) وشرف الدولة وعَضُد الدولة (المعز بن باديس) وتاج الخلافة (الحسن).

كان الحمّاديون سلاطين مستقلين متجافين عن ألقاب الخلافة أدبا معها. فليسوا قرشيين مثل بني أمية والعباسيين والفاطميين ولا يمتون للسلالة الغالبة بصلة. فاقتصروا على اسم السلطان والأمير، ولم

ينتموا في راياتهم وبنودهم بلون واحد، ووشوها بالذهب، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة، واستمروا على الإذن فيها لعمالهم حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من البنود والطبول على السلطان وحظروها على سواه من عماله.

والزيريون والحمّاديون اتخذوا الطبول والأبواق، فإن سر قرع الأولى والنفخ في الثانية إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة. فإن زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم من أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت.[1] والزيريون مثل الحمّاديين لم يتخذوا حجابا يكونون همزة وصل بينهم وبين الشعب.

إن الأمراء الأولين، أبا الفتوح وأبا الفتح ونصير الدولة كانوا يستقرون بأشير ويجعلون على رأس ولاية افريقية عاملا لا يمت للسلالة الصنهاجية بصلة، ويشترط فيه أن يكون كاتبا ينوب عن الأمير فيجبي ويعقد للعمال ويفتش الجيوش.

كان لزيري بن مناد كاتب اسمه عبد الله بن محمد الكاتب. لما تولى بلكين أمر ولايته احتفظ به، فجعله كاتب سره ووزيره الأول، وبقي يمارس عمله ويشرف على افريقية في عصر المنصور أبي الفتح إلى أن قتله هذا الأمير للأسباب التي ذكرناها في القسم الأول

(1) المقدمة ص 258.

وعوضه بيوسف بن أبي محمد ثم بمحمد بن أبي العرب الذي بقي على رأس افريقية إلى أن توفي في عهد باديس، وخلفه ابنه أبو القاسم ثم أبو البهار بن خلوف ثم منصور بن رشيق في آخر أيام باديس إلى أن عزل سنة 406هـ/1016م في عهد المعز.

هل كان هؤلاء العمال يعينون بكتاب ويعزلون بكتاب؟ هذا ما لم يذكره التاريخ. إلا أننا نعلم أن باديس قد عهد لفلفول بن سعيد على ولاية طبنة وكتب سجلا له بذلك.

ومن النظم الحمادية نذكر أن حمّادا قد قلد أمور صنهاجة إلى غلامه خلف الحميري الذي صار بعد ذلك واليا على أشير سنة 406هـ/1015-1016م، وأنه كان للناصر بن علناس وزير اسمه خلف بن أبي حيدرة الذي كان من قبل وزيرا لبلكين بن محمد، لكنه قتل بسعاية رجالات صنهاجة فيه وعوض بأبي بكر بن الفتوح الذي قتل هو الآخر. ومن ثم انتقلت الوزارة إلى بني حمدون إلى أن انقرضت الدولة الحمّادية. فوزراء الحمّاديين، كما ترى، هم الآخرون، لم يكونوا من السلالة الصنهاجية.

والأمير في حاجة إلى مكاتبة غيره من السلاطين والملوك والخلفاء، فمن الضروري، إذن، أن يكون له ديوان الرسائل والبريد. فقد وردت على أبي الفتوح بلكين، وهو في المغرب الأقصى، رسائل من القاهرة قرأها وبعثها إلى عامله بالقيروان.

النظام المالي

إن المعز لدين الله، قبيل أن يغادر افريقية، جعل على جباية أموال الولاية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني وحسن بن خلف المرصدي وأمرهما بالانقياد ليوسف بن زيري. فأراد بذلك أن يفرق الإدارة المالية والإدارة السياسية.

وفي سنة 380 توفي المرصدي، فأمر أبو الفتح المنصور بولاية محمد بن عبد القاهر بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى. فجلسا معا في ديوان خراج المنصور،[1] وهذا الديوان كان بدار الإمارة التي كانت تحتوي على الدواوين وبيت المال ومكتبة. والخراج هو ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج، وما يؤخذ على ما يصاد من السمك.

فكان يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة. وكانت ضرائب أخرى بجانب الخراج يؤديها التجار وأصحاب الحرف، والجزية المفروضة على أهل الذمة. وهذه الجبايات كانت منظمة تنظيما دقيقا على ما يظهر، ويحرس عليها رجال متخصصون مثل الذين ذكرنا. وكانت تدخل من جرائها على الخزينة السلطانية أموال طائلة. يروي البكري أن المكوس التي تجبى عند باب من أبواب المنصورية كانت تبلغ ستة وعشرين ألف درهم. ولا يستغرب من ذلك، فكانت البلاد تنعم بالرخاء، نظرا إلى حركاتها التجارية وغلاتها الزراعية والنشاط

---

(1) البيان جـ 1 ص351.

الذي كان يقوم به الناس. فابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون يذكرون لنا الشيء الكثير عن الأموال التي كانت تنفق في شتى المناسبات. تزوجت السيدة أم الحلو بنت نصير الدولة أخت شرف الدولة. فنظر الناس من صنوف الجوهر والأسلاك والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضة ما لم يعمل مثله ولا سمح لأحد من الملوك فيه. قوم ما هو لها، فكان زائدا على ألف دينار. وهذا لم يرقط لامرأة قبلها بافريقية.[1]

ولما توفيت السيدة زوجة نصير الدولة كفنت فيما لم يذكر أن ملكا من الملوك كفن في مثله. فحكى من حضره من التجار أن قيمته مائة الف دينار، وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجوهر. وكانت مسامير التابوت بألفي دينار.[2]

وأرسل باديس إلى الحاكم الفاطمي هدية جليلة شيعها بالطبول والبنود، وكان فيها مائة فرش لها سروج محلاة شدت في ثمانية عشر حملا أقفاصا، وكان فيها ثمانية عشر حملا من الخز والسمور والمتاع السوسي المذهب النفيس.[3]

السكة

إن الزيريين كانوا يضربون السكة، وذلك منذ عهد زيري بن مناد، ولكنهم ينقشون عليها اسم الخليفة الفاطمي، لأنّهم كانوا يدينون له بالتبعية. فكانت تضرب بالمنصورية والقيروان والمهدية.

---

(1) البيان جـ 1 ص: 393-394
(2) نفس المصدر ص: 390
(3) نفس المصدر ص: 375

إلا أن المعز أمر في شعبان من سنة 441هـ بتبديل السكة. ثم بث في الناس قطع سكة الفاطميين وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله، وقد كان قطع أسماءهم من الرايات والبنود، وكان مبدأ ضرب السكة بأسماء بني عبيد ورسمها في الرايات والطرز سنة 296هـ إلى أن قطعها المعز سنة 441هـ وذلك مائة وخمس وأربعون سنة.

يخبرنا البكري بأن دار الضرب في القيروان كانت تحتل مكانا مجاورا لدار الإمارة[1] بالقرب من المسجد الجامع حيث تقوم غالب مصالح الحكومة مثل دواوين الخراج والجند والرسائل. ولعل الضرب كان ملحقا بديوان الخراج لاتصال مهمته به. وكان للدار ناظر خاص على نظامها ومسير العمل بها، ويرجع نظره إلى الأمير أو إلى الوالي مباشرة.

والحمّاديون ضربوا السكة ويبدو أن أول من ضربها باسمه من بني حماد هو المنصور بن الناصر،[2] ولم يصف لنا المؤرخون نقوده. إنما نقود يحي بن العزيز فقد وصفها لنا ابن خلدون قائلا:«إن سكة (يحي) في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه· فدائرة الوجه الواحد: "واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله، ثم، توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»: والسطور: لا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحي بن العزيز بالله الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر (بسم الله الرحمن الرحيم. ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة). وفي سطوره: «الإمام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله

(1) خربها السنيون سنة 407هـ/1016م
(2) المقدمة ص: 262

أمير المؤمنين العباسي»[1]. وقد عثر على سكة في حفريات قلعة بني حماد، ويرجع صنعها إلى عصر أمراء بني حماد الصنهاجيين أصحاب القلعة أواخر القرن الخامس للهجرة.[2]

النظام الحربي

إن جيش الدولة الزيرية في أيامها الأولى كان يتألف من الصنهاجيين وحلفائهم من البربر، ومع توالي الأيام من عسكر منظم من صنهاجيين وعبيد ومن زناتة· أما جيش الحمّاديين فكان يتألف من صنهاجة وحلفائهم زناتة. فمنهم الرجالة والفرسان، آلاتهم الحربية السيف والرمح والحربة والمذية والدبوس. وكثيرا ما كان أمراء صنهاجة يأمرون بالتمييز، فيجلسون في قبتهم، فيبرز كل قائد في عسكره. فقد استعرض باديس جنوده بضواحي المسيلة في نفس اليوم الذي مات فيه· قد اهتم الزيريون والحمّاديون معا بإنشاء الأساطيل لحماية سواحل البلاد من غارات الأعداء عليهم مثل البيزيين والجنوبيين والنورمانديين. أسسوا دور صناعة السفن الحربية والتجارية. وأهم مركز بحري في المغرب الأوسط هو بونة، وقد قام أسطولها بدور هام استطاع أن يمد الأسطول الزيري، وقد أغار غير ما مرة على صردانيا وكورسيكة.

---

(1) العبر جـ 6 ص: 363 سنة 543هـ/1148-1149م

(2) المقدمة ص: 261

النظام القضائي

كان الزيريون لا يدينون بالتبعية للفاطميين في عقائدهم، ونظمهم السياسية والإدارية والحربية فحسب بل في نظامهم القضائي أيضا. إن القضاء وتوابعه من المظالم والحسبة من اختصاص السلطان، يقلد القاضي وصاحب المظالم والمحتسب بسجل يقرأ على منبر الجامع ويشترط فيهم أن يكونوا مخلصين للدولة ولا تجاهلها. فالقاضي يكون من الشيعة إلا إذا لم يكن في المصر من يصلح لهذا الأمر من الشيعيين فيعهد به لبعض السنيين وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة.إن سلطة القاضي كانت موزعة بين القاضي وبين قاضي المظالم والمحتسب. فوظيفة الأول فض المنازعات المرتبطة بالدين. ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام. ووظيفة المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب.

والقضاء يشرف عليه قاضي الجماعة وهو بمثابة وزير العدل في الوقت الحاضر ويساعده على القيام بمهمته قضاة الأمصار وقضاة الأطراف. ويختص في النظر في قضايا وخصومات أفراد الجيش قاضي الجند.

من اختصاص قاضي الجماعة الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية وعلى الصلاة في أيام الجمعة والأعياد. وإنما الزواج والطلاق فيشرف عليهما قاض خاص من قضاة الأمصار وقضاة الأطراف، وينوب عن القاضي في أمر الميرات صاحب المواريث وفي الفتاوى الفقهية المفتي كالمزاري.

أما المظالم فكان لها ديوان خاص يعرف بديوان المظالم وهو هيئة قضائية عليا، ورئيس هذا الديوان يسمى صاحب المظالم كمحمد بن عبد الله الذي توفي بافريقية سنة 398هـ، وكانت وطأته قد اشتدت على أهل الريب والفساد بالضرب والقتل وقطع الأيدي والأرجل، لا تأخذه فيهم لومة لائم.[1]، فسلطة صاحب المظالم أعلى من سلطة القاضي: يقول ابن خلدون:«وهي (خطة المظالم) وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي»[1] وكانت محكمة المظالم تنعقد برئاسة الأمير أومن ينوب عنه. وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي في أحكامه.

أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت منظمة بافريقية قبل الفاطميين، وقد حدد سحنون واجبات المحتسب، اختصاصاته عندما مارس مهام الوظيفة في بدأ حياته الإدارية. لما استولى الفاطميون على افريقية والمغرب جعلوا الحسبة من نظمهم، لكنهم وجهوها توجيها خاصا يخدم الاتجاه الاسماعيلي ويحارب المذاهب الأخرى خاصة منها المذهب المالكي. وهكذا كانت في عهد الزيريين.

(1) البيان جـ 1 ص: 371

يقوم المحتسب بمقاومة المنكرات: يحمل الناس على احترام مصالح المجتمع ويمنعهم من الغش والتدليس وينظر الموازين والمكاييل ويحكم بهدم المباني المتداعية ويمنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصغار ضربا مبرحا.وزيادة على هذا كله له النظر في ضرب العيار، ويعينه على مهمته نواب في الأسواق التي اختص كل منها بنوع خاص من أنواع الاقتصاد.

وما قلناه في نظم الزيريين نقوله في نظم الحمّاديين إلا أن الأولى تمارس في إطار المذهب الاسماعيلي والثانية في إطار المذهب السني. ونسجل في الأخير ملاحظة هي أن صلاة الأمير تكون في المسجد الجامع وفي مقصورة خاصة على سنة الملوك والسلاطين.

الحياة الثقافية

دخل الإسلام إلى المغرب وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية في حواضره مثل القيروان وطبنة وتلمسان وتيهرت، ويرجع الفضل في ذلك إلى الولاة ثم إلى الأمراء الذين دفعوا بها إلى الأمام دفعا بحيث لم يأت عهد الزيريين والحمّاديين إلا وأصبحت البلاد تنافس المشرق والأندلس في جميع مسارب هذه الثقافة الفكري منها والأدبي والعلمي والفني والحضاري.

(1) المقدمة ص 222

المذاهب

فتح العرب افريقية والمغرب وضرب الدين بجرانه فيه· اعتنقه البربر وحسن إسلامهم، لكنهم غضبوا حينما رأوا جور وتعسف بعض الولاة وعمالهم الذين أرادوا أن يتصرفوا في المغرب على حسب مزاجهم، فاحتقروا البربر، والبربري غيور على حريته وشرفه ومبادئ إسلامه. يريد أن يكون الوالي الممثل للسلطة الحاكمة قدوة للشعب ولا يفرق بين عناصره ويطبق تطبيقا دقيقا ما جاء به القرآن والسنة. وبلغ السيل الزبى لما رأوا من الأمويين والعباسيين ميلهم للعرب، والإسلام قد سوى بين المسلمين. وقد زاد غضبهم حدة حيث ظهرت الخارجية التي تدعو إلى ما يساير نزعات البربر من ديمقراطية ومساواة، وأخذ أصحابها يبثونها في البربر، ففشت فيهم، وضرب فيها بنو يفرن بسهم وانتحلوها وقاتلوا عليها. وكان أول من جمع لذلك منهم أبو قرة صاحب تلمسان، ثم من بعده أبو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار وقومه بنو واركو ومرنجيصه. دخلت الشيعة إلى افريقية والمغرب الأوسط، ولكن المذهب الاباضي وقف في طريق انتشار المذهب الباطني. فلا بد، إذن، من القضاء عليه وتعويض كتب المعصومة بكتب عقائد الاسماعيلية. فتتبع العبيديون رؤساء الجمهوريين في المغرب الأوسط وفي تيهرت يقتلونهم، فهرب أغلبهم إلى جبال أوراس المنيعة وإلى جبال بني راشد، فحلوا في مدينة تأويلا، وإلى ورجلان في الصحراء والي جبال نفوسة وجرفة، ثم تتبعوا آثار القبائل الجمهورية في أنحاء المغرب·

وكان المالكيون يكرهون الشيعة. وهذا الكره له أسبابه. فإن الإسماعيلية يعتقدون أن الفيض والإبداع شيء مستتر. ولهذه الفكر نتائج بعيدة المدى، إذ أنها تؤدي إلى القول بأن الوحي لم ينقطع عند محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) إذ جاء بعده محمد بن إسماعيل والأئمة من بعده ليكونوا مصدرا للتأويل وليفسروا القرآن تفسيرا باطنيا، فإنهم قد خلعوا على العقل الأول المبدع الأول بعض الأسماء الحسنى، فهم يصفونه بالحياة وهم يقولون إنه الأول والكلمة والعالم الأول والقدرة والقادر الأول، ويجعلونه من صفات الحياة أصل الصفات ومركزها وهي تتقدم في الوجود على غيرها من الصفات وتدور حولها كل الصفات الإضافية.[1] فلهذا اتهم المالكيون بإنكارهم لله وبأنهم استعاضوا عنه بالعقل الأول.

والإسماعيلية يعتقدون بأن الوحي لا ينقطع لأنه فيض من العقل الأول وهو الناطق على العقول لمفارقة الأخرى. فأخذوا يوزعون الأسماء الحسنى على هذه العقول ولهذا عزي للإمـــام جعفر الصادق[2] أنه قال: «نحن آيات الله الكبرى وأسماؤه الحسنى وأمثاله العليا وكلماته الصدق والعدل، فمن توسل بخيرنا لم يحط، ومن دعا لغيرنا لم يجب».[3]

فالإمام عند الإسماعيلية هو الواحد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار.

(1) راحة العقل للكرماني ص: 13.
(2) بل افترى عليه، فكان المنحرفون يحاولون التمسح به لبث آرائهم الفاسدة حتى ينسفوا الصرح الإسلامي. ولكن كان يقف في وجوههم ويشدد في البراءة منها أفلم يكن حجة الإسلام في أيامه أستاذ المثل أبي حنيفة ومالك؟
(3) الرسالة المذهبة للقاضي النعماني بن محمد ص 30.

والإيمان عندهم هو الباطن. ويشترط فيه المعرفة والتصديق القلبي. وهذه المعرفة قائمة في التأويل الباطني لآيات الكتاب، وقد يعلوها وقفا على الأئمة من أهل بيت الرسول، أي لم يفتحوا أبواب هذه المعرفة للمؤمنين بل جعلوها وقفا على الأئمة. وأتباع الأئمة لابد لهم من المعرفة إلا أنه محظور عليهم أن يعرفوا بأنفسهم واعتمادا على عقلهم أن ينقلوا المعرفة من منبعها الوحيد العارف بحقيقة التأويل الباطني أي الإمام، الأمر الذي يؤدي إلى وجوب إتباع الأئمة والانقياد لهم. فمبادئهم، كما ترى، متطرفة، أغضبت، وأثارت أهل السنة عليهم فناظروهم وساجلوها. ولكن، قاسوا من جراء ذلك محنا لا تنسى فاستشهد عدد عظيم منهم، ولم ينج أحد من أذى الإسماعيلية من أهل المذاهب الأخرى، واعترى المذهب المالكي نوع من الركود نحو نصف قرن حتى كانت مناهضة الرافضية عندما اعتلى المعز بن باديس عرش المملكة 15 محرم سنة 407هـ، وكان يميل إلى أهل السنة. فهجم الناس على أهل الشيعة الروافض فقتلوهم وانتهبوا أموالهم وخربوا ديارهم، وذلك كرد فعل لما قاسوه منهم. فإن سياسة الفاطميين أضرت بالحياة الاجتماعية والدينية إضرارا كبيرا. ورحل الفاطميون إلى مصر وقد تركوا أمر هذه البلاد لبني زيري فترسموا خطاهم في بث الدعوة الإسماعيلية في كل مكان بسطوا فيه نفوذهم. فقد تفانى بلكين أبو الفتوح في الولاء للفاطميين ودخل المغرب الأقصى وتوغل في ربوعه وأقام الدعوة للخليفة الفاطمي على منابر جوامعه[1]. وكانت الخطبة للفاطميين تقترن بنشر المذهب الاسماعيلي بين أهالي البلاد. فقد شجع الصنهاجيون المشارقة بإغداق الأموال عليهم وبتوليتهم المناصب العالية

(1) إبن خلكان ج2 ص.55.

في الدولة، وقد وضحت هذه السياسة وضوحا تاما في عهد المنصور بن بلكين، فسياسته كانت نفس السياسة التي انتحاها الخلفاء الفاطميون. فكان عامل القيروان يعقد في دار الإمارة مجلسا يحضره الدعاة المتضلعون في عقائد المذهب الاسماعيلي ويدعى إلى هذا المجلس العلماء السنيون، فيناظروهم في فضائل أهل البيت ويرغبوهم في الدخول في مذهبهم بالحسنى. فإذا دخل السني في هذا المذهب أغدقت عليه الأموال، وإذا أبى نكل به وعذب[1].

وكان هؤلاء الدعاة الاسماعيليون يحاضرون في مدارس القيروان ويقربون عقائد مذهبهم إلى أذهان الناس حتى أصبحوا يدخلون فيها أفواجا. فكانوا يناظرون الفقهاء السنيين. فقد روى الدباغ أنهم بعثوا في طلب أبي سعيد وكان من فقهاء القيروان السنيين. فلما دخل المجلس لقيه الداعيان الاسماعيليان أبو طالب وأبو عبد الله وناظراه في فضائل أهل البيت ورغباه في الدخول في المذهب الاسماعيلي. فأبى وقال:«لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك». وكانت الدولة الفاطمية في مصر ترقب جهود بني زيري في نشر المذهب الاسماعيلي ومحاربة أهل السنة. فكانوا يعينون الدعاة ويسندون إليهم إمامة هذا المذهب. فلا يجد الأمراء الزيريون بدا من الاعتراف بإمامة هؤلاء الدعاة وتأييدهم وشد أزرهم وتسخير الجند والشرطة في خدمتهم.

وكان الأمير نفسه يحضر مجالس هؤلاء الدعاة ويستمع إلى محاضراتهم ويرقب جهودهم. فكل من بلكين والمنصور وباديس والمعز

(1) الدباغ: معالم الإيمان جـ 3 ص: 113-115

بدء أيامه عمل على نشر المذهب الاسماعيلي ورفع لوائه ومحاربة أهل السنة وتسخير الجند والشرطة في النيل من فقهاء المالكية والتنكيل بهم.

إلا أن السنيين كانوا يعملون في القيروان في نشر دعوتهم سرا، وكانت العامة تفد إلى مساجدهم ومجالسهم للاستزادة من فقه الإمام مالك، ولكن ذلك كان لا يجري في غفلة من الدولة ومن المشارقة الذين كانوا يتربصون الدوائر بأهل السنة. وكان من مظاهر ازدياد نفوذ أهل السنة في عهد باديس أن عهد إلى فقيه سني يدعى أبا الحسن بن أبي الرجال بتربية ابنه المعز. وكان أبو الحسن سنيا مالكي المذهب معروفا بالورع والتقوى والتقشف والتفقه في الدين.

فأخذ يحبب إلى الأمير، ولي العهد، عقائد المذهب السني وبث في قلبه كراهية للمذهب الاسماعيلي وللخلفاء الفاطميين. وكان اختيار هذا الفقيه التيهرتي لتربية ولي العهد فوزا بعيد المدى للمذهب السني في افريقية ظهر أثره في مذبحة الشيعة. فإن هذه المذبحة التي وقعت في عهد المعز بن باديس سنة 407هـ نالت من الإسماعيلية في افريقية فأضعفت شأنهم وفرقت كلمتهم وشتت شملهم في الوقت الذي علت فيه كلمة أهل السنة واشتد ساعدهم بانضمام الأمير إليهم وتشجيعه إياهم.

ولعل المعز تراجع في موقفه من الشيعة ليخفف من وطأة البدو على مملكته التي تفككت وحدتها وتضعضع عمرانها، ولكن، لات حين مناص. فأذن الشعب لم تكن لندائه صاغية، فتمادى في عدائه للعقائد الشيعية وفي تطهير البلاد منها ومن أصحابها. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن الأعراب لم يستفزهم تثبيت تلك العقائد التي من أجلها

أرسلوا. فأثناهم عنها ما وجدوه من الخطب والخيرات. فراحوا يثبتون أقدامهم طول البلاد وعرضها، فامتزجوا بالبربر وعمدوا إلى مصاهرتهم مما أدى إلى إقبال البربر على تعلم العربية التي ساعدتهم على أن يحصلوا على ثقافة إسلامية أكثر عمقا من ثقافتهم المتواضعة. فاتجهوا إلى كتب الدين والفقه وحاولوا أن يعمقوا ثقافتهم الإسلامية السنية. وهذه الثقافة الإسلامية السنية قد أثرت في العرب الهلاليين أنفسهم، وكان معظمهم من القرامطة. فنبذوا بتوالي الأيام عقائدهم وانتحلوا المذهب المالكي. فالسنة استفحل أمرها واستوعبت الشعب المغربي بأكمله. وكيف لا وهو يحرم المناقشات الكلامية بين الفرق الإسلامية حول مسائل لها خطرها مثل خلق القرآن والقدر وحرية الإرادة وصفات الله ورؤية الله في الآخرة.

ومما يجدر بالذكر أن أهل افريقية الشمالية آثروا المذهب المالكي على المذهب الحنفي الذي كان يزاحمه.

إن المغرب الأوسط قد وقاه الله من الشيعة، فبينما كان ذلك الصراع قائما بينها وبين السنة في افريقية كان المذهب المالكي ضاربا أطنابه في أوساطه. فقد نبذ حماد الشيعة وفرض على رعيته السنة وبقي من خلفه من الأمراء الحماديين عليها إلى أن انقرضت الدولة. ولكن بما أنهم ليسوا قرشيين كانوا يخطبون على المنابر لبني العباس، وبنو العباس سنيون. أما تلمسان فمنذ توفي صاحبها أبو قرة اليفرني الخارجي واستولى عليها الأدارسة أخذ سكانها بتلابيب المذهب المالكي. فالأدارسة أنبتوا دعائمه فيها وفي المغرب وقد حكموا رقعتهم حكما سنيا. وقد استقر الإمام الداودي بتلمسان وكان مالكي النزعة وكان

له نفوذ في الوسط التلمساني. ومما زاد المذهب رسوخا فيها استيلاء المرابطين عليها. فكانوا سنيين ويعد قيامهم مرحلة هامة من مراحل انتشار الاسلام السني المالكي في المغرب. ولكنهم اهتموا بفروع الفقه وخاضوا في الخلافيات خوضا جعلهم ينسون كتاب الله وعلوم الحديث والتفسير وذلك لجهلهم بها. فاستحقوا بهذا غضبة الإمام الغزالي وثورته عليهم في كتابه «إحياء علوم الدين».

الحركة العلمية والأدبية

قد أنجبت الجزائر أعلاما في الميدانين العلمي والأدبي في ظل الأغالبة والرستميين والفاطميين. ولم تعقر في العهد الصنهاجي. فقد اشتهر حينئذ من رجال الدين المحدث الكبير أبو بكر بن يحي بن عبد الملك بن محمد بن يحي القرشي الجمحي الوهراني. فقال فيه تلميذه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني:"كان شيخنا هذا متصرفا في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم وكان علم الحديث أغلب عليه" لم يكن يخفى على الفقهاء أمثاله ما كان يدور بين الشيعة والمالكيين في افريقية، فلم يزدهم ذلك إلا حماسة وتشبثا بمذهبهم. فظل رائدهم في أحكام الكتاب والسنة. توفي الجمحي الوهراني في سنة 431هـ/1039م.

وكان يعاصره عبد الملك مروان بن علي الأسد القطاني البوني. سكن حاضرة قرطبة. فتعاطى الفنون الدينية ولا سيما الحديث. فأراد أن ينمي معارفه. فقصد المشرق. ثم عاد إلى بونة وتفرغ إلى لتدريس وتوفي بها سنة 439هـ/1047م. لم يكن باع الجزائريين في العلوم اللسانية قصيرا في ذلك الوقت. فقد تخصص أبو القاسم يوسف بن

علي جبارة بن محمد بن عقيل الهندلي البسكري في علوم اللغة والقراءات· ولد سنة 403هـ واتجه إلى المغرب وقصد المشرق. وصل خبره إلى الوزير نظام الملك سنة 458هـ، فاستدعاه إلى الإقراء بمدرسة نيسابور وقرره أستاذا فيها. فجلس للتدريس و لم يفارقها حتى توفي سنة 465، وقد خلف تآليف.

والحسن بن علي بن طريف التيهرتي أولع من صغره بالعلم. تخرج على أئمة الأندلس وكبار علمائها في القرن الخامس الهجري. فأصبح من أئمة عصره في النحو واللغة وسيظهر بعده بقليل ابن معط صاحب الألفية النحوية التي عمل ابن مالك ألفيته على مثالها. توفي الحسن بن علي سنة 501هـ/1 تموز 1108م. أما ثابو محمد عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني فقد اشتهر في العلوم وكلف بها من صباه، فتبحر في الرياضيات وتضلع في الطب. سافر إلى الأندلس في تجارة له سنة 429هـ/1037م وفتنته إشبيلية، فسكنها.

وهناك فئة أخرى من الجزائريين جلبتهم سمعة القيروان في الميدان الثقافي وكانت تزخر بالعلماء والأدباء. فقصدوها وكان في طليعتهم ابن أبي الرجال الشيباني التاهرتي. فكان عالما أديبا. له كتاب في أحكام النجوم قد نقله إلى الاسبانية يهوذا بن موسى سنة 1256م، ثم نقله من الاسبانية إلى اللاتينية بطرس رجوى وايجيد يوس التبالدي، ومن أثاره العلمية أيضا أرجوزة في الأحكام الفلكية طبعت في آخر كفاية الطالب في الأحكام الفلكية لغزال الموسى وشرحها أحمد الحسن بن قنفذ القسنطيني سنة 1313م.

وتعرف حياة ابن أبي الرجال الأدبية عن ابن رشيق المسيلي وقد رَوَى لنا عنه أشعارا كثيرة تجدها في كتابنا «تأريخ الأدب الجزائري». كان يصنع الشعر فصاحة ولسنا وافتخارا بنفسه وحسبه وتخليدا لمآثر قومه و لم يصنعه رغبة ولا رهبة ولا مدحا ولا هجاء. فكان أحد دهاة السياسة الواردين على القيروان من تيهرت. قد اتصل بباديس، فكلفه بتربية ابنه المعز. ويذكر المؤرخون أن هذا الرجل هو الذي لقن المعز مذهب مالك وكرهه في مذهب الشيعة، الأمر الذي دفعه لنبذ طاعة الفاطميين وإعلان استقلاله عنهم بعد ذلك.

فقد أثر في حياة ابن رشيق المسيلي في نواحي ثقافته واتجاهه كما أثر فيها طبعا شيوخ آخرون فإن ابن رشيق كان يستوعب كثيرا من ألوان النشاط الثقافي الحيوي الذي كان يقوم من حوله في القيروان وينتفع بما كان قبله· خلف كتبا كثيرة أهمها العمدة التي قال فيها ابن خلدون:«هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة و لم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله· لقد خلدت ذكره واعتنى الأدباء بها في عصره وبعده اعتناء كبيرا وأعجبوا بمباحثه في النقد الأدبي والبلاغة».

وكانت تعيش في هذه البيئة الزاخرة بالعلماء والأدباء شخصية جزائرية أخرى وكان خطرها كبيرا في الأدب،وهذه الشخصية تتمثل في عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي. ولد عبد الكريم بالمحمدية التي تسمى اليوم المسيلة من مقاطعة الزاب الجزائرية، وتلقى دراسته الأولى في تلك البلدة· ثم ارتحل إلى القيروان حيث اكتمل ثقافته الواسعة في علم اللسان والأوزان، وأصبح بعد حين كاتبا حاذقا وشاعرا بارعا وذا مكانة واسعة في النقد. وقد شاع صيته في هذا اللون من الأدب بفضل

كتابه الممتع الذي يوري فيه رأيه في الشعر والشعراء ويوضح أساليب النقد ومناحيه، فتأثر به مواطنه الحسن بن رشيق وأخذ بآرائه في كثير من الأحيان. فاقرأ العمدة يتضح لك ذلك. وتأثر كذلك الحصرى وابن شرف. لقد أعانت عبد الكريم تلك البيئة على الحصول على خصوبة كبيرة في الأدب. وقد اتصل بأولي الأمر، فكتب لتميم بن المعز بن باديس. وله قصائد طوال منها القصيدة التي مدح بها المعز بن باديس مستهلا فيها بوصف دار البحر بالمنصورية ويقول فيها:

يارب فتيان صدق رحت بينهم   والشمس كالندف المعشوق في الأفق

مرض أصائلها حسرى شمائلهـا   تروح الغصـن المطور في الـورق

وروى له صاحب زهر الآداب أبياتا في رثاء عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب وقد تناول دواء كان سبب حتفه. وروى له ابن رشيق في عمدته مقطوعة وقد وصف فيها فيلا.

ومن معاصريه الجزائريين الحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي النسابة... التاهرتي أصلا القيرواني طلبا للأدب، وأبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المشهور بابن قاضي ميلة· ذكره ابن بسام الأندلسي في ذخيرته والعمري في مسالكه وابن خلكان في وفياته وابن رشيق في عمدته· فقال فيه هذا:«شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ويكثر الزجر والعيافة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات».

وكانت شخصية أخرى عاصرت ذا وأولئك. وتلك الشخصية تتجلى في ابن الربيب الحسن بن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي نسبه

إلى تيهرت ويدعى هو الآخر القيرواني لقضائه معظم حياته بالقيروان طلبا للعلم والأدب. فلم يلبث أن صار قوي الكلام. فإن رسالته إلى ابن حزم الأندلسي لأكبر شاهد على تفوقه في النثر الفني.

وتعاطى صناعة القريض، فأصبح شاعرا بارعا تشهد بحذقه وقوته تلك القصيدة التي قالها في محمد بن أبي العرب. وصفه ابن رشيق بأنه بلغ نهاية الأدب وعلم النسب. وكان قوي الكلام يتكلفه بعض التكليف. وفي الذخيرة يورد له ابن بسام الرسالة التي بعث بها إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم والتي وصف فيها تقصير أدباء الأندلس وتفريطهم في حق أثارهم وفضائلهم ومآثر بلادهم. فهذه الرسالة تدل على أن الجزائريين كانوا على بينة من أخبار الملوك والأمراء والكتاب والوزراء والقضاة والعلماء في الديار الأندلسية، فليس بين البلدين إلا «روحة راكب أو دلجة قارب»،[1] وتدل أيضا على ما وصل إليه الحقل الأدبي من الخصوبة في افريقية، وقد شارك الجزائريون في هذه الخصوبة من جميع جوانبها إلى حد بعيد· فكان منهم الشاعر والكاتب والناقد. ولعل أكبر ناقد في القرن الخامس الهجري ابن رشيق المسيلي الجزائري.

فإن العرب عرفوا النقد الأدبي كغيره من ألوان المعرفة منذ الجاهلية، وقد مر بأطوار شتى في المشرق والمغرب، وكانت الأصداء النقدية تتلاقى في البيئة القيروانية التي كان يعيش فيها ابن رشيق فتمتزج بما فيها من أصوات. كان فيها اللغويون والعروضيون، كان لهم رأيهم في الشعر وفي اللغة والغريب والمحسنات اللفظية والبلاغة، وكان فيها

---

(1) الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب: انظر الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص: 113 وإلى تأريخ الأدب الجزائري ص: 96 (ط2) (2) عبد الرحمان ياغي:حياة القيروان ص:400

النقدة والأدباء والشعراء... ولكن طريقهم في النقد الأدبي تتناول أخبارا نقدية متناثرة وأحكاما على الأدب متفرقة وآراء في الشعر جزئية غير مقتضبة إلى أن يجيء ابن رشيق فيختص في نقد الشعر عامة ويبوب البحث ويجمع له عدته وينظم منهجه، بحث منهجي علمي.والجدير بالذكر أن هؤلاء المغاربة المقيمين بالقيروان لم يقولوا شعرا في الحمّاديين، على ما نعلم، فاستأثر بهم بلاط الزيريين، فراحوا يتغنون بمدحهم وينشدون مفاخرهم، فإن الجو السياسي لم يكن دائما صافيا بين الدولتين الشقيقتين.

إلا أن هذه الحركة الفكرية، التي امتاز بها عهد المعز والتي لم تعرف مثلها افريقية من قبل، لم يطل أمدها. فقد فسد الأمر بين المعز وبين الأعراب، فنقضوا الصلح المبرم سنة 442هـ بينهم وأشعلوا نار الحرب. فدارت الدائرة على المعز. فدخل القيروان ولكنهم حاصروها بمجموعهم. فلم ير الأمير بدا من الانتقال إلى المهدية الحصينة، فدخل العرب القيروان ومن انضم إليهم من جيش المعز. فخربوا وسلبوا ونهبوا ما وجدوه فيها وفي صبرة. فتشتت السكان وهاموا على وجوههم، وتفرقت مجامع العلم والأدب، وكان حظ المغرب من هؤلاء الهاربين كبيرا. فقصدوا القلعة ومدنا أخرى. فنونية ابن رشيق تحدثنا عن حالة القيروان في أيام عزها وعما صارت إليه من خوف وذعر وذلة وهوان.

فامتلأت عاصمة الحمّاديين بالعلماء والأدباء والفنانين الماهرين. فنهضت الثقافة بها نهضة كبيرة، فبلغت أوج عظمتها. وكان وقتئذ على رأسها الناصر بن علناس. كان هذا العاهل محبا للعلم مصطفيا أهله، فتقاطر على القلعة العلماء والأدباء منهم أبو الفضل بن النحوي.

أصله من توزر. وأخذ العلم بافريقية عن أئمة كبار مثل اللخمي والمازري وابن زكريا الشقراطسي وعبد الجليل الربيعي.

وكان ميالا إلى النظر والاجتهاد. قصد المغرب الأقصى فدخل سجلماسة وقرأ بها أصول الدين وأصول الفقه. فكان متأثرا بآراء الغزالي يبث كتبه أينما حل ولاسيما الإحياء. لقد جاء في البستان[1] أن أبا الفضل انتسخ هذا الكتاب وجعله ثلاثين جزءا. فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءا، وكان يقول:«وددت أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب». فوقع على أبي الفضل إقبال ما جعل ابن بسام أحد رؤساء البلد يقول:«هذا يريد أن يدخل علوما لا نعرفها». وأمر بإخراجه من المسجد. فاضطر أبو الفضل إلى أن ينتقل من سجلماسة إلى فاس. فتصدر هناك للإقراء. فضايقه قاضيها ابن دبوس. فقرر أن يتوجه إلى القلعة. فدخلها سنة 494هـ وانتفعوا من علمه. ومن تلاميذه ابن الرمامة رئيس المفتين بفاس، والفقيه أبو عمران الصنهاجي وأبو بكر بن المخلوف وأخوه محمد وغيرهم كلهم من المغرب الأوسط.

وكان أبو الفضل يحسن قرض الشعر، وقد برع في نوع منه، وقلده فيه من أتى بعده وهو شعر التوسلات والابتهالات، والمنفرجة خلدت ذكره، قد اعتنى بها الأدباء، تجدها في عنوان الدراية للغبريني ص:194. اليك مطلعها:

اشتـدّي ازمة تنفرجـي　　　قد آذن ليلك بالبلـج

---

(1) ص.301.

وبقي ابن النحوي بالقلعة أكثر من 13 سنة قضاها كلها في العبادة والتدريس محبوبا من الناس محترما من لدن أمراء بني حماد إلى أن توفي فيها رحمه الله سنة 503هـ.

ومن شعراء القيروان الذين قصدوا الناصر ابن الكفاه الذي قال فيه:

قالت سعاد وقد زمت ركائبها مهلا عليك فأنت الرائح الغادي

فقلت: تالله لا أنفك ذا سفر تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي

حتى أقبل ترب الزر منتصرا بالناصر بن علناس بن حمادي

أسس الناصر بجاية، وأقام بها من أسباب الحضارة ما لم ير مثله شرقا ولا غربا. أسس المدارس والمعاهد العلمية وأمر أن توزع المنح على العباقرة والمبرزين في كل فن. فازدحم على تلك المعاهد العلماء والحكماء والأطباء والأدباء وأهل الفنون الرياضية والهندسية، قال ابن خلدون: «ظهر عند الحماديين من العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخين والأطباء والرياضيين وغيرهم ظهروا لا عهد لجزائر به من قبل».

وأمّ بجاية والعواصم الأخرى الكثير من علماء الأندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم. فاستفادت الجزائر من علومهم وثقافتهم. وقد بلغ إقبال الناس على العلم يومئذ أنه كان يجتمع على المدرس الواحد ما يربو على مائة طالب، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره. فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لأمانة العلم.[1] قال شارل سينيوبوس في

(1) تاريخ عبد الرحمان الجيلالي جـ1 ص329.

كتابه تأريخ الحضارة. كان أهل بيزا الايطاليون يترلون مدينة بجاية في الجزائر، فتعلموا منها صنع الشمع، ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبا، وببجاية تعلم الرياضي المهندس ليورنار فييناتشيو[1] العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة وأدخلها إلى أوروبا التي كانت خالية وقتئذ من العلم والعلماء.

ويمتاز ذلك العصر بحرية الأديان واحترام العقائد بالغرب الأوسط أكثر من أي وقت مضى. كانت بالمدن الحمّادية طوائف مسيحية، إما من بقايا الروم والرومان أو من البربر الذين فقدوا جنسيتهم ونسوا أصلهم أو من أوربيين نزحوا إلى المغرب أومن أوروبا. فكان الحمّاديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم على أقليتهم. وكان لبابوات روما علاقات مع الحمّاديين، ولا سيما مع الناصر بن علناس. أسس مسيحيو القلعة كنيسة بحي جراوة يطل عليها قصر المنار، وقسيسهم يومئذ عزون، وتسميه العامة الخليفة أي خليفة المسيح. ابتنى لنفسه دارا حذاء الكنيسة، وقضى نحبه بالقلعة.ولما انتقل الملك الناصر إلى عاصمته الجديدة، انتقل إثره الكثير من السكان من بينهم النصارى. فاهتم بأمر هؤلاء وأبى إلا أن يكون لهم قسيسهم. فاقترح عليه أرشفاك قرطاجة القسيس سرفاند. فصادق عليه الناصر.

لما سافر سرفاند إلى رومة أعطاه الناصر رسالة شخصية ودية مصحوبة بهدايا إلى البابا فريفوار السابع (Grégoire7). واشترى جميع الأسرى الذين عثر عليهم بمملكته وأرسلهم إلى البابا واعـــدا إياه بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فلما عاد سرفاند إلى المغرب

(1) Fibenaccis

أرسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء إلى الناصر. وبعث له رئيس الكنيسة أيضا رسالة خاصة سنة 469هـ/1076م ذكرها الأستاذ قلفان في كتابه المغرب الأوسط في عهد الزيريين. إليك نص تلك الرسالة التي تعد أهم رسالة من بابوات روما إلى ملوك المغرب.

"من فريفوار ايفيك عبد عبيد الله إلى الناصر ملك موريطانية السطيفية بافريقية سلاما ورضا الكنيسة.....

كتبت لنا سيادتكم النبيلة هذه السنة تطلب منا أن نعين القسيس سرفاند ايفيك على مقتضى الشريعة النصرانية، الأمر الذي بادرنا بتنفيذه نظرا لعدل طلبكم. وقد أرسلتم إلينا (بهذه المناسبة) هدايا، وقد أفديتم المسيحيين الذين كانوا أسرى بمملكتكم تقديرا لبطرس وحبا لنا، وقد وعدتمونا بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فإن الخالق، الذي لولاه لما قمنا بأي شيء، قد ألهمكم هذا الحلم وقاد قلبكم للقيام بهذا العمل الكريم.

إن الله العزيز، الذي يريد أن ينقذ جميع الناس وأن لا يهلك أحد، لا يرضيه شيء أكثر من محبة الإنسان لأخيه بعد الحب الذي يجب على هذا الإنسان نحو نفسه ومن العمل بهذه الحكمة: عامل غيرك بما تريد أن تعامل به.

ويجب عليكم وعلينا أن نفعل الخير أكثر من الأمم الأخرى حيث إننا نعبد إلها واحدا على طرق مختلفة وأن نحمده ونقدسه كل يوم، فإنه خالق الأجيال ورب العالمين، فإن أعيان مدينة روما، عند سماعهم منا بصنيعكم الذي ألهمكم الله إياه، أعجبوا بسمو عواطفكم

وشادوا بذكركم. فإن اثنين منهم، نديمينا البريك وسنسيوس اللذين تربيا معنا منذ طفولتهما بقصر روما، يرغبان رغبة شديدة في أن تكون بينكم وبينهما صداقة وتعاون ويسعدهما أن يجدياكم نفعا في هذه البلاد. فإنهما يبعثان لكم بعض رجالهم يحدثونكم عن تقدير سادتهم لما قمتم به ولجلالتكم وعن سرورهم بخدمتكم هنا. فنوصي فخامتكم بهم حبا وخيرا، ونسأل عطفكم عليهم ورعايتكم لهم بقدر ما يكون عطفنا لكم واعتناؤنا بما يهمكم.

والله تعالى يشهد أنه هو الملهم لهذه الصداقة التي نعدكم بها، وكم نتمنى لكم من حفظ ومجد في هذه الدنيا وفي الآخرة. نسأله من صميم فؤادنا أن سنفضلكم، بعد عمر مديد، في نعيم القديس إبراهيم".

فهذه الرسالة تعد أهم رسالة من بابوات روما إلى ملوك المغرب تدل على العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين وعلى تسامح ملوك بني حماد الديني، فلا شك أن هذا التسامح كان يعم اليهود أيضا. فكانوا يعيشون مطمئنين في ظلال هذه الدولة الواعية.

تلت هجرة القيروانيين هجرة أخرى كانت من الأندلس على إثر قيام البربر فيها بعدة فتن قضت على الزهراء[1] والزاهرة[2] وشتتت القرطبيين بالخصوص. فهاجر كثير منهم إلى المغرب الأوسط وبجاية بالذات.

وقد خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف عن ممالكهم. ومن جملة هؤلاء عز الدولـــة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صالح،

(1) شيدها عبد الرحمان الناصر.
(2) شيدها المنصور بن أبي عامر

فارتحل هذا الأمير بأهله وماله من الأندلس إلي المغرب، فترل على المنصور ملك بجاية فأكرمه، زاره أثناء مقامه ببجاية الشاعر الاندلسي ابن اللبانة، فقال «ما علمت جور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة ابن المعتصم ابن صالح. فإنني رأيت منه خير من يجتمع به كأنه لم يخلقه الله إلا للملك والرئاسة مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه واسماعه ورقة طباعه ونظافة ذهنه»[1] ولعل ما قاله فيه ابن اللبانة هو نفس ما دار بخلد المنصور الحمّادي، فاقطعه مدينة دلس ونواحيها، فأصبح ذا سيادة وحكم فيها، فأمكنه أن ينسى بذلك ما ألم به من حزن لفراق بلاده وعزه فيها، وكان عز الدولة أديبا أثبت له التاريخ شعرا رقيقا، فإليك مقطوعة منه تتضمن شكواه من الدهر وتصور غربته وفقده سلطانه ونفوذه.

لك الحمد بعد الملك أصبح خاملا ... بأرض اغتراب أمر ولا أجلي

وقد اصدأت فيها الهوادة منصلي ... كما نسيت ركن الجياد بها رجلي

ولا مسمعي يصغي لنغمة شاعر ... وكفي لا تمتد يوما إلى بذل

طريدا شريدا لا أومل رجعه ... إلى موطن بوعدت عنه ولا أهل

وقد كنت متبوعا فأمسيت تابعا ... لدى معشر ليسوا بجنسي ولا شكلي

يخوضون فيها لا أرى فيه خائضا ... وقبلهم قد اقصدت مقتل النبل

وقولي مسموع وفعلي محكم ... وها أنا لا قولي يجوز إلا فعلي

وقد كنت غرا بالزمان وصرفه ... فقد بان قدر العز عندي والذل

عزاودك، كم ليث يصاد بغيلة ... وصبح من بعد النشاط لفي حبل

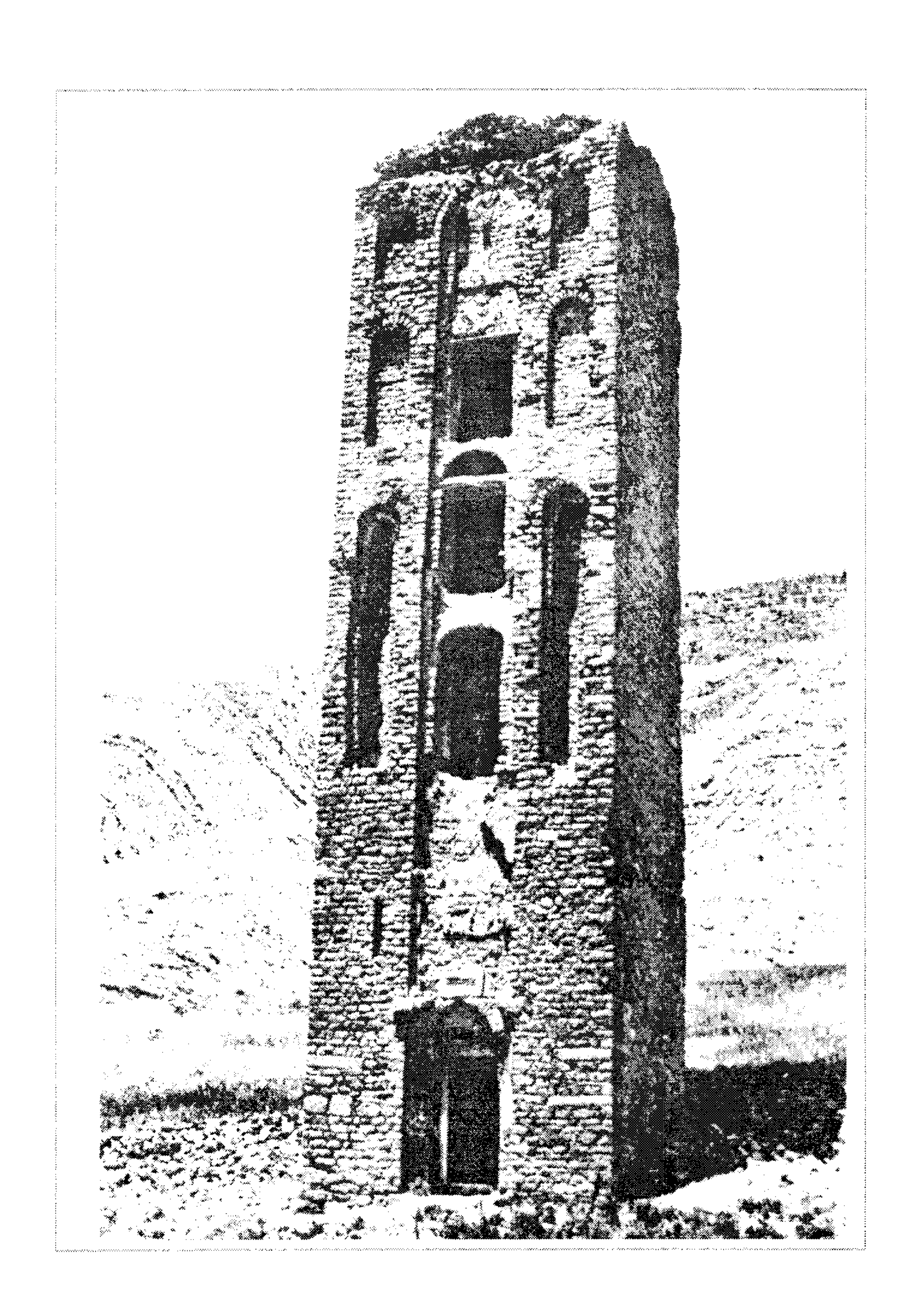
(1) نفح الطيب جـ 4 ص:34

ولعله قد قال هذه الأبيات مدة مقامه ببجاية، وقد استوحش من استقراره بها قبل أن يتربع علي كرسي ولايته الصغيرة دلس. وقد أصبحت هذه المدينة بفضل عمل الأندلسيين الذين تقاطروا عليها، مركزا ثريا، فكان فيها كما يقول الإدريسي :« الديار والقصور والمتنزهات» وازدهرت الفلاحة حتى تمكن أهلها من أن يرسلوا من غلاتها إلى غيرها من المدن، وهذا الأمير وهؤلاء الاندلسيون قد جاؤا بثقافتهم وعوائدهم، وقد اتصلوا بأهل البلد، فأثروا وتأثروا والهجرة الثالثة كانت من صقلية حيث تسلط عليها النورماند، فقد حينئذ المسلمون سلطاهم السياسي في تلك الربوع.

لكن الملك روجر اظهر عقلا راجحا، رأى أن التسامح وحده هو الذي يكفل الحكم الصالح للجميع، وكانت الطبقة الارستقراطية التي تتمثل في أعيان الأئمة وطنية القوم من رجال العلم والفكر والصناعة، مؤلفة خاصة من المسلمين، فبذل لهم حماية بصفة فعالة[1] وقد سلك خلفاؤه خطته، وقد قال لشوط :«لقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الأدبية العربية أمدا حتي عصر فريدريك، ولكن البابا أخذ يستثير العامة ورجال الدين وأوربا كلها ضد هذا العاهل، فثارت ثورة التعصب الكنيسي فأخذ رجال الكهنوت يمعنون في تتبع «الكفار»[2] والتنكيل بهم وإحراقهم ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما، فأصبح حينئذ المسلمون يغادرون جزيرة صقلية جماعات وأفرادا كلما وجدوا للخروج سبيلا. فلم يبق منهم هنالك إلا الأقل

(1) توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية ص 191

(2) الذين لا يتبعون المسيحية



بعيشون في ذل ومسكنة[1] وبلغ السيل الزبى عندما مات صاحب افريقية[2] أبو زكريا بن أبي محمد الذي كان قد أبرم صلحا مع ملك صقليه على أن يعيش مسلمو الجزيرة مطمئنين لا خوف عليهم ولا على أموالهم، تكالب النصارى على المسلمين وأركبوهم البحر واجتازوا بهم إلى أرض افريقية.

وقد نبغ في الجزيرة رجال كثيرون خلدوا على صفحات التاريخ اسمها منهم المازري وابن ظفر وابن القطاع وابن حمديس، ويهمنا من هؤلاء هذا الاخير، فإنه سكن المغرب، الأوسط وحظي عند ملوكها وأمرائها، ولد ابن حمديس في مدينة سرقوسة من صقلية سنة 446هـ، فلم تمض على ابن حمديس أيام الشباب حتي استولي النورماند على صقلية فرأى مصرع قومه ومصائبهم، وقد صور لنا ذلك في شعره فقد نزح عنها، إذ لم يستطع البقاء تحت حكم المسيحيين، فقصد الاندلس واتصل بأمير اشبيلية المعتمد بن عباد، فمدحه ونال جوائزه، وعاش في ظلاله الوارفة إلى أن اعتقل المعتمد وذهبوا به إلي اغمات بالمغرب الأقصى فتبعه ابن حمديس، ثم توجه إلي المهدية، عاصمة افريقية- حينئذ - ومن ثـــمّ دخل المغرب الأوسط اتصل بكرامة بن المنصور الحمّادي والي بونة ثم واصل طريقه إلي العاصمة، فاستقبله المنصور بحفاوة وأغدق عليه صلاته، السنية فمدحه بشعر جيد ووصف منشآته الفنية. أصغ اليه سمعك وهو يصف دارا بناها الملك المنصور ببجاية.

(1) توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية ص 206

(2) سنة 647هـ/ 1260م

اعمر بقصر الملك ناديك الــذي	أضحى يجديك بيته معمــورا
قصر لو أنك قد كحلت بنــوره	أعمى لعاد الى المقام بصــيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمــــه	فكاد يحدث بالعظام نشــورا
نسي الصبيح مع الفصيح بذكــره	وسما، ففاق خورنقا وسديــرا
لوان بالايوان قوبل حســـــنه	ما كان شيئا عنده مذكــورا
أعيت مصانعه علي الفــرس الألى	رفعوا البناء وأحكمو ا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا	لملوكهم شبها له ونظــــيرا
أذكرتنا الفردوس حين آريتنـــا	غرفا رفعت بناءها وقصــورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهـــــم	ورجوا بذلك جنة وحريـــــرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت	حسناتهم لذنوبهم تكفــــيرا
فلك من الأفلاك إلا أنــــــه	حقر البدور فأطلع المنصــورا
أبصرته فرأيت أبدع منظـــــر	ثم انتنيت بناظري محســــورا
فظننت أني حالم في جنـــــــة	لما رأيت الملك فيها كبـــيرا
وإذا الولائد فتحت أبوابــــــه	جعلت ترحب بالعفاة صريـــرا
عضت علي حلقاتهن ضراغـــم	فقرت بها أفواهها تكبـــــيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندهـــــا	من لم يكن بدخولها مأمـــورا
تجري الخواطر مطلقات اعــــنة	فيه فتكبو عن مداه قصـــــورا
بمرخم الساحات تحسب أنــــه	فرش المها وتوشح الكافـــورا
ومحصب بالدر تحسب تربـــــة	مسكا تضوع نشوة وعبـــيرا
تستخلف الأبصار منه إذا أتـــى	صبحا على غسق الظلام منيرا

ذكر المقرى هذه القصيدة في نفحه[1]، وأورد لنا أخرى لا تقل روعة عن الأولى يصف فيها بركة عليها أشجار من ذهب ترمي فروعها المياه، وعلى حافاتها أسود تقذف المياه من أفواهها، فأنصت إليها:

(1) نفح الطيب جـ 2ص: 37

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الما فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكوتهما متحرك في النفس لو وجدت هناك منيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها، والشمس تجلو لونها نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائة درعا فقدر سردها تقديرا
ومديعة النمرات تعبر نحوها عيناي بحر عجائب مسجورا
شجيرة ذهبية نزعت الى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما قنصت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجي ن نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في تلك غصن فضة لانت،فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الأبواب تبرا نظروا بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبد ومسامير النضار كما علت تلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعها أقلامها فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما باللا زورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا

قال المقري: ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله:

يا ملك الأرض الذي أضحى له
ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك فقدمت
واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاســـة
منها ودمرت العدا تدميـــرا

فابن حمديس يظهر في كلتا القصيدتين وصافا حاذقا بل فنانا ماهرا، حيث نلمس في شعره عذوبة اللفظ وروعة الصورة وحلاوة الموسيقى. فشتان ما بين نزعته ونزعة ابن هانئ. فابن حمديس سني فيقول:

يا ملك الأرض الذي أضحى له
ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك قـــدمت
واستوجبت بقصورك التأخيـــرا
فعمرتها وملكت كلّ رئاســـة
منها ودمرت العدا تدميـــــرا

والآخر شيعي فيقول في جعفر بن علي صاحب المسيلة:

ما شئت لا ما شاءت الأقــــدار
فاحكم فأنت الواحد القهـــــار

فقد أعجب ابن حمديس المقام في بجاية، معقل الثقافة حينذاك، فاستوطنها نهائيا إلى أن توفي سنة 528 هـ/1132م معززا مكرما من طرف المنصور ومن لدن من جاء بعده من الملوك.وغادر صقلية أبو عبد الله محمد بن أبي فرج بن فرج المازري المعروف بالذكي كما أشرنا إلى ذلك من قبل. ولد بصقلية سنة 427هـ وكان من كبار العلماء مبرزا في علوم اللغة والنحو وسائر فنون الأدب.ورد على قلعة بني حماد، ولكنه لم يبق فيها طويلا فإنه كان يحب الأسفار، فرحل إلى المشرق، وساح جهات العراق وفارس حتى وصل إلى الهند. وقع له مخاصمات مع جماعة من الأئمة ومات متسوحا بأصبحان سنة 515 هـ.

وأبو زيد عبد الرحمان بن علي بن محمد القرشي المعروف بابن الحجري هو الآخر غادر صقلية، وكان فقيها نحويا لغويا أحد الأفاضل المنتصبين للأستاذية والإقراء دخل تونس واتصل بمشائخ هناك كأبي زيد عبد الرحمان إسماعيل بن الجداد التونسي، ومن ثم دخل إلى بجاية فأخذ عنه العلم فضلاء كثيرون مثل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي، وقد أجاز له. فالحمّاديون كانوا لا يألون جهدا في تقريب العلماء والأدباء الذين تلهج ألسنتهم بالمدح الذي يجدون فيه متاعا فقال فيهم يوسف بن مبارك:

هناك النصر ونيل النجاح
في يومكم هذا بسمر الرماح

فأنتم الصيد الكرام الألى
شادوا العلا بالنائل المستماح

ما منكم الاهمام حـــــوى
مناقبا جلى ومجـــــدا صـــراح
لا ترهبون الدهر أعداءكم
وتمنعون العرض من أن يبـــاح
وتبذلون الرفد يوم الندى
وتسعرون الحرب يوم الكفـــاح
وترفعون الجار فوق السهى
وتكرمون الضيف مهما استماح
لازلتم تجنون زهر العلا
في معرض العز بحد الصفـــــاح

وكان يحاضر هذا الشاعر على بن الزيتوني. فقال العماد عن ابن بشرون:

«انه شاعر المغرب الأوسط وأديبه وألمعيه وأريبه، وهو صاحب توشيح وتوشيح وتقصيد وتقطيع، وقد صار لشعره غناء». ذكر لنا ابن بشرون هذا النموذج من شعره.

نهاه عن محارمه نهـــــــاه وقربه لخالقه تقـــــــــاه
وقال الله ليس ســـواي رب ولا لشريعة أحـــد ســـواه
هوالبرالعطوف على الـــبرايا وبالأيتام يرحـــم من أتـــاه
وسد به عرى الإسلام حتى رأينا النجاح وانعقدت عراه

أمين عدله غمر البرايـــا | فما يخشى على أحد قضــاه
مسيح خطوه في كل علـم | ومن ذا يقتضي أبدا خطــاه
أبي شأنه طلب المعالـــي | ومن يحصي ثناه أو نـــداه
لقد ظفرت يد علقت نــداه | ومن نواه قد ثبت يـــداه

ومن معاصري علي بن الزيتوني ذلك الطبيب الشاعر، ابن أبي المليح، خرج الأمير، عبد الله بن عبد العزيز الحمّادي، في حفل عظيم صباح عيد الأضحى إلى المصلى. فكان ذلك فرصة سانحة لهذا الأديب لنيل عطف الأمير، فرفح إليه قصيدة يمدحه فيها:

وجالت به جرد المذاكي كأنهـا | عذارى ولكن نقطهن تحمحـم
بصفراء كالتبر العتيق صقليـــه | ودهماء يتلوها كميت وأدهـــم
وأشقر لويجري وللبرق جهــده | لكان له الرهان التقـــــدم
وقام لواء النصر يتبع رايـــه | بها العز مقصود عليها متمـــم
فلما قضى حق الصلاة معظما | ثنى والهدى في وجهه يتوشـــم
فلا زال يقضي نفله وفروضـــه | وبرد علاه بالمدائح معلـــم

وهناك شعراء آخرون عاشوا في تلك الآونة هم على بن مكوك الطيبي، وحماد بن على الملقب بالبين، وأبو حفص بن فلفول. وكان هذا الأخير وزميله ابن دفرير من كتاب يحي بن عبد العزيز آخر ملوك الدولة الحمّادية.

حالة الاقتصاد وما ترتب عنه من أسباب الحضارة

لم يهتم أولو الأمر برفع المستوى الثقافي فحسب بل كرسوا جهودهم على تشجيع الاقتصاد نظرا إلى ما يرد عنه من مال على الخزينة السلطانية. فأصبحت الفلاحة نشيطة رغم الجفاف الذي كان يعتري القطر من حين لآخر، وقد حدثناك عنها، وأصبحت الصناعة مزدهرة.

بينهما كان أهل الأرياف يعيشون في أخصاصهم أو خيامهم عيشتهم البسيطة الرخية حينا أو الشقية حينا آخر ويكتفون بما تصنع أيديهم الماهرة ما يحتاجون إليه من حصائر وقطائف وثياب وآلات مترلية من الدوم أو الحلفاء أو الطين، كان الأشراف والأغنياء في المدن والأمصار في حاجة إلى ما يواكب مترلتهم الاجتماعية وأذواقهم الراقية الرهيفة. فمتى كثرت ثروة السكان تزايدت لديهم عوائد الترف ومذاهبه. فمن الطبيعي أن تستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه، فتفنن الصناع في صناعة ما يرضي شهوات هذه الطبقة المترفة في المطاعم والملابس وسائر أحوال المترل.

«كان للملوك عمائم مذهبة يغلون في أثمانها تساوي العمامة الخمسمائة دينار أو الستمائة دينار وأزيد. وكانوا يعممونها بأتقن صنعة، فتأتي على صورة تاجين. ببلادهم صناع لذلك. يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد.

وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم»[1]

(1) كتاب الاستبصار ص 19

فلهؤلاء الملوك، وللطبقة الممتازة كان يصنع بالقلعة الأكسية القلعية النسج المطرزة بالذهب واللبابيد الجيدة والسروج المكللة بالأحجار الكريمة، ولنسائهم الحلي المختلفة والثياب الحريرية من ديباج وغيره.

لم يكن بالقلعة فقط معامل الصوف، الذي له من النعومة والبصيص ما يجعله يترل مع الذهب بمترلة الإبريسم،[1] بل معامل الورق الذي كان يصنع بافريقية منذ عهد الأغالبة والفاطميين، ومعامل الخزف والزجاج أيضا.

أما بجاية فقد اشتهرت هي الأخرى بصنع هذه المنتوجات وبإنشاء المراكب والسفن مثل جارقما بونة، فالخشب في الأودية والجبال كثير. ويذكر لنا الإدريسي أنه كان بهاتين المدينتين من الصناعات كل غريبة ولطيفة.

وفي قسنطينة ووهران وتلمسان من الحركة الصناعية ما يشبه تلك التي بالعاصمة.

لم يفتر استخراج المرجان من مرسى الخرز[2] وبونة. فقال البكري:«بشرقي بونة مدينة الخزر فيه المرجان»و«مرجان الخرز، يقول صاحب الاستبصار، أنفس مرجان الدنيا وأنفق شيء بالهند والصين». فالأسواق كانت تغشاها المحصولات الفلاحية والمنتوجات الصناعية المحلية والسلعه المستوردة من الخارج.

فكانت القوافل غادية رائحة، وأهل بجاية والقلعة والمسيلة وورجلان وتيهرت وتلمسان يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار

(1) ياقوت.
(2) القالة

الصحراء وتجار المشرق، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، يقول البكري عن القلعة:«وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب» قال جورج مرصي: «وحوالي سنة 457هـ ـ1065م، صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات، وقصدها أرباب الصنائع من المشرق وافريقية»ونلاحظ هنا ظاهرة أن الحركة التجارية مع دول السود ضعفت شيئا ما. فإن الدولة المرابطية المجاورة استولت في غانة على منابع الذهب، ثم سيطرت على طريقه، فحرمت المدن الحمّادية من مورد من أهم مواردها وحياتها الاقتصادية، فولى أرباب التجارة الجزائريون وجوههم شطر الأسواق الأوروبية.

فتضاعفت حركة الموانئ ونفقت التجارة، والتجارة تدر الأرباح على أصحابها.

فكان دخل مرسى الخرز من تجارة بيع المرجان فقط عشرة آلاف دينار سنويا، وكان مستخلص بونة عشرين ألف دينار، فالخزينة السلطانية كان يرد عليها أموال طائلة عن طريق الضرائب المفروضة على الفلاحين والصناع والتجار فهذا الاقتصاد الزاهر كالذي كانت الدولة الحمّادية تتمتع به، قد ساعدها على إنشاء حضارة من أرقى الحضارات.

---

(1) الإدريسي

الفن المعماري

المؤسسات الدينية والفن المعماري

اعتنى الحمّاديون بالفن المعماري، وأبوا إلا أن يكون لهم من المباني ما كان لبني عمهم بإفريقية، وللفاطميين بمصر، والمباني، تدل على ما وصلت إليه الدولة من عزة وسلطان فأحضروا المهندسين من افريقية وحتى من المشرق لتشييد المشاريع العمومية والقصور لهم، فأسسوا الأسوار والقناطر والمدارس والمساجد، ولازالت آثار المسجد الجامع ماثلة أمام أعيننا بالقلعة. يظهر هذا المسجد كثير الشبه في تخطيطه بمسجد القيروان، إلا أنه يختلف عنه فيما يخص الأعمدة والمقصورة، ومقصورة مسجد القيروان حديثة العهد، فهي من إحداث الفاطميين، يصلي داخلها الأمراء احتياطا لما قد يطرأ عليهم من الاعتداءات، وأخذ عنهم الحمّاديون هذه العادة. والمسجد مستطيل طوله 64 مترا وعرضه 56 مترا، وبه 84 عمودا لم يبق منها إلا قواعدها، وله 13 بلاطة، و8 أساكيب، والمحراب تجويف في الجدار، وله فناء مكشوف يتوسطه صهريج، وكان يحيط به سور فيه أحد عشر بابا، أما المئذنة، فكانت آية من آيات الجمال، كانت تقوم وسط السور الغربي وكانت ذاهبة في السماء، ولكن طولها اليوم لا يزيد على خمسة وعشرين مترا، فهي علي شكل برج مربع كشكيلاتها بالمغرب الأقصى والأندلس، ترى في واجهتها الجنوبية بابا ذا قوس علي هيئة حدوة الحصان مرفوعة فوق عمودين، ويعلو الباب خمس نوافذ، السفلى والعليا منها مسدودتان، وعلى يمين ويسار النوافذ فصوص مزخرفة، فمن العبث أن نبحث عن مئذنة مزخرفة علي هذا الشكل

في إفريقية لذلك العهد، فإنها تعد بادرة لفن مآذن القرن الثاني عشر باشبيلية (جيرالدا) وبالرباط (صومعة حسان) وبمراكش (الكتبية). وقد بحث الأثريون عبثا عن أصل هذا الشكل الجميل، من الزخرفة الذي تتحلى به مئذنة القلعة، ومن بين ما عثرعليه من الخرابات تيجان أعمدة مزينة بالخط العربي، الجميل، والوريقات، وقطع من الاسطوانات ولوحات ذات خط كوفي، وأثر آخر مطلي عليه خط لامع جميل.

وقد شيد المنصور مسجدا ببجاية إذ لا نتصور أن تكون قاعدة الملك بدون مسجد جامع، ولكن لم نعثر على أثره ولا على موقعه، وذلك من جراء القذائف التي صبها الاسبان على المدينة سنة 1510، فكان على ما يبدو أكبر من مسجد القلعة. فقد جاء في مخطوط[1] يعود إلي القرن الثاني عشر نقله احد البجائيين سنة 1866 م وأنه كان مستطيلا طوله 222 ذراعا وعرضه 150 ذراعا، وبه 412 عمودا رخاميا، وله 14 بلاطة، وكان حائط المحراب وجوانبه، مغطى بالرخام الأبيض وجدرانه مزخرفة بالكتابات، وكانت تعلوه مكتبة وحجرات يقيم بها الأساتذة المكلفون بإلقاء محاضراتهم فيه[2] ومن آثار بني حماد جامع مدينة الجزائر.

فقد ذهب الأخ عبد الرحمان الجيلالي وغيره من المؤرخين أنه من تأسيس المرابطين، فكيف نتصور ذلك، وإن هؤلاء لم يستولوا على المدينة البتة؟ فليس من المعقول إذن أن نعزي تشييده إليهم، وأن كان يشبه في شكله وهندسته المعمارية جامع تلسمان المنسوب إلى ابن تاشفين المرابطي

---

(1) صاحبه يسمى حمادا وينتمي إلى الاسرة المؤمنية
(2) بجاية ص : 31

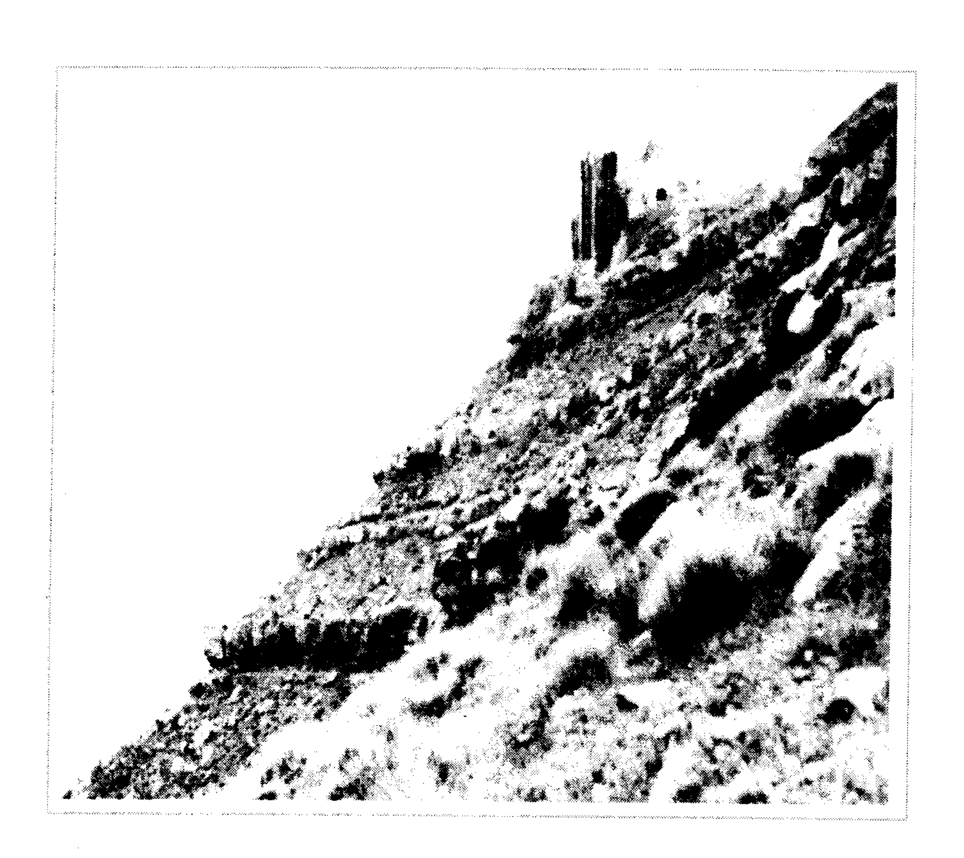
فالفن المغربي الأندلسي قد أخذ حينئذ يمتزج بالفن الجزائري بحكم الجوار، وقد ساعد هذا الامتزاج وجود صناع حذاق من الجالية الأندلسية التي استقرت بالجزائر منذ القرن الخامس الهجري.

وقد ذكر الشيخ أبو راس أن هذا الجامع من مؤسسات بني زيان وأن مؤسسه أبو تاشفين الزياني، فالواقع أن أبا تاشفين لم يكن مؤسِّسَهُ، بل ما قام به هو توسيعه وترميمه فقط، فلو قال الشيخ: إن أبا تاشفين ادخل تحسينات على المسجد وأقام منارته الحالية لكان أقرب إلى الصواب، وقد ذكر السيد (ديامند) قائلا: «أنه لا تزال بشمال افريقية عدة منابر هامة ترجع إلي القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وأقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذي بناه المرابطون سنة 1082م (474هـــ)، وتتكون زخارفه من حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة وأشجار نخلية وتوارق في أسلوب مغربي إسباني حمله إلى شمال إفريقية الفنانون الأندلسيون» فتورط الأستاذ (ديامند) فيما تورط فيه غيره، فالمرابطون وصلوا فعلا إلي نواحي الجزائر وحاولوا اقتحامها لكنهم صدوا عنها، فالمسجد إذن ليس مرابطيا، فالشيء، الذي غلط المؤرخين فقالوا: أن المرابطين هم الذين شيدوا ذلك المسجد هو أن المقري غلط في اسم باني المسجد بل حرفه فقال: ابن تاشفين عوض أبي تاشفين الذي أمر بتوسيعه وترميمه وبتشييد صومعته.

فقد سبق أن قلنا أن زيري بن مناد أمر ابنه بلكين أن يجدد بناء الجزائر ولمدية ومليانة، فهل يخطر بالبال أن يمتثل أمر أبيه بدون أن يشرع، قبل كل شيء، في تشييد مسجد جامع في كل منها والعادة تقتضي ذلك؟

القصور

أراد بنو حماد أن يباهوا غيرهم، فبنوا القصور. إن القصر المسمى بدار البحر هو أهم ما اكتشف من الآثار، قام بذلك الأستاذ بايلي. فإنه يقع شمال المسجد، فقد وصفه صاحب الاستبصار.



إنه يمتاز ببركة في وسطه طولها سبعة وستون مترا وعرضها سبعة وأربعون مترا وعمقها متر وستون سنتمترا. فإنها تذكر الزائر ببركة الحمراء التي هي أضيق منها بكثير. وتحيط بالبركة القاعات والرواقات المعمدة المشتملة على بدائع الزخرف الفني كالرخام المنقوش والجبس المزين بالأشكال الهندسية. وهذا القصر يعد نموذجا لما بني في صقلية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وقد يكون قصر السلام آية مثله. وبأعلى الجبل المطل على وادي فرج شيدوا قصرا يعلوه منار. فقد بناه ((بونياش المسيحي)). في أعلاه مرايا ترسل بواسطتها العلائم بالنهار، وتوقد النيران ليلا لإرسال إشارات الحراسة منه إلى منائر أخرى على الجبال المقابلة.

إن بجاية كانت أجمل الحواضر الصنهاجية. فما عدا المناظر الطبيعية لم يبق من جمالها شيء من شأنه أن يرضي الزائرين والأثريين. فالقصور التي ذكرها ابن خلدون مسحتها أيدي الزمان، ويصعب العثور على مواقعها وبالأحرى على بعض غرفها أو جدرانها، ويحتمل أن قصر اللؤلؤة كان مشيدا في أعلى كدية البريجة العليا. وصفه صاحب الاستبصار فقال « وفي بجاية موضع يسمى اللؤلؤة، وأنف جبل داخل في البحر متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الزائرون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا. فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد، ومجالسها مبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور». وقال ابن خلدون: «وبني ببجاية قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا»، وقال أبو راس: (وكان بناؤه حوالي سنة 470هـ) أما القصران الآخران قصر الكوكب

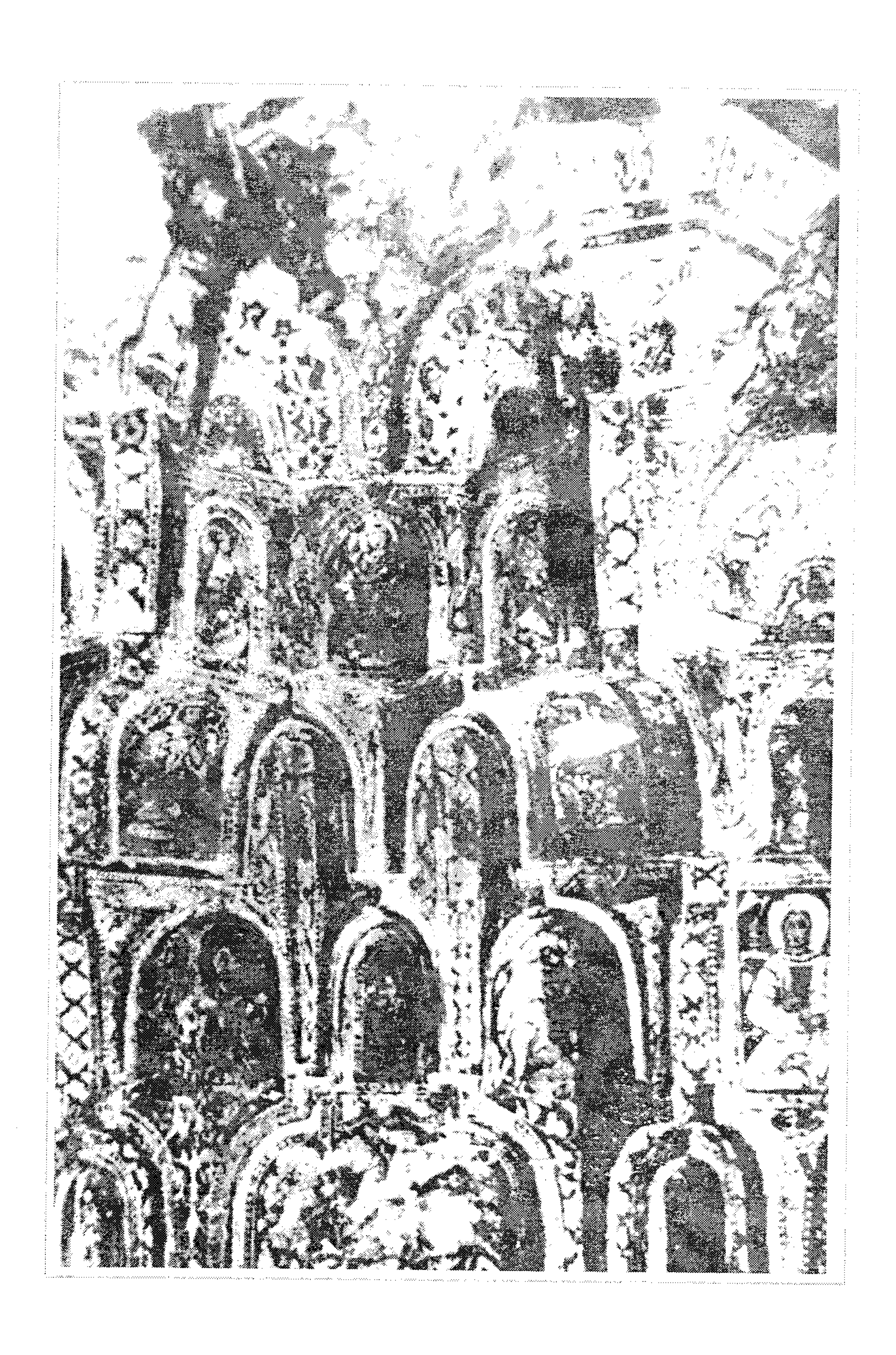
وقصر أميمون، فقد شيدا في الجهة العليا من المدينة يرى من أعلاها البحر ولا نعرف إلا النادر عن هندستهما. وصف ابن حمديس أثار الصنهاجيين ببونة وبجاية وقد سبق أن ذكرنا لك قصيدتين من شعره في ذلك.[1]

وبكى أبو عبد الله محمد بن حماد قصور أسلافه الدارسة وندب معالمها ورسومها يقول:

اين العروسان لا رسم ولاطلــــل	*فانظر تلرى ليس غلا المهل والجبل*
وقصر (بلارة) أوردى الزمــــان به	*فأين من شاد منه الســادة الأول*
قصرالخلافة أين القصر من خـرب	*غير اللجين وفي أرحابها زحــــل*
وليس يبهجني شيء أســـير بــه	*من بعد أن نهجت بالمنهج السبل*
وما ورا الكوكب العلوي معتصــم	*وقد عرا الكوكب التعبير والنــدل*
وقد عفا قصر حماد فليـــس لــه	*رسم ولا أثر باق ولا طـــــلل*
ومجلس القوم قد هب الزمان بــه	*بحادث قل فيه الحادث الجــلل*
وإن في القصر قصر الملك معتـبرا	*لمن تغرره الأيــام والـــدول*
وما رسوم المنار الان ماثلــــة	*لكنها نبذ يجرى بها المثـــــل*
حتى المصلى بلت آيتها وعفــت	*جدارا طلت بها الطــــلل*
كرجعك الطرف كانت كل آبــرة	*فما تراه كذلك العمر والأجـل*

والمنار الذي ذكره في هذه القصيدة يصفه في المقطوعة التالية فكان آية من الآيات في الجمال تحف به المناظر الطبيعية الفتانة فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلــة	*بوادي الجوى ما بين تلك الجداول؟*
وهل أسمعن تلك الطيور عشـية	*تجاوب في تلك الغضون البلابــل؟*
وهل أردن عين السلام على الصدى	*فابرد من حر الضلوع النواهــل؟*
وانظر طيقان المنار مطلة علـــى	*الواجنات الزاهرات الخمائـــل*
فإن ثنت الأيام عنها اعتنـــى	*وانزلتني في غيرتك المنـــازل*
فصبر جميل غير أن صبابـــتي	*ستبقى بقاء الطالعات الأوافـــل*



فقد أخذت بمجامح قلبه تلك الطبيعة التي قام على ذارها المنار الذي يفضله على إيوان كسرى والخرونق والسدير أنصت إليه:

على عين السلام سلام صب ... غذاؤها ماؤه العذب النمير
تأود أيكها وجرت صباها ... وشم لهما كما فتق العبير
وأبرد ما يكو ن الجو فيها ... وأندى حين يحتدم الهجير
وما أدرى أيجري فوق در ... أم ابتسم بمتبعها الثغور
وقد قام المنار على ذارها ... كما قام العروس أو الأمير
بناء يزدري إيوان كسرى ... لديه والخورنق والسدير

قطيعة القلعة

جميلة، ولعل طبيعة الناصرية أجمل منها.فأنصت إلى أبي علي حسن بن الفكون حين يقول:

د ع العراق وبغداد وشاملها ... فالناصرية ما إن مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به ... مسارع بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع ... حيث الغنى والمنى والعشية الرغد
والنهر كالصل والحبات مشرفة ... والنهر والبحر كالمرآه، وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نو ... احي الدار للفكر للأبصار تتقد
أن تنظر البر فالأزهار يانعة ... أو تنظر البحر فالأمواج تطرد
ياطالبا وصفها، إن كنت ذا نصف ... قُل جنة الخلد فيها الأهل والولد

يظهر من شعر ابن حمد يس وابن حماد أن قصور الدولة التي تحدث عنها كانت آية من آيات الفن المعماري، فإن آثار البلطينة ببالرم تؤيدها. جاء في شعر ابن حمديس، إن سقف البلطينة الذي شيد سنة 1132م.كان مزخرفا، وفي ذلك العهد كان النورماند قد استولوا على صقلية، وآثروا الفن الإسلامي في بناياهم وبالأخص

الفن الصنهاجي، فكانوا مغرمين بالحضارة الحمّادية فلم يدخلوا إلي بلادهم معالم الحضارة «النصرانية» لم يبنوا على الطراز الأوروبي، فوضعوا قصورهم على شكل قصور افريقية، والقلعة وبجاية بالخصوص، فمن المغرب الأوسط كان المهندسون يذهبون إلى صقلية،و يبنون لأمرائها قصورا شبيهة بما بنوه للصنهاجيين، فقصر العزيز والقبة وسقف كنيسة البلطينة وهياكل أخرى عليها الطابع الجزائري، نجد فيها القاطعات ذات الفصوص والردهات التي تذكر بإيوان كسرى، وقاعات الشرف مثل قاعات قصور زيري بن مناد بأشير، ونجد أيضا القباب المقرنصة فهو الفن الحمّادي بعينه، فإن السقوف والآثارات الأخرى ككنيسة، «البلصينة» صورة ناطقة لسقوف قصر ببالرم مزخرفة بصور تمثل الصيد والحيوانات التي ذكرها ابن حمد يس في شعره واصفا قصور بني حماد، أليست سقوف المنصور ببجاية؟ فليس من شك في ذلك إلا أننا إذا استثنينا هذه المعلومات نصبح لا نعرف شيئا عن رسوم هذه القصور ولا عن هيئاها، فإن الأسد الذي ذكره ابن حمد يس عثر عليه الأستاذ مرصى، فلا شك أن حيوانات أخرى كانت مصورة في سقوف القصور الحمّادية.

إن قصور الصنهاجيين تتميز بساحات تحيط بها الرواقات والقاعات وذلك ميزة قصور أهل الشرق. وهذا الشكل كان معروفا بالمغرب وقف على أثره الأثريون في تيهرت وسدراتة· فالسور الذي يحيط بالقصور متين ومدعم في زواياه بأعمدة مربعة أواسطوانات على غرار الآثار العباسية والأموية، نجدها في قصر أخيضر[1] المشيد سنة 764م

(1) طوله 170 م وارتفاع سوره 21م.

بالعراق على بعد نحو 40 كيلو مترا غرب الجنوب الغربي[1] لكربلاء وبالأخص بسورية بجبل سيدي بقصر الخير الغربي وفي قصر المشتى الذي يعود بناؤه إلى الوليد الثاني (724/744م)[2] وقصر طوبة[3] المستطيل الذي يذكرنا بقصر زيري بن مناد بأشير· فإن مدخل قصر أشير الملتوي يشبه تماما قصر القائم الفاطمي بالمهدية· ونجد ذلك بدار البحر وفي الجهة العليا لقصر السلام. أما القاعات ذات الردهات فهي اقتباس من الإيوان الفارسي، وكانت توجد بسدراتة في القرن العاشر وربما قبل ذلك العهد بفن الفسطاط الذي ينتمي إلى المدرسة العراقية. ومعلوم أن الطلونيين، أمراء مصر، قد أدخلوا في النصف الثاني من القرن العاشر إلى مصر الشكل البغدادي وشكل سامراء. فإن قاعة الاستقبال لقصر زيري بن مناد مماثلة لمثيلتها بالقصر الأموي بالمشتى. لوحة جميلة لباب منقوشة عليها خطوط كوفية عثر عليها بالقلعة حديثا· فإنها تشبه اللوحة التي اكتشفها الأستاذ بايلي، فكلاهما مزخرفة بخط جميل فاطمي. وعثر بأشير على خطوط على قبر مماثلة للخط الطلوني المصري والخط السدراتي. وعلى قبر آخر يرجع إلى سنة 113هـ 1022م خط كوفي مماثل لخط مقصورة جامع القيروان يعود إلى منتصف القرن الحادي عشر. وهناك كتابات على قبور ببجاية تمكننا من تتبع تقدم الخط الكوفي. فلم تثبت قدمه قبل هذا العهد

---

(1) يقع على بعد 100 كم غرب تدمر، وفي متحف دمشق تصاوير منه فيها أثر من الفن الساساني.

(2) يقع على بعد 32كم جنوب عمّان للإقامة به في الشتاء، ويمتاز بواجهته المزينة بزخارف دقيقة محفورة في الحجر الجيري عناصرها الفروع والأزهار والمراوح النخيلية وفيها رسوم طيور وحيوانات حقيقية وخرافية ورسوم إنسانية أيضا.

(3) بني في البادية جنوبي الأردن على بعد نحو 100كم من عمّان بأمر الوليد الثاني ليقيم فيه أيام الربيع، ويظهر فيه هندسة في البناء العربي.

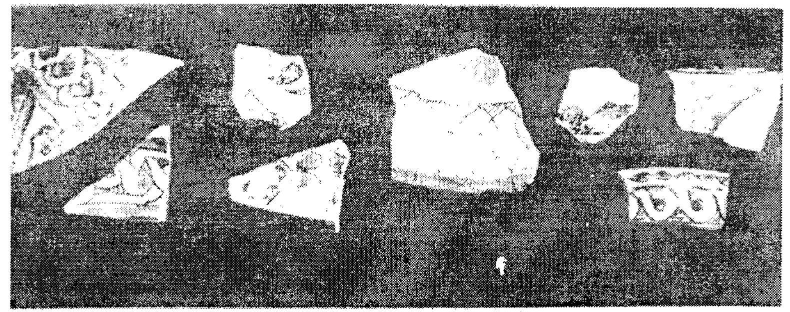
ونرى أن فراغ ما بين الحروف تملأه نقوش زهرية ما يزيد ذلك الخط جمالا ورونقا.

وهناك أدوات من الجبس عثر عليها بالقلعة وبأشير من الأهمية بمكان للبحث في طرق الزخرفة على العهد الصنهاجي قطع تمثل وردة وقطع افريزية وقطع صدفية وقطع مقرنصة.

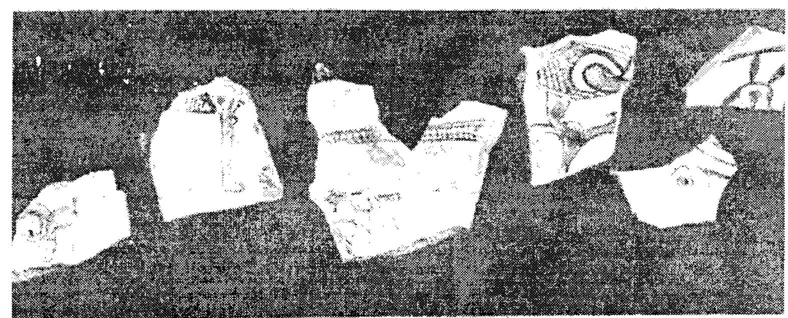
هذه القطع كلها تدل على وجود هذه الأنواع من الزخرفة التي ستصبح كلاسيكية في صقلية والأندلس بعد ذلك العصر. وقد اكتشف الأستاذ بايليني حجارة تمثل شبكة من الزخارف (خلية النحل)، فما هي إلا المقرنص في بدايته. وهذا النوع من الزخرف سيزدهر في تلمسان وفاس وصقلية، ولم يعرف استعماله من قبل في المشرق. وما كان يعرف من هذا النوع فهو شيء آخر يخالف تماما مقرنص القلعة. فالمقرنص، إذن، ظهر لأول مرة بالقلعة، ومقرنص تلمسان وصقلية وغيرهما يشابه مقرنص القلعة، واستخدم صناع القلعة العناصر النباتية، إلا أنها استخدمت أيضا في الأندلس. لم تكن العلاقات دائما معتكرة بين الصنهاجيين والمرابطين، فينتمون إلى أصل واحد. فكثيرا ما كانت الاتصالات بين الدولتين ودية ومتعاونة، فلا يستغرب إذا قلنا إن الأساليب الفنية المرابطية غزت الفن الصنهاجي، وبكل من تلمسان وندرومة مسجد عليه مسحة أندلسية مغربية يعود تشييده إلى ذلك العهد. ويستنتج من هذا أن هناك تيارين: تيارا شرقيا مغربيا تقليديا، ولكن، أخذ يتقلص شيئا فشيئا وتيارا مغربيا شرقيا جديدا ومجددا. فإذن، قبل استيلاء الموحدين على بجاية دخل هذا التيار الجديد إلى القلعة وبجاية، ولكن، لم يقو فيتغلب على الفن القديم.

شكل رقم (4) حجر قبر مادي مكتوب عليه بالخط الكوفي مايلي:

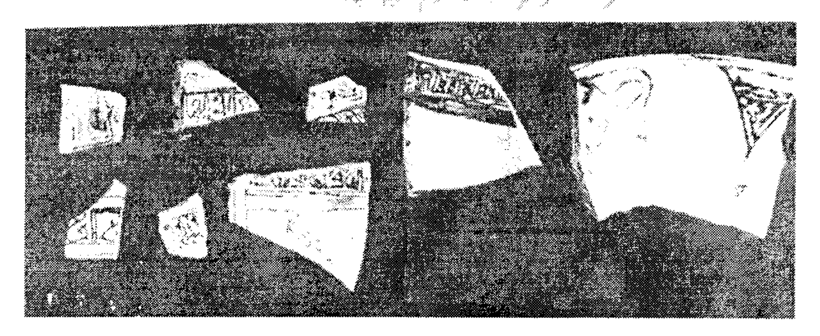
كل نفس ذائقة الموت إنما حياة الدنيا إلا متاع الغرور



الخزف المزخرف بالرسوم الهندسية



الخزف المزخرف بالرسوم النباتية



كان الصنهاجيون يعتنون بصحة الرعية. فقاموا بتشييد البيمارستانات لعلاج المرضى، وعينوا لها أطباء يقومون بمهماتهم أحسن قيام، ولكن هذه البيمارستانات قد عفت يد الدهر عليها و لم يبق منها ما يدلنا على رسومها ولا على مواقعها، فقد تلاشى ما شهده من أثرها محمد الحسن الوزان و لم نتوصل بأسماء أطبائها. إلا أن هناك أسماء أطباء جزائريين عاشوا في تلك الفترة وردت هنا وهناك في كتب المترجمين، فمنهم ابن النباش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خالد البجائي. كان على حسب إبن أبي أصيبعة،[1] ذا عناية بصناعة الطب مواظبا على علاج المرضى، وذا معرفة جيدة بالعلوم الطبية. وكان له، كجميع الأطباء في ذلك العصر مشاركة في العلوم الفلسفية. ولعله كان أحد أطباء البيمارستانات ببجاية. فقد رحل إلى مرسية وبقي بها مدة طويلة، وقد عاصره طبيب آخر هو عمر بن البدوخ. ولد بالقلعة والتحق ببجاية. فكان يعرف الأدوية ويطب بها. غادر المغرب الأوسط وقصد الشرق وجال في ربوعه، واختار دمشق لسكناه فبقي بها يعالج الناس، ونفعهم كثيرا، ومات بتلك المدينة عام 575هـ، وخلف كتبا في الطب منها حواش على كتاب القانون لابن سينا، وشرح الفصول لأبي قراط في أرجوزة، وكتاب خبرة الألباب في الباءة.وحدثنا العماد الأصفهاني عن طبيب آخر كان ماهرا وكاتبا شاعرا في بلاط بني حماد هو ابن أبي المليح.كان حاذقاً في صناعة الطب وأديبـــاَ يكتب ويقرض الشعر. وقد مدح عبد الله بن العزيز الحمادي بقصيدة، كما سبق أن قلنا،[1] منها هذا البيت.

وجالت به جرد المذاكي كأنها عذارى، ولكن نطقهن تحمـــحم

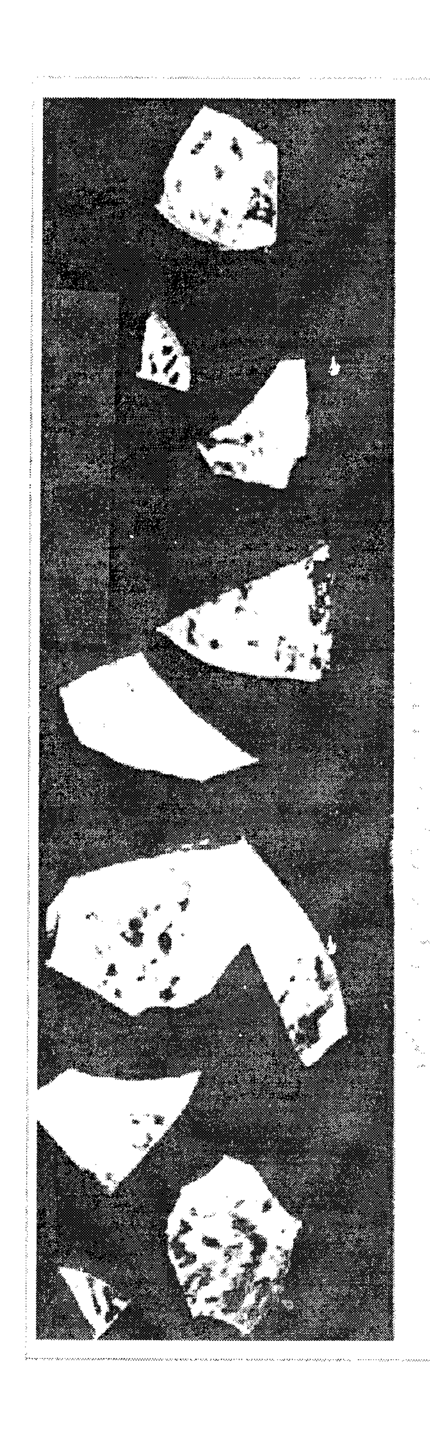
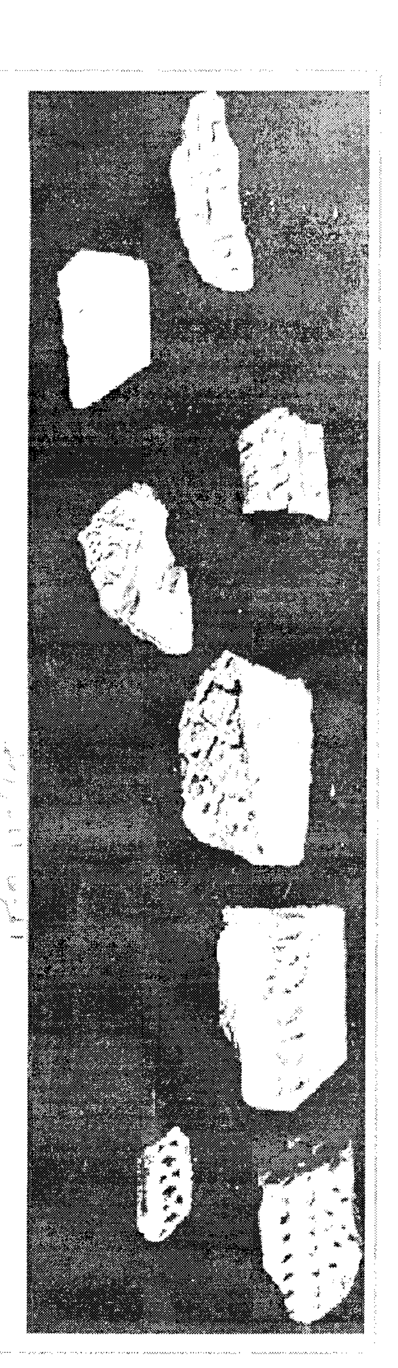
---

(1) ص: 180

الخـــزف

ومما يجدر التحدث عنه أيضا الخزف. فإن الشقق التي عثر عليها في القلعة وفي بجاية وفي أشير كثيرة تدل على عدد الصناع العديد في وقت عزها. الأواني المطلية ذات البرين المعدني مختلفة باختلاف المصانع التي أخرجتها وباختلاف الأزمنة. والقراميد الحمّادية لا تختلف عن القراميد التي تصنع في هذا العصر بسفح جبل (رحمة) أو بضفاف وادي فرج حيث كانت تقع معامل الخزف المطلي. وفي أشير والقلعة وبجاية يوجد الخزف العادي والخزف المطلي والخزف المزخرف بالرسوم والخزف المفروض.

وفي القلعة وفي بجاية كان يوجد الخزف ذو البريق المعدني. فإن الأواني من هذا النوع تستخدم لجمالها عوض الأواني الفضية والذهبية وهذا الخزف يشبه ما يوجد في المغرب الأقصى والأندلس على عهد الموحدين. كان يصنع بالجزائر وبيد جزائرية. أصله من الصلصال المحروق ثم أضيفت اليه بعض المواد التي تكسبه بريقا معدنيا يجعله صالحا لأن يكون بديلا لأواني الذهب والفضة. وربما صناع المغرب الأوسط اقتبسوا صنعه من المشارقة لأنه أنتج في العصر العباسي وانتشر في العراق ومصر. وهناك من يظن أن الأواني التي عثر على شقف منها أرسلت هدية إلى أمراء القلعة، فمحال أن يكون ذلك، لأن المسافة طويلة ويصعب أن يؤتى بها من المشرق إلى المغرب. فلا شك أنها صنعت في البلاد وصنعها أهل البلاد، وتعلموا هذه الصنعة بالاحتكاك بالمشارقة. تحليها خطوط كوفية رقيقة وعناصر أخرى نباتية أو هندسية. كل هذه الآثارات الخزفية شبيهة بمعاصرتها الفاطمية.

فقال الأستاذ مرصي: «يظهر أن صناعة الفخار يومئذ بلغ مبلغا عظيما، يظهر عليها تأثير الفرس ومصرفنا وعملا». وكانت هذه الصنعة معروفة بالأندلس وتمثله في قصر الزهراء، وجميع الشقف التي عثر عليها تشابه مثيلاتها بالقلعة (وبجاية) وعثر في القلعة وبجاية كذلك على قطع زجاجية وأشياء أخرى حديدية، إن التيارات الفنية كانت تذهب من الشرق إلى الأندلس عن طريق مصر وافريقية والمغرب الأوسط. والتأثر كان يعم البناء والخزف والزجاج والبرونز والجبس.

إن كل ما عثر عليه من بقايا الفن يدل على أن صناع المغرب الأوسط كانوا حذاقا ماهرين. فإن قصر أشير كان آية الأندلسيين يشرفهم، والمنار ودار البحر وصومعة المسجد تدهشك بروعة تناسقها، ويروعك دقة الصنعة وإتقان العمل في جميع تلك الأواني المطلية البراقة، ولا ننس أولئك الصناع الذين أقبلوا من القيروان حيث كانت تلك المدينة مضايقة من طرف الأعراب أو حيث هجروها نهائيا عندما استولى عليها بنو هلال. فإن بجاية كانت زاهرة وقت الحمّاديين. ومن سكانها عدد كبير من الأندلسيين الذين نقلوا إليها الحضارة الاسبانية المغربية قبل أن يستولي عليها الموحدون. ولكن هذه الحضارة الاسبانية المغربية نفسها متأثرة بالحضارة الشرقية. فالحضارة الحمّادية، إذن، مشرقية. فأينما وليت نظرك في قصور القلعة وبجاية وفي أثاثها وجدت ما ينطق بأثر الفن الشرقي. فقد شاع وأخذ بتلابيبه أولو الأمر والأعيان، وحتى الأمكنة التي وطأها صنهاجة نشأ فيها ذلك الأثر. فانظر إلى بلكين بن زيري ابن مناد عندما دخل إلى فاس، فإن أول ما قام به هو اتحاف

مسجد عدوة الأندلس بمنبر على طراز شرقي فقال الأستاذ مرصي:« إن الحضارة الحمّادية تظهر تحت تأثير المشرق، وآثارها لا نظير لهاَ ببقية وطن المغرب، وهي شاهد قوي على رقي الحضارة الاسلامية المغروسة بالجزائر، ولا زالت معالم الحضارة الصنهاجية بادية في غرناطة، فإن أعمام باديس وأعمام أبيه ثاروا عليه. فوقعت حرب بين الفريقين قتل فيها عم أبيه ماكسن بن زيري، فرهب الباقون منهم صولة باديس وخافوا عاديته على أنفسهم على صغر سنه. فدخل جماعة منهم الأندلس مع أميرهم زاوي بن زيري.[1] فأمكنهم أن يقبضوا على زمام الأمر بغرناطة وأحوازها، وكان لهم شأن عظيم في الحضارة. فلا زالت آثارهم هناك: سور باب وجزء من الحمراء رغم ما قامت به الدولة النصرية من المباني. فإن هذه البقايا من حضارتهم تذكرنا بالمعمار الجزائري الحمادي. والأساليب الصناعية لازالت ماثلة هنا وهناك في الأندلس وبالأخص ببرج ((من صباتودو)) وبنواحي مدرية».

الفنون الجميلة

إن الحمّاديين عاشوا حياة باذخة في قصورهم محفوفين بالعلماء والأدباء والفنانين من موسقيين ورقاصين. رجع ابن تومرت المصمودي من المشرق ووقف في طريقه ببجاية، فرأى مطربين، فهجم عليهم وأخذ ببعض آلاتهم وكسرها، يزعم أن ذلك يلهيهم عن دينهم، وآلاتهم حينئذ الناي والعود والقانون والجنك والغائطة أوالزرنة والزمارة والطر والطبل والدف. وكانت هذه الموسيقى متأثرة بالموسيقى

(1) الاحاطة جـ 1 ص: 439

الإفريقية التي كانت هي الأخرى متأثرة بالموسيقى الشرقية، وكانت متأثرة أيضا بالموسيقى الأندلسية، وكيف لا وببجاية جالية أندلسية هامة. فكان الملوك والأمراء والأعيان ينشطون هذا الفن، يتخذون بمجالسهم المغنيين والمغنيات. وإلى جانب هذه الأغاني الفنية التي لازلنا نسمع بعضها في يومنا هذا عاشت أغاني العرب في باديتهم وأغاني البربر في جباهم.

أما الراقصات فكن يقبضن المناديل ويحركنها، وقد تسربت هذه العادة من الفرس إلى الجزائر، ولا زالت متبعة إلى اليوم بالعاصمة وقسنطينة وعنابة ومدن أخرى.

والخزف يرينا من جهة أخرى أنواعا من الموسيقيين والمشعوذين والصيادين والحاصل إن الجزائر لم تعرف نهضة عمرانية كالتي عرفتها في فترة الصنهاجيين.

الخاتمــة

إن التأريخ يعيد نفسه. فكان بالمغرب قبل الميلاد دولتان: النوميدية والزناتية. فالأولى عاصمتها قرطة، قسنطينة الحالية، والثانية صيغة الواقعة بمصب نهر تافنة، وكل من الدولتين تريد أن تهيمن على البلاد على حساب الأخرى. وكان في نفس الوقت القرطاجيون والرومان، وكل من الفريقين يريد أن يهيمن على الحوض الأبيض المتوسط ويستأثر بالمراكز التجارية المنبتة على سواحله ويقضي على نفوذ خصمه على المغرب باتكائه على إحدى دولتيه وتحريضها على الأخرى، فيقع هكذا تطاحن بين الدولتين المغربيتين العريقتين، فتضعف شوكتهما، فينقض الغالب حينذاك عليهما ويستولي على البلاد.

فنفس الحادث تقريبا وقع في القرنين الرابع والخامس للهجرة في بلادنا. فكان تطاحن بين الأموية والفاطمية واتكأت هذه على صنهاجة.[1] والأخرى على زناتة. فظل الصنهاجيون في قتال مع الزناتيين. فالآلاف من الأرواح طحنتها رحى الصراع القائم بين العبيدين والمروانيين. فمن البديهي أن تتأثر البلاد عمرانيا واقتصاديا. لكن هذا الصراع لم يدم أمده، انتهى عندما أعلن حماد والمعز بن باديس استقلالهما عن العبيديين من جهة وانقراض الدولة الأموية من جهة أخرى، إلا أن العداوة بين صنهاجة وزناتة لم تنته، فتمادت، ولكن مع شيء من الفتور إلى أن جاء من يفض التراع بين الطرفين و لم يكن فاطميا ولا أمويا بل أمير دولة الموحدين الفتية، عبد المؤمن بن علي

(1) وعلى كتامة أيضا. فلولا هؤلاء لما كانت الدولة الفاطمية ولولا صنهاجة لما دامت.

الندرومي الذي شاءت الأقدار أن يوحد افريقية الشمالية بشريا وسياسيا وفكريا. ساد البلاد الاطمئنان وازدهرت اقتصاديا وحضاريا في ظل ناصر بن علناس وولده المنصور. وأمكن هذين العاهلين أن يهيمنا على افريقية والمغرب الأوسط، وكان في استطاعتهما أن يقوما بتوحيد افريقية الشمالية قبل عبد المؤمن، لكن المشكل العربي من جهة والمشكل النورماندي من جهة ثانية وقفا في وجههما، فبقيت الرعية بعدهما مفككة الأوصال. فالعرب طارئون لا يفكرون في تكوين دولة عربية صرفة ولا في الانقياد إلى السلطة المركزية.

والزناتيون قد أهكتهم الحروب المتوالية ولا يرون بعين الرضا أن يرزحوا لصنهاجة الذين استأثروا بالملك دوهم مع أهم ليسوا من أرومة أفضل من أرومتهم. والصنهاجيون أنفسهم قد كلت شوكتهم لتقلص عددهم من جراء الحروب المتواصلة بينهم وبين خصومهم منذ زيري بن مناد، ولضعف عصبيتهم وتلاحمهم، فدبت في مفاصل دولتهم جراثيم الموت، فلم تجد منهم شخصية حازمة قادرة على إنقاذها، فترجع اليها روحها وقوتها، فتستأنف الحياة من جديد، فتفرض وجودها وتطهر البلاد من النورماند وتأتي على الاضطرابات الداخلية بقطع دابر عناصر الفساد وتذهب صعدا إلى ذروة المجد التي عرفتها في أيام الناصر والمنصور. فماتت، ويالالأسف، بترول يحي بن العزيز عرش أجداده الأمجاد وبسط النفوذ المؤمني على افريقية الشمالية جمعاء.

كانت زناتة تثير الفتن، فتتعطل الحركات الفلاحية والتجارية أحيانا، فتشقى الأمة شقاء في أقواتها وأموالها وأرواحها. ولكن السلطة تتغلب في الحين على الموقف، فإنها حريصة على نشر الأمن وبث

الطمأنينة في قلوب رعاياها، فيستأنفون أعمالهم، فيرجع للبلاد خصبها ورخاؤها. وقد تحدث لنا الجغرافيون عن هذا الخصب وعن هذا الرخاء. لا غرو، فإن شبكة كثيفة من الطرق كانت تخترق البلاد طولا وعرضا، فيسهل عليهم التنقل عبر المناطق كلها وتسجيل كل ما يأسر أنظارهم اجتماعيا وعمرانيا واقتصاديا. فمن عادة البربر المثابرة على العمل بخلاف البدو الذين زحفوا من مصر إلى افريقية ومن ثم إلى المغرب، فيكرهون ممارسة الحرف ويؤثرون أن يعيشوا على حساب من خانتهم القوة للدفاع عما ملكت أيديهم، فكم من عشائر بربرية تشتت شملها نتيجة وحشيتهم، وكم من بقع أصبحت يبابا، وكم أعانوا العناصر المفسدة على العصيان والخروج على السلطة الحاكمة، فإن مشكلهم ليعد من أخطر المشاكل التي أودت بها إلى حتفها.

إلا أن المغرب لمدين لهم بشيء مهم علينا أن ننوه به. فإنهم عربوا البلاد. فزاحمت لغتهم لغة البربر وألزمتها أن تبرح لها البسائط والهضاب وأن تتروي في قمم الجبال ريثما تموت بالكلية، فحركة التعريب القائمة اليوم عبر البلاد تنذر بذل. فالجزائر عربية منذ حل بها العرب في القرن الأول الهجري وبيدهم القرآن فستبقى على الدوام متمسكة بلغتها وثقافتها وعقيدتها العربية الإسلامية ومتفتحة في نفس الوقت تأخذ وتعطي كعادتها منذ فجر التاريخ. فالجزائريون مجبولون على حب الثقافة والرقي، فقد تعثر على أثارهما في كل مكان من قطرنا. فزر المتاحف تجد الأحجار المنحوتة والآلات العظيمة والخزفية والحديدية والنحاسية والحلي من مصوغ المعدنيات والحجارة الكريمة.

وجل عبر البلاد تعثر على أثار المباني الفخمة والصور المنقوشة على الصخور. فكل ما يقع عليه بصرك إن دل على شيء فإنه يدل بالدرجة الأولى على أن الجزائريين أخذوا في طريق التحضر منذ عهد سحيق. فقد اتصلوا عن طريق الغزو والرحلة والتجارة بالحضارات المصرية والهيلينية والفينيقية والرومانية وجزر البحر المتوسط، فتأثروا وأثروا.

ودخل الإسلام وانتشرت الثقافة العربية الإسلامية، وأخذ بتلابيبها الأهالي، فكان منهم الفقهاء والعلماء والأدباء والأطباء والصناع ولا سيما في عهد أمراء صنهاجة الذين كَرَعُوا من حياض هذه الثقافة حتى رووا. فتراهم يقربون إليهم رجال العلم والأدب ويغدقون عليهم الصلات التي تساعدهم على مواصلة جهودهم في قرض الشعر والكتابة والبحوث العلمية والتصنيف فهم مفخرة دولة وشارة عزها ضاع بعض نتاجهم وبقي الآخر مصونا في رفوف الخزانات داخل البلاد وخارجها. ورحبوا بالنزلاء فتلاقى في القلعة وبجاية وقسنطينة والمسيلة وتلمسان المغربي والمشرقي والصقلي والأندلسي والأوروبي والأبيض والأسود. فعرفت الثقافة إشعاعا لم تعرفه من قبل.

ولم تزل الثقافة بزوال بني حماد. فقد بقيت تشعّ في العهدين الموحدي والحفصي. فقد شهد أثارها محمد الحسن الوزان (ليون الإفريقي) الذي زار بجاية في القرن العاشر للهجرة (القرن السادس عشر م.). فيقول أن مساجد (بجاية) ومدارسها فيها طلبة وفقهاء يدرسون الفقه والرياضيات.

وقد دخلت الشيعة إلى البلاد مع الفاطميين، ولكن فقهاء السنة كانوا لها بالمرصاد.

فقد ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل محوها من افريقية والمغرب. وحاول أبو يزيد مخلد بنت كيداد الزناتي، صاحب الحمار أن يقاومها، هو الآخر، ويستعيضها بالخارجية، وكانت هذه قرمطية لا تمت إلى السنة بصلة. فلو قدر لها النجاح لكانت أكثر خطرا على الدين من الشيعة. فهذه البدع كلها طهر الفقهاء البلاد منها بحيث استوعبت السنة شعوب افريقية والمغربين الأوسط والأقصى، وقد واصل المذهب السني تقدمه، فدراسة الفقه لم تبق مختصة بعلم الفروع، فامتزجت بعلم الأصول، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة النظر والتأويل، وكثر الاجتهاد.

ولعل هذه الثورة التي عرفتها العلوم الدينية في المغرب يرجع الفضل في اندلاعها وصول كتب الغزالي إلى ربوعه من ناحية وللرحلة التي ما انفك المغاربة يقومون بها من حين لآخر في العالم الإسلامي من ناحية أخرى.وراج الاقتصاد بجانب هذه الثقافة رواجا در على الخزينة السلطانية، عن طريق الضرائب، مالا وافرا مكن الدولة من أن ترفع من شأن المستوى الاجتماعي ومن أن تشيد حضارة لامعة فاقت ما سبقتها من الحضارات ووصل صداها إلى ما وراء البحر المتوسط.

وصفوة القول، إن الأمراء الحمّاديين انتحوا سياسة واعية، فقد عملوا على تقريب قومهم إليهم وإشراكهم في تدبير بعض شؤون الدولة، مما يفسر عدم أو قلة من ينازعهم في الملك من الأعيان. فاستتب لهم بذلك الأمر، وراحوا ينشرون ما أمكنهم من أسباب

الاطمئنان والرخاء. فعاشت الرعية فيما قدر لها من الرغد، إلا إذا اعترى البلاد جفاف تقل من جرائه محصولات الأرض فيشقى الناس أو وباء يذهب بالمئات من الأرواح.

فقد برهن ملوك المغرب طيلة أيامهم على أنهم قادرون على سياسة الملك كغيرهم من الأمم، فالسياسة ليست ملكا لنوع خاص من الأجناس، وإنما هي وليدة التجربة والتأمل والعبرة والوعي، وبالتالي إنها ملك لكل كائن حي درب نفسه على هذه الخصال.

فقد حصلت لدى أمراء صنهاجة واستحقوا بها أن يكونوا ساسة خيرين لذلك الشعب العريق الذي يأبى الظالم ويهيم بالحرية والديمقراطية والعدل. إلا أننا نأخذ على الزيريين والحمّاديين عدم تكاثفهم عندما اكتسح البدو البلاد لكسر شوكتهم وإحباط سياسة صاحب القاهرة ووزيره البازوري. فتفرقت كلمة الدولتين العتيدتين، فتمركز البدو من هلال واثيج وسليم وعدي، وثبتت أقدامهم بحيث أن الصنهاجيين، رغم فضائلهم السياسية، قد غلبوا على أمرهم وأخذ ظل ملكهم يتقلص شيئا فشيئا حتى تلاشى تماما.

إلا أن المشكل العربي هذا لم يكن وحده سبب تدهور الوضع الصنهاجي، إن ضعف روح العصبية وقلة الوعي السياسي لدى الأمراء المتأخرين وانغماسهم في الترف الذي هو السم الناقع لكل حضارة وسلطان، كل هذا كان له أثره فيه أيضا. فلم يلبث أن زال ملك الصنهاجيين الذين ذهبوا به إلى أوج الحضارة بالنسبة إلى ذلك العهد والذين شاع ذكرهم في الآفاق طيلة قرنين على الأقل وتبدل به الموحدون الذين كانوا وقتئذ، في طورهم الأول، ذوي عصبية قوية

وبأس شديد وفضائل سياسية تمليها الظروف قوامها توحيد شعوب المغرب العربي بشريا ودينيا وثقافيا واقتصاديا وحضاريا.

فلا يمكن لهذه الشعوب أن تفرض وجودها في المنطقة إلا بهذه الوحدة التي فكر فيها عبد المؤمن ولم يأل جهدا في الوصول إليها. فكلل الله مساعيه بالنجاح. إلا أن تلك الوحدة، ويا للأسف، لم يطل أمدها. فلم يقض يعقوب المنصور، حفيد عبد المؤمن، نحبه حتى أخذت تتفتت، فقد أصاب الدولة الوهن، وأخذ نطاقها يتضايق ويتقلص لفائدة بني مرين بفاس وبني عبد الواد بتلمسان وبني حفص بتونس الذين ذهب بهم شعورهم الفردي وقلة وعيهم السياسي إلى انتهاك حركة الجوار ومحاربة بعضهم بعضا. فلا غرو، والحالة هذه، أن تتمزق الوحدة التي أرادها عبد المؤمن للمغرب العربي الكبير وأن تصبح بعده أضغاث أحلام. فهل تتجمع بين شعوبنا المغربية من جديد؟ فهذا ما نأمله وما يجب السعي إليه، فإن الاتحاد ضروري لضمان قوتنا ومهابتنا ورفاهنا في عالم يسوده الأنانية والجشع والتعدي.

المراجع

أبو مروان بن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلدان الأندلس تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دا الثقافة بيروت.

ابن أبي أصيبعة: كتاب عيون الأنباء في أخبار الأطباء. القاهرة 1299هـ.

ابن أبي دينار القيرواني:

1 ــ المؤنس في أخبار افريقية وتونس: نسخة بالمتحف البريطاني بلندن الطبعة الأولى بتونس سنة 1286هـ.

2 ــ رقم 56975 المكتبة الوطنية 20 سوق المطارين، تونس.

إبن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتأريخ مدينة فاس.

ابن الأثير: الكامل دار صادر، دار بيروت.

ابن بسام الشنقريني: الذخيرة في محاسن الجزيرة، مطبعة لجنة التأليف.

ابن حزم أبو علي: جمهرة أنساب العرب: دار المعارف

ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي: تأريخ العبيديين نشره فوندرهيدن (Vonderheydon)

ابن حمديس: الديوان.

ابن حوقل أبو القاسم محمد: كتاب المسالك والممالك والمغاوز والمهالك نشره دي غويه.

ابن خردادبة: كتاب المسالك والممالك، نشره ديغويه.

ابن الخطيب محمد لسان الدين:

1 ــ أعمال الأعلام القسم الثالث. تحقيق وتعليق د/أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء.

2 ــ الإحاطة :تحقيق عبد الله عنان، دار المعارف مصر.
3 ــ اللمحة البدرية.
ابن خلدون عبد الرحمان:
1 ــ المقدمة،دار إحياء التراث العربي بيروت.
2 ــ كتاب العبر دار الكتاب اللبناني،بيروت.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، دار الطباعة الميرية مصر 1275هــ
ابن رشيق المسيلي: العمدة -دار الجيل بيروت.
ابن عذاري المراكشي: البيان المغرّب في أخبار المغرب - مكتبة صادر بيررت.
ابن مريم : البستان المطبعة الثعالبية الجزائر 1908/1326
ابن هانئ الأندلسي: الديوان: دار صادر، دار بيروت
الادريسي الشريف محمد بن عبد العزيز:كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان وهو مختصر لكتاب نزهة العشاق (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس).
البكري أبوعبيد:كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب طبعــه دي سلان.
البيدق أبوبكرالصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين باريس 1928.
توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية تونس 1940.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية 1964. مكتبة النهضة المصرية.
حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة.1957

حسن حسني عبد الوهاب:
1 - بساط العقيق تونس 1913م
2 - ورقات مكتبة المنار - تونس.
خالد الصوفي: تاريخ العرب في اسبانيا عصر المنصور الأندلسي دار الكتاب العربي.
الدباغ عبد الرحمان الأنصاري:
معالم الايمان في معرفة أهل القيروان.
رقم:1،2،3،6،14،84 المكتبة الوطنية، 20 سوق المطارين، تونس.
السقطي محمد المالقي أبو عبد الله: في آداب الحسبة: باريس المطبعة الدولية سنة 1931 مكتبة ارتست لروكس — نشره الأستاذان: كولان ولفي بروفال.
المسلاوي أحمد:
بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الطبعة الجديدة.
السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير: العصر الإسلامي. الدار القومية مصر
عبد المؤمن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع طبعة جوينيل ليدن 1853.
عبد الرحمان الجلالي: تأريخ الجزائر العام المطبعة العربية، الجزائر 1954./1373
عبد الرحمان ياغي: حياة القيروان دار الثقافة — بيروت.
عماد الدين الاصفهاني: جريدة القصر وجريدة العصر الدار التونسية للنشر.

الغبريني: عنوان الدراية المطبعة الثعالبية الجزائر1910/1328
الغزالي: كتاب إحياء علوم الدين والمنقذ من الظلال.
القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القاهرة
المراكشي: المعجب في أخبار المغرب 1934/1358مطبعة الثقافة، سلا، المغرب.
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبعه ديغويه ليدن 1878
المقريزي: 1 – اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء نشره د/جمال الدين الشيال القاهرة 1943/1367
2 -كتاب المواعظ والأخبار المعروف بالخطط الشامية: دار صادر.
المقري: نفح الطيب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصر
الميلـــــــــي: تاريخ الجزائر مكتبة النهضة – الجزائر.
النويري شهاب الدين: نهاية الأدب في فنون الأدب: مخطوط بدار الكتاب المصري الجزء 22.
ياقوت شهاب الدين الحموي: معجم البلدان القاهرة.
يحي هويدي: تأريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية مكتبة النهضة المصرية 1965
اليعقوبي أحمد بن يعقوب: كتاب البلدان.
مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار نشره الفرد كريمر Alfred krimer بفين، مكتبة المتحف البريطاني لندن رقم 14565ب.32

مجهول: مفاخر البربر نشره(لفي بروفسال).
مجهول: الحلل الموشية نشره علوش - الرباط 1936,

المجـــلات:

1 _ الثقافية
2 _ الأصالة
3 _ المجاهد الثقافي

G.L de Beylie: La Kala des benis Hammad-paris Leroux
109L.Didier: L'Algérie et sa civilisation.

E.F.Gautier: Le Passé de l'Afrique du Nord-les siècles obscurs Payot-paris

L.Golvin: 1- Le Magreb central à l'époque des Zirides
Arts et métiers graphiques Paris
Recherches archéologiques à la galaa des Beni Hammad Maisonneuse et Larose-paris

H.R.Idris: La berberie orientale sous les Zirides: Xe et XIIe siècles. Librairie d'Amérique et d'orient Adrien-Maisonneuse ParisA.Laroui: L'Histoire du Magreb-François Maspero Paris 1970

E. Le Blanc: Le problème arabe

Léon l'Afrique: Description de l'Afrique-Traducion

G.Marçais: 1- La berberie Musulmane et L'Orient au
Moyen âge Aubier_Paris
Manuel d'Art Musulman Edition Auguste Picard 1926

L. Terrasse:L'histoire du Maroc Edtions Atlantide Casablanca

فهرس الموضوعات

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر

المغرب الأوسط في ظل صنهاجية

موضوع هذا الكتاب عن بلادنا في ظل الصنهاجيين، وهؤلاء قد ساسوا البلاد ولم يألو جهدا في تطويرها عمرانيا وحضاريا. وقد حدثنا عنهم المؤرخون القدماء، ولكنهم عنوا بالوقائع الحربية والنزاعات السياسية أكثر من عنايتهم بالناحية الحضارية، فبقيت الأخبار المتعلقة بالتاريخ الحضاري مغمورة وسط الأحداث السياسية، جاء هذا العمل ليسد هذه الثلمة، حتى يكون بحثنا استمرار للجهود وإثراء لها.

حيث سنعتني بجميع جوانبه السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية والثقافية والحضارية، ذلك أن الأحداث الجمة التي عرفتها الدولة الصنهاجية لم تحل دون بروز حركة ثقافية وعلمية مزدهرة شيدت المدارس والمساجد وطورت الصناعة وتنوعت الرحلات العلمية إلى أقصى البلاد الإسلامية، وربطت علاقات تبادل مع المراكز العلمية في الأندلس وبغداد ومصر ونسيبور، وشجعت العلماء مما جعل هؤلاء يقبلون عليها من كل فج عميق.



465 دج

www.opu-dz.com



9789961008720

Edition: 4796